الحشاشون

فرقة ثوريّة في تاريخ الإسلام

تأليف

برنارد لويس

تعريب

محمد العزب موسى

دار آزال للطباعة والنشر والتوزيع

مكتبة مدبولي

القاهرة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الثانية
١٩٨٦

دار آزال
للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش المزرعة - مركز بيروت التجاري
هاتف : ٣٠٠١٧٦ - ٣١٨٨٥٦
ص . ب : ١٤/٦٢٩١
بيروت - لبنان

مكتبة مدبولي
القاهرة
٦ ميدان طلعت حرب

مقدمة المترجم

يسرني أن أقدم إلى القارىء العربي ترجمة لكتاب ثمين مغر بالقراءة والتأمل إلى أقصى حد كهذا الكتاب « الحشاشون - فرقة ثورية في تاريخ الإسلام » من وضع المؤرخ الانجليزي والمستشرق الكبير البروفيسور برنارد لويس .

والدكتور برنارد لويس غني عن التعريف خاصة في أوساط المشتغلين بالدراسات التاريخية المتعلقة بالشرق الأوسط في العصر الوسيط ، ومن مؤلفاته السابقة « جذور الاسماعيلية » وهي رسالته العلمية التي نال بها درجة الدكتوراه ، و « العرب في التاريخ » و « ظهور تركيا الحديثة » و « استنبول وحضارة الامبراطورية العثمانية » و « الشرق الأوسط والغرب » . وكان قبل وفاته مؤخراً أستاذاً لتاريخ الشرق الأدنى والأوسط بجامعة لندن .

أما كتابه « الحشاشون » فقد ظهر في عام ١٩٦٧

في وقت اتجهت فيه أنظار العالم بشدة إلى الشرق الأوسط نتيجة لتفجر الصراع العربي الاسرائيلي ونشوء ما عرف بأزمة الشرق الأوسط ، وفيه يفتح المؤلف صفحة هامة غامضة في تاريخ المنطقة ويجلوها جلاء بيناً حتى ليخيل للقارىء كأن الأحداث والشخصيات تقفز مجسمة من بين سطور الكتاب . وقد تتبع المؤلف في كتابه تاريخ فرقة الحشاشين الاسماعيلية منذ بداياتها الاولى إلى نهايتها وهي فرقة لعبت دوراً غريباً ليس بالقصير في تاريخ المنطقة ونسجت حولها الخرافات والروايات والأساطير ، وأعطت اسمها « لفن القتل » و « الاغتيال السياسي » في اللغات الأوربية الحديثة . ويستعرض المؤلف في بحثه الشيق تطور فرقة الحشاشين في التاريخ والأساطير ومعتقداتها ووسائلها في الانتقام من خصومها وأهدافها الدينية والسياسية كما يبحث مغزاها في تاريخ الإسلام وتاريخ الحركات الثورية والارهابية .

وقد اعتمد المؤلف في اعداد دراسته على كثير من المصادر والمؤلفات الأوربية والعربية والفارسية أفرد لها قسماً خاصاً في نهاية الكتاب استغرق ٢٠ صفحة تحت عنوان « ملاحظات » وقد رأيت أن أتجاهل ترجمة هذا القسم حتى لا يشق على القارىء لا سيما أنه موجه فحسب إلى الباحث المتخصص الذي يريد مواصلة البحث في بعض النقاط المثارة ، ومن ناحية أخرى فان اسم برنارد لويس في حد ذاته ضمانة

كافية لدقة البحث وسلامة مصادره الأمر الذي يجعل القارىء في غنى عن متابعة المراجع وراءه .

أما الترجمة العربية فقد حاولت جهد الطاقة أن تأتي بسيطة واضحة في الوقت الذي لا تحيد فيه قيد أنملة عن الأصل الانجليزي مما يجعلها أقرب ما تكون إلى الترجمة الحرفية الدقيقة فيما عدا فقرة أو اثنتين من الكتاب الأصلي تجاوزت عن ترجمتهما نظراً لأنهما استطراد عن مؤلف عربي مترجم إلى الانجليزية لم أستطع الحصول عليه ، أما أسماء الأماكن وبعض الأشخاص الواردة في الكتاب ومعظمها فارسي فقد ترجمتها حسب نطقها الانجليزي كلما عسر عليّ العثور على نطقها الفارسي مع ايراد الاسم الانجليزي عند ذكر الاسم لأول مرة .

وآمل أن أكون بهذا الجهد المتواضع قد سددت مكاناً شاغراً في المكتبة التاريخية الإسلامية العربية بالاضافة إلى تقديم دراسة أصلية ممتعة عن فرقة إسلامية مدانة وغامضة احتلت ذات يوم صفحة هامة في تاريخنا قبل أن يطويها التاريخ بين جنباته الواسعة فلم نعد نذكر عنها سوى الاسم والخرافة والنذر اليسير من الحقيقة في وقت نحن أشد ما نكون فيه حاجة إلى مراجعة تاريخنا وسبر أغواره ومصادره ... والله الموفق والمستعان .

محمد العزب موسى

الفصل الاول

اكتشاف الحشاشين

في عام ١٣٣٢ عندما كان الملك فيليب السادس ملك فرنسا يفكر في القيام بحملة صليبية جديدة لاسترداد الأماكن المقدسة التي فقدتها المسيحية ، وجد قس ألماني يدعى بروكاردوس ان من واجبه أن يضع رسالة يقدم فيها للملك النصح والارشاد قبل أن يضطلع بهذا المشروع . وأفرد بروكاردوس — الذي قضى فترة من حياته في أرمينيا — جزءاً هاماً من رسالته للحديث عن الأخطار الغريبة التي تنطوي عليها مثل تلك الحملة إلى الشرق ، والاحتياطات الواجب اتخاذها لدرء هذه الأخطار .

من هذه الأخطار — كما يقول بروكاردوس — « أذكر الحشاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان ويتفاداهم ، انهم يبيعون أنفسهم ، ويتعطشون للدماء البشرية ، ويقتلون الأبرياء مقابل أجر ، ولا يلقون اعتباراً للحياة أو النجاة ، وهم يغيرون مظهرهم كالشياطين التي تتحول إلى ملائكة من النور ، وذلك أنهم يحاكون الحركات والثياب واللغات

والعادات والتصرفات التي تأتيها الأمم والأقوام المختلفة ، وهكذا يتخفون في ثياب الشاة لتنفيذ أغراضهم ، ويتعرضون للموت بمجرد أن يكتشفهم الناس ، وحيث أنني في الواقع لم أرهم ولكني أعرف عنهم ذلك بالشهرة والكتابات الصحيحة فحسب ، لذلك لا يمكنني أن استطرد أكثر من ذلك أو أن أعطي مزيداً من المعلومات ولا أستطيع أن أبين كيف يمكن أن يعرفهم الإنسان من واقع عاداتهم أو غيرها من العلاقات ، لأنهم فيما يتعلق بهذه الأشياء غير معروفين لي وللآخرين كذلك ، كما لا أستطيع أن أبين كيف يمكن أن يعرفهم الإنسان بأسمائهم اذ أنهم بسبب بشاعة مهنتهم ، وكراهية الجميع لهم ، يحاولون اخفاء أسمائهم بقدر ما يستطيعون ، ولذا فلست أعرف سوى وسيلة واحدة لوقاية الملك وحمايته ، وهي أنه لا ينبغي السماح بأعطاء وظائف القصر الملكي أو أية خدمة فيه مهما كانت صغيرة أو مختصرة أو متواضعة إلا للمعروفين تماما . كما لا ينبغي السماح لأحد بدخول القصر إلا لهؤلاء الذين تعرف بالتحديد دولتهم وحكامهم ونسبهم وحالتهم ، أي ينبغي باختصار أن يكون الشخص المسموح له بالاقتراب من الملك معروفاً تماماً » .

فالحشاشون كما يراهم بروكاردوس كانوا قتلة مأجورين سريين من نوع خطر وذوي مهارة خاصة . وبالرغم من أنه عدهم من بين مخاطر الشرق إلا انه لم يربط بينهم وبين

أي مكان معين أو فرقة أو دولة ، ولم يعز اليهم أية معتقدات دينية أو أغراض سياسية ، فهم ببساطة قتلة قساة أكفاء وينبغي أخذ الحيطة منهم باعتبارهم كذلك ، وفي الواقع لم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلمة « حشاش » Assassin قد دخلت بأشكال مختلفة في الاستخدام الأوربي بهذا المعنى العام أي معنى القاتل المحترف المأجور ، فنجد المؤرخ الفلورنسي جيوفاني ڤيللاني الذي توفي عام ١٣٤٨ يخبرنا كيف أن حاكم لوكا أرسل حشاشيه I Soui assassini إلى بيزا لقتل أحد أعدائه المزعجين هناك ، وحتى قبل ذلك نجد دانتي في اشارة عابرة له في النشيد التاسع عشر من الجحيم يتحدث عن « الحشاش الخائن » Lo perfido assassino ويفسر فرانشسكو دابوتي شارح دانتي في القرن الرابع عشر هذا التعبير لبعض القراء الذين كانوا في ذلك الوقت يجدونه غريباً وغامضاً فيقول « الحشاش هو الذي يقتل الآخرين مقابل أجر »

Assassino é celui che uccide altrui per danari

ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة حشاش Assassin اسماً شائعاً في معظم اللغات الأوربية وتعني القاتل أو بالتحديد الذي يقتل خلسة أو غدراً وغالباً ما تكون ضحيته شخصية عامة وهدفه التعصب أو الجشع .

ولكن الأمر لم يكن دائماً كذلك ، فالكلمة كما ظهرت لأول مرة في سجلات الصليبيين كانت تعني فرقة إسلامية

غريبة في الشرق تتزعمها شخصية غامضة تعرف بشيخ الجبل ، وهذه الفرقة مكروهة بسبب عقائدها وأفعالها من جانب المسيحيين والمسلمين الطيبين على السواء ، ونجد وصفاً مبكراً لهذه الجماعة في تقرير كتبه مبعوث أرسله الامبراطور فريدريك بربروسة إلى مصر وسوريا عام ١١٧٥ ، فقد كتب يقول :

« لاحظ أنه يوجد عند تخوم دمشق وانطاكية وحلب جنس معين من العرب يعيشون في الجبال يسمون أنفسهم بالحشاشين ، ويعرفون في الرومانية بسادة الجبل ، هذه السلالة من الرجال يعيش أفرادها بلا قانون ، وهم يأكلون لحم الخنزير الذي تحرمه شريعة العرب ، ويأتون المحارم من أمهاتهم وأخواتهم ، ويعيشون في الجبال في شبه منعة كاملة وراء أسوار قلاعهم الحصينة ، ولما كانت بلادهم ليست خصبة بما فيه الكفاية لذلك فانهم يعتمدون على ماشيتهم . ولهم سيد يلقي أشد الرعب في قلوب كل الأمراء العرب القريبين والبعيدين على السواء وكذلك يخشاه الحكام المسيحيون المجاورون لهم ، لأن من عادته أن يقتلهم بطريقة تدعو للدهشة ، وهذه الطريقة كالتالي : هذا الأمير يملك في الجبال عديدا من القصور البالغة الجمال تحيطها أسوار عالية جداً بحيث لا يستطيع أحد الدخول إلا عبر باب صغير عليه حراسة مشددة ، وفي هذه القصور يربي عديدا من أبناء الفلاحين الذين يأخذهم منذ طفولتهم

المبكرة ، وهناك يجري تعليمهم لغات مختلفة كاللاتينية والاغريقية والرومية والعربية وغيرها ، وهؤلاء الشبان الصغار يلقنهم معلموهم — من شبابهم المبكر إلى رجولتهم الكاملة — أن عليهم أن يطيعوا سيد القلعة في كل ما يقوله أو يأمر به ، وأنهم إذا فعلوا ذلك فانه — وهو المسيطر على جميع الآلهة — سوف يهبهم مسرات الفردوس ، وهم يلقنون كذلك أن لا أمل لهم في النجاة إذا قاوموا إرادته في أي شيء ، ولاحظ أنهم منذ الاتيان بهم أطفالا لا يرون أحداً سوى معلميهم وأسيادهم ولا يحصلون على أي تعليم آخر ، وفي الوقت المناسب يجري استدعاؤهم إلى حضرة الأمير ، وعندما يكونون في حضرته يسألهم عما إذا كانوا راغبين في إطاعة أوامره من أجل أن يمنحهم نعمة الفردوس، وعندئذ ينفذون ما تلقنوه بدون اعتراض أو ريبة فيرمون بأنفسهم تحت قدميه ويجيبون بحماسة أنهم سوف يطيعونه في كل ما يأمر به ، وحينئذ يقوم الأمير بإعطاء كل منهم خنجراً ذهبياً ويرسلهم لقتل من يشاء من الأمراء » !

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب وليم أسقف صور وصفاً مختصراً لهذه الفرقة في تاريخه عن الدويلات الصليبية فقال « يوجد في اقليم صور ، أو بمعنى آخر فينيقيا ، وفي دوقية تورتوزا أناس يملكون عشرة قلاع قوية مع ما يتصل بها من القرى ، وعددهم كما سمعنا مراراً حوالي ٦٠ ألفاً أو يزيد ، ومن عاداتهم أن يختاروا رئيسهم ليس

بحق الوراثة وانما باعتباره الأفضل الذي يستحق الرئاسة وهم يكرهون أن يخلعوا عليه أي لقب من ألقاب التبجيل ويكتفون بتسميته « الأكبر » ، ورابطة الولاء والطاعة التي تربط بين هؤلاء الناس ورئيسهم من القوة بحيث أنه لا يوجد أي عمل شاق أو صعب أو خطر يكلفهم به إلا وأقدموا على ادائه بحماسة بالغة بمجرد أن يأمر به الرئيس ، فاذا كان هناك مثلا أمير يكرهه هؤلاء الناس أو لا يثقون فيه فان رئيسهم يعطي خنجراً لواحد أو أكثر من رعاياه وبمجرد أن يتلقى أحدهم الأمر يخرج لاداء مهمته دون اعتبار لنتائج فعلته أو امكانية الهرب بعد ادائها ، وربما تأخذه حماسته لانهاء مهمته إلى العمل والكدح فترة طويلة حتى تسنح له الفرصة لتنفيذ أوامر رئيسه . ونحن والعرب نسميهم الحشاشين ولكننا لا نعرف أصل هذه التسمية » .

وفي عام ١١٩٢ عثرت خناجر الحشاشين — التي كانت قد اغتالت حتى ذلك الحين عدداً من الأمراء والقواد المسلمين — على أول ضحية لها من الصليبيين ، وهو كونراد أوف مونتفيرات أمير مملكة القدس اللاتينية ، وقد أحدث هذا الاغتيال أثراً عميقاً بين الصليبيين ، ووجد معظم مؤرخي الحملة الصليبية الثالثة شيئاً يقولونه عن أشياع هذه الطائفة ، وعقائدهم الدينية ، ووسائلهم المريعة ، ورئيسهم المخيف .

فكتب المؤرخ الألماني أرنولد أوف لوبيك يقول « سوف أحكي الآن أشياء عن هذا « الأكبر » قد تبدو غريبة ولكن أكد صحتها لي شهود يوثق بهم ، لقد استطاع هذا الشيخ بطرقه السحرية أن يغري قومه بأن يعبدوه ولا يقتنعوا بإله سواه ، وأغواهم بطريقة غريبة مستخدماً الآمال والوعود بالمسرات والبهجة الخالدة حتى جعلهم يفضلون الموت على الحياة ، ان ايماءة منه كافية لأن تجعل الكثيرين منهم يقفزون من فوق الأسوار المرتفعة فتدق أعناقهم وتتحطم جماجمهم ويموتون ميتة بائسة ، وهو يؤكد لهم أن أسعدهم مآلاً هم الذين يسفكون دماء الآخرين ويلقون حتفهم بالتالي انتقاماً لفعلتهم ، ولذا فانهم — عندما يختار بعضهم للموت بهذه الطريقة — يعدون أنفسهم لاغتيال من يحددهم ببراعة ثم يسلمون أنفسهم للموت سعداء جزاء لما فعلوه ، والشيخ يقدم لهم بنفسه خناجر مخصصة لهذه المهمة ثم يشملهم على نحو يجعلهم ينغمرون في حالة من الوجد والابتهاج الغامر ونسيان أي شيء آخر ويعرض عليهم بسحره أحلاماً خيالية ومسرات وبهجات كبيرة أو بالأحرى مبهرجة زائفة ويعدهم بأن هذه الأشياء ستكون خالصة لهم جزاءً لهم » .

غير أنه في البداية كان ولاء الحشاشين لسيدهم هو الذي جذب انتباه أوربا اليهم بأكثر من وسائلهم في الاغتيال . يقول أحد شعراء التروبادور من مقاطعة بروفنس

الفرنسية لحبيبته « أنت تسيطرين عليّ بسحرك أكثر مما يسيطر الشيخ على حشاشيه الذين يذهبون لقتل أعدائه الفانين » ويقول آخر « كما يخدم الحشاشون سيدهم باخلاص لا ينضب كذلك أحبك بولاء لا يكل » ، وفي خطاب حب مجهول الصاحب يقول كاتبه مؤكداً لحبيبته « أنا حشاشك الذي يتمنى أن يحظى بفردوسك عن طريق تنفيذ أوامرك » . ولكن مع مرور الزمن أصبح « الاغتيال » وليس « الولاء » هو الصفة ذات التأثير الأقوى والتي أعطت لكلمة حشاش Assassin معناها الذي احتفظت به حتى اليوم .

وعندما طال بقاء الصليبيين في الشرق أمكن الحصول على المزيد من المعلومات عن الحشاشين ، بل وأمكن لبعض الأوربيين أن يلتقوا بهم ويتحدثوا معهم ، فقد نجح فرسان المعبد Templars والاسبتياريون Hospitallers من أن يفرضوا سيطرتهم على قلاع الحشاشين ويحصلوا على الجزية منهم . ويسجل وليم الصوري محاولة فاشلة من شيخ الجبل لاقناع ملك القدس بعقد حلف بينهما ، ويضيف من أتم تاريخه قصة مشكوكاً فيها تقول ان الكونت هنري أوف شمبانيا عندما عاد من أرمينيا في عام ١١٩٨ استضافه شيخ الجبل في قلعته ، وأمر عدداً من رجاله الأوفياء بالقفز إلى حتفهم من فوق أسوار القلعة ليدلل لضيفه على مدى ولاء أتباعه له ، ثم عرض عليه في كرم أن يؤدي له أي خدمة بواسطة أمثال هؤلاء الرجال وقال له « إذا كان

هناك أي شخص قد أساء اليك فأبلغني وسوف يقتل » . ولكن الأكثر قبولا ومعقولية هو ما يرويه المؤرخ الانجليزي ماتيو الباريسي عن وصول سفارة لبعض الحكام المسلمين وبخاصة من شيخ الجبل إلى أوربا في عام ١٢٣٨ ليطلبوا مساعدة الفرنسيين والانجليز ضد الخطر المغولي الجديد اللائح من الشرق ، وعندما قام لويس التاسع بحملته الصليبية إلى الأراضي المقدسة في عام ١٢٥٠ كان في امكانه أن يتبادل الهدايا والبعثات مع شيخ الجبل ، وكان هناك راهب فرنسي يتحدث العربية يدعى ايف البريتوني صحب رسل الملك إلى الحشاشين وتناقش مع رئيسهم في المسائل الدينية ، ونستطيع أن نميز في تقريره — رغم ضباب الجهل والتحيز — آثاراً واهية لبعض النظريات المعروفة لدى تلك الطائفة الإسلامية التي ينتمي اليها الحشاشون .

عرف الصليبيون الحشاشين كفرقة في سوريا فحسب ، ولم يهتموا كثيراً بوضعهم في الإسلام أو علاقاتهم بالجماعات الاخرى في مختلف أرجاء الديار الإسلامية . وقد لاحظ جيمس أوف ڤيتري أسقف عكا وهو واحد من أعرف الكتاب الصليبيين بالشئون الإسلامية في بداية القرن الثالث عشر أن هذه الفرقة بدأت في ايران ولكن يبدو انه لم يعرف أكثر من ذلك . وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر وصلت معلومات جديدة مباشرة عن أصل الفرقة في ايران ، وأول من جاء بهذه المعلومات وليم أوف ريبروك William

of Rubruck وهو قس فلمنكي أرسله ملك فرنسا بين سنتي ١٢٥٣ – ١٢٥٥ في بعثة إلى بلاط الخان المغولي الأكبر في كراكوروم بمنغوليا ، وقد مر أثناء رحلته عبر ايران حيث لاحظ وجود جبال الحشاشين ملحقة بجبال الخزر جنوبي بحر الخزر Caspian Sea وعندما وصل القس إلى كراكوروم دهش لاحتياطات الأمن المشددة المتخذة هناك ، وعرف أن السبب في ذلك أن الخان الأكبر قد سمع أن هناك ما لا يقل عن أربعين من الحشاشين يتخفون في أزياء مختلفة قد أرسلوا لقتله ، ورداً على ذلك أرسل الخان أحد أخوته على رأس جيش إلى بلاد الحشاشين وأمره بالفتك بهم جميعاً .

والكلمة التي استعملها وليم أوف ريبروك للدلالة على الحشاشين في ايران هي Muliech أو Mulhit وهي تحوير للكلمة العربية « ملحد » وكانت شائعة الاستخدام في وصف الفرق الدينية المنحرفة وخاصة الاسماعيلية التي ينتمي اليها الحشاشون .

أسطورة الفردوس

أما الرحالة الشهير ماركو بولو الذي مر عبر ايران في عام ١٢٧٣ فقد وصف قلعة « ألموت » التي ظلت طويلاً مقراً للفرقة ، ونقرأ في كتاب ماركو بولو ما يلي :

« انهم يسمون شيخ الجبل في لغتهم ألودين (علاء الدين » وقد قام باغلاق وادي بين جبلين وحوله إلى حديقة فيحاء ، أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عين ، وملأها بكل أنواع الفاكهة ، وأقام فيها قصوراً ومقصورات من أروع ما يمكن تخيله وجميعها مغطاة برسوم فاتنة وموهة بالذهب ، وجعل فيها جداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء ، وأقام على خدمة الحديقة فاتنات من أجمل نساء العالم يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية ويغنين بأصوات رخيمة ويؤدين رقصات تخلب الألباب ، ذلك لأن شيخ الجبل كان يريد أن يوحي لشعبه بأن هذه هي الجنة الحقيقية ، ولذا فقد نظمها بالوصف الذي جاء به محمد للفردوس كحديقة جميلة تفيض بأنهار من الخمر واللبن والعسل والماء ومليئة بالحور العين ، ومن المؤكد أن المسلمين في هذه الجهات يعتقدون انها الجنة حقاً .

« والآن ، لا يسمح لأحد بدخول هذه الحديقة إلا لهؤلاء الذين يراد لهم أن يكونوا حشاشين Ashishin وتوجد قلعة عند مدخل الحديقة تبلغ من القوة والمناعة انها تستطيع مقاومة كل العالم ، وليس هناك طريق آخر للدخول ، وهو يحتفظ في بلاطه بشبان من أبناء المنطقة المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، وهو السن الملائم للجندية ، وتعود أن يقص عليهم قصصاً عن الجنة كما كان يفعل محمد ، وهم يعتقدون فيه كما

يعتقد المسلمون في النبي ، ثم يدخلهم حديقته في مجموعات من أربعة أو ستة أو عشرة أفراد كل مرة بعد أن يجعلهم يشربون مخدراً معيناً يسلمهم إلى نعاس عميق ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك ، وهكذا فانهم عندما يستيقظون يجدون أنفسهم في الجنة !

« وهكذا فانهم عندما يستيقظون ويجدون أنفسهم في مثل هذا المكان الأخاذ يحسبون أنه الفردوس حقاً ، وتغازلهم السيدات والفتيات بما يملأ قلوبهم حبوراً حتى يشبعن كل رغبات هؤلاء الشبان إلى درجة أنهم يتمنون أن لا يغادروا هذا المكان أبداً .

« والآن ، هذا الأمير الذي يسمونه الشيخ أقام لنفسه بلاطاً عظيماً رائعاً ، وجعل سكان الجبل البسطاء يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه نبي عظيم ، وعندما يريد أن يرسل أحد حشاشيه في مهمة فإنه يأمر باعطاء المخدر الذي تحدثت عنه من قبل إلى أحد الشبان في الحديقة ثم يحملونه إلى القصر ، ولذا فانه عندما يستيقظ يجد نفسه في القلعة وليس في الفردوس ، ثم يؤتى به إلى حضرة الشيخ فيركع أمامه في احترام بالغ معتقداً أنه في حضرة نبي حقيقي ، وعندئذ يسأله الأمير من أين جاء ، فيجيبه الشاب أنه جاء من الفردوس ! وانه كما وصفه محمد في القرآن تماماً . وهذا بالطبع يفعم الحاضرين الذين لم يشاهدوا ذلك المكان بأكبر رغبة في الدخول إلى هناك .

« ولذا ، فانه عندما يريد الشيخ أن يقتل أميراً ما فإنه يقول لمثل هذا الشاب : اذهب واقتل فلاناً أو فلاناً وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس ، واذا مت سوف أرسل ملائكتي لتحملك إلى هناك .

« هكذا أجبرهم الشيخ على الاعتقاد ، ولذا فانهم يسارعون إلى تلبية كل أوامره مهما كانت عسيرة أو قاتلة رغبة منهم في العودة إلى الفردوس ، وهكذا أيضاً بث ألوان الرعب في قلوب جميع الأمراء وجعلهم يدفعون له الجزية من أجل أن يمنحهم السلام والمودة .

« وينبغي كذلك أن أخبركم بأن الشيخ لديه أشخاص آخرون تحت أمرته ينسخون أقواله ، ويتصرفون تماماً كما يفعل ، وقد أرسل واحداً منهم إلى اقليم دمشق وأرسل آخر إلى كردستان » . ا . هـ .

ولكن يجب أن نلاحظ أنه عندما كان ماركو بولو — أو بالأحرى واضع كتابه — يتحدث عن الاسماعيلية في فارس باعتبارهم « حشاشين » وعن زعيمهم باعتباره « شيخ الجبل » كان يستخدم تعبيرات شائعة في أوربا ، هذه التعبيرات جاءت من سوريا لا من فارس ، فالمصادر العربية والفارسية على السواء تدل على أن كلمة « حشاشين » كلمة سورية محلية كانت تعني فحسب اسماعيلية سوريا وليس اسماعيلية فارس أو أية دولة أخرى ، كما أن لقب

« شيخ الجبل » كان سوريا كذلك ، أما بالنسبة للاسماعيليين أنفسهم فقد كان من الطبيعي أن يسموا رئيسهم « الشيخ » بالعربية أو « بير » بالفارسية ، وهو اللقب الشائع للتبجيل بين المسلمين ، أما تعبير « شيخ الجبل » بالتحديد فيبدو أنه كان مستخدماً في سوريا وخاصة بين الصليبيين حيث لم يرد في أي نص عربي من تلك الفترة ، ولكن استخدام هذه التعبيرات أصبح شائعاً بالنسبة لفرعي الفرقة الاسماعيلية في سوريا وايران على السواء ، وقد تلت قصة ماركو بولو قصص أخرى عمقت تأثير الحشاشين السوريين في مخيلة أوربا ، فشاعت القصص عن حدائق الفردوس ، وقفز الأنصار المتحمسين إلى الموت ، ومهارة الحشاشين الفائقة في التخفي والاغتيال ، وأساليب شيخ الجبل الغريبة في الآداب الأوربية ثم انتشرت من أدب التاريخ والرحلات إلى الشعر والحكايات والأساطير .

وكان للحشاشين تأثير في السياسات الأوربية أيضاً ، فمنذ وقت مبكر شعر البعض بأصابع شيخ الجبل في الاغتيالات السياسية أو محاولات الاغتيال التي جرت في أوربا ، ففي عام ١١٥٨ عندما كان فريدريك بربروسة يحاصر « ميلان » زعموا أن قد تم العثور على « حشاش » في معسكره ، وفي عام ١١٩٥ عندما كان الملك ريتشارد قلب الأسد في « شينون » قيل أنه تم القاء القبض على ما لا يقل عن خمسة عشر شخصاً ممن يدعون بالحشاشين واعترفوا

بأنهم أرسلوا من قبل ملك فرنسا لقتله ، ولم يمض طويل وقت حتى أصبحت مثل هذه الاتهامات شائعة واتهم عدد كبير من الحكام أو الزعماء الأوربيين بأنهم متحالفون مع شيخ الجبل ويستخدمون خدمات مبعوثيه في تحطيم أعدائهم وخصومهم . ولكن الذي لا شك فيه أن مثل هذه الاتهامات لا أساس لها ، فان رؤساء الحشاشين سواء في سوريا أو في ايران لم تكن لهم مصلحة في المؤامرات والفتن بأوربا الغربية ، كما أن الأوربيين لم يكونوا بحاجة إلى عون خارجي لتنفيذ مختلف فنون الاغتيال . وعلى أية حال ، فما أن حل القرن الرابع عشر حتى أصبحت كلمة Assassin تعني « القاتل » ولم تعد تستخدم للدلالة على أية علاقة محددة بالطائفة التي ينتمي اليها هذا الاسم في الأصل .

دراسات مبكرة

ولكن فرقة الحشاشين استمرت تثير الاهتمام ... وقد قام دنيس ليبي دي باتيلي Denis Lebey de Batilly بأول محاولة غربية لتحقيق تاريخها تحقيقاً علمياً ، ونشرت هذه الدراسة في عام ١٦٠٣ ، وهذا التاريخ له مغزاه ، فالأخلاقيات الوثنية لعصر النهضة كانت قد أنعشت الاغتيال كسلاح سياسي ، والحروب الدينية رفعته إلى مستوى الواجب المقدس ، كما أن ظهور ملكيات وامارات جديدة

حيث يقرر رجل واحد مجرى السياسة والدين في الدولة قد جعل من الاغتيال سلاحاً فعالاً ومقبولاً في نفس الوقت وأصبح الأمراء والأساقفة على السواء راغبين في استئجار القتلة للتخلص من خصومهم السياسيين أو الدينيين ، وظهر المنظرون ليضيفوا على منطق العنف العاري غطاءً ايديولوجياً براقاً .

وكان غرض ليبي دي باتيلي متواضعاً : أن يشرح المعنى التاريخي الصحيح لتعبير اكتسب شيوعاً قوياً في فرنسا ، وجاءت دراسته مستمدة من المصادر المسيحية فحسب ، ولم تذهب لأكثر مما كان معروفاً في أوربا خلال القرن الثالث عشر ، ولكن حتى إذا لم تكن دراسة دي ليبي تحوي معلومات جديدة فانها كانت ثمرة نظرة جديدة ، هذه النظرة كان من السهل أن تأتي إلى جيل شاهد وليم أوف ناساو William of Nassau يردى قتيلاً بواسطة قاتل استأجره ملك أسبانيا ، وهنري الثالث ملك فرنسا يلقى مصرعه بطعنة خنجر من قس دومنيكي ، واليزابيت ملكة انجلترا لا تنجو إلا بالكاد من القتلة الذين يتربصون بها .

ولكن أول محاولة حقيقية لحل لغز الحشاشين من حيث منشأهم وشخصيتهم كانت من ثمار عصر التنوير المبكر ، ففي عام ١٦٩٧ نشر بارتولمي دي هيربلوت Bartholomé d'Herbelot عمله العظيم المسمى بالمكتبة

الشرقية Bibliothèque Oriental وهـو عمل رائد يحوي معظم ما يمكن أن تقدمه الدراسات الشرقية في أوربا في ذلك الوقت من معلومات عن الإسلام تاريخاً ودينا وأدباً ، ولأول مرة نجد هنا دارساً غربياً يستخدم بموضوعية وعدم تحيز المصادر الإسلامية المتاحة في أوربا على قلتها حينئذ وحاول أن يضع طائفة الحشاشين بسوريا وايران داخل المحتوى العريض لتاريخ الإسلام الديني ، فأوضح انهم ينتمون إلى الاسماعيلية وهي فرقة هامة منشقة عن « الشيعة » التي يمثل صراعها مع « السنة » الانقسام الديني الرئيسي في الإسلام وأوضح أن رؤساء فرقة الإسماعيلية يقولون أنهم أئمة ينحدرون عن اسماعيل بن جعفر ، ومنه ينتمون إلى النبي محمد ﷺ عن طريق ابنته فاطمة زوج الإمام علي .

وخلال القرن الثامن عشر واصل مستشرقون ومؤرخون آخرون بحث الموضوع ، وأضافوا معلومات جديدة إلى تاريخ الحشاشين وعقائدهم وروابطهم وفرقة الاسماعيلية التي انحدروا منها . كما حاول بعض الكتاب تفسير أصل كلمة Assassin وهي كلمة كان معروفا بوجه عام أنها عربية ولكن لم يعثر عليها في أي نص عربي مكتوب ، واقترحت عدة اشتقاقات ولكنها لم تكن مقنعة جميعاً .

ومع بداية القرن التاسع عشر تجدد الاهتمام بالحشاشين فقد أنعشت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث اهتمام

الجمهور بأخبار التآمر والاغتيال . ثم جاءت حملة بونابرت إلى مصر وسوريا لتنشيء علاقات جديدة وثيقة بين الغرب والشرق الإسلامي وتوفر فرصاً جديدة للدراسات الإسلامية وبعد محاولات قام بها دارسون صغار لاشباع اهتمام الرأي العام جاء سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy أكبر أساتذة الدراسات العربية في عصره وأبدى اهتماماً بالموضوع ، وفي ١٩ مايو ١٨٠٩ قرأ دي ساسي تقريراً أمام المعهد الفرنسي Institut de France عن أسرة الحشاشين واشتقاق اسمها .

كانت دراسة سيلفستر دي ساسي بمثابة علامة هامة في تاريخ الدراسات الخاصة بالحشاشين فبالاضافة إلى استخدامه للمصادر الشرقية التي استخدمها دارسون سابقون كان في استطاعته أن يستفيد من مجموعة غنية من المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بباريس Bibliothèque Nationale ومن هذه المخطوطات عدة سجلات عربية مطولة عن الحملات الصليبية لم تكن معروفة من قبل للدارسين في الغرب ، وفاق في تحليله للمصادر جهود كل سابقيه من الكتاب الأوربيين . ولا شك أن أهم ما احتوت عليه دراسة دي ساسي تفسيره النهائي للمشكلة المعقدة الخاصة بأصل كلمة assassin فبعد أن فحص دي ساسي النظريات السابقة عن أصل هذه الكلمة ورفضها جميعاً أوضح على نحو مقنع أن الكلمة جاءت من الأصل العربي « حشيش »

hashish وقال ان الأشكال المختلفة للكلمة مثل assassini و Assassini و heyssissini الخ التي وردت في المصادر الصليبية انمـا هي مؤسسة على الأشكال المختلفة للكلمة العربية مثل حشيشي وحشاش وجمعهما حشيشيين وحشاشين وتأكيداً لذلك استطاع دي ساسي أن يورد عدة نصوص عربية تشير إلى هذه الفرقة باسم « حشيشى » ولكن كلمة « حشاش » لم ترد في أي منها ، ومنذ ذلك الحين تأكدت كلمة « حشيشي » في نصوص اضافية أخرى برزت إلى دائرة الضوء ولكن لم يظهر حتى الآن كما نعلم أي نص عربي يسمى الإسماعيلية بالحشاشين ، وعلى ذلك يبدو أن هذا الجزء من تفسير سيلفستر دي ساسي يجب أن يهمل ، ويمكننا القول بأن كل الأشكال الأوربية للكلمة مشتقة من الأصل العربي « حشيشي » وجمعه في محل نصب « حشيشيين » .

هذا التنقيح يثير مرة أخرى مشكلة دلالة التعبير كشيء مستقل عن اشتقاقه . ان كلمة « حشيش » في اللغة العربية تعني أصلا العشب أو الكلأ ، وبالتحديد العشب الجاف أو العلف الذي تأكله الماشية ، ثم استخدمت فيما بعد للدلالة على القنب الهندي Cannabis Sativa وكان تأثيره المخدر معروفاً بالفعل لدى مسلمي العصور الوسطى أما كلمة « حشاش » فهي أكثر حداثة وتطلق على آكل المخدر المعروف بالحشيش أو القنب الهندي ، وبالرغم من أن

سيلفستر دي ساسي لم يقل كما قال الكثيرون من الكتاب اللاحقين بأن الحشاشين سموا كذلك لأنهم كانوا مدمني القنب الهندي إلا أنه فسر الاسم طبقاً للاستخدام السري للحشيش بواسطة زعماء الفرقة من أجل أن يعطوا مبعوثيهم جرعة مسبقة من مباهج الفردوس التي تنتظرهم لدى نجاحهم في اتمام مهامهم وربط بين هذا التفسير والقصة التي أوردها ماركو بولو وبعض المصادر الشرقية والغربية الاخرى عن حدائق الفردوس السرية التي كان يدخل اليها الأنصار المخدرون .

غير أن هذه القصة رغم ظهورها المبكر وانتشارها الواسع تكاد تكون غير صحيحة اطلاقاً ، ان استخدام الحشيش وآثاره كان شيئاً معروفاً في ذلك الوقت ولم يكن بالسر المجهول أو وقفاً على زعماء تلك الفرقة ، ولم يذكر أحد من الكتاب الاسماعيليين أو كتاب السنة الجادين أن الاسماعيليين كانوا يستخدمون هذا المخدر ، وحتى كلمة « حشيشى » كانت قاصرة الاستعمال على سوريا ولعلها لفظة شعبية استخدمت في غير محلها ، وكل الدلائل تشير إلى أن الاسم هو الذي أوجد القصة لا العكس ، ومن بين التفسيرات المختلفة التي طرحت يبدو أن الأكثر احتمالاً انه تعبير يدل على احتقار العقائد الغثة والسلوك المعيب لأعضاء تلك الفرقة ، فهو تعبير ساخر عن سلوكهم أكثر من كونه وصفاً حقيقياً لأفعالهم . غير أن مثل هذه

القصص — وخاصة بالنسبة للمراقبين الغربيين — ساهمت في تقديم تفسير معقول لسلوك يبدو بدونها غير قابل للتفسير .

فتحت دراسة سيلفستر دي ساسي الباب أمام سلسلة من الدراسات الأخرى حول الموضوع كان أكثرها انتشاراً بالتأكيد « تاريخ الحشاشين » الذي وضعه المستشرق النمسوي جوزيف فون هامر ونشر بالألمانية في شتوتجارت عام ١٨١٨ وترجم إلى الفرنسية والانجليزية في ١٨٣٣ و ١٨٣٥ على التوالي وبالرغم من أن تاريخ فون هامر كان مؤسساً على مصادر شرقية إلا أنه كان أقرب إلى « كراسة دعائية » وضعت خصيصاً للعصر الذي ظهرت فيه ، فهو بمثابة تحذير ضد « النفوذ المأفون للجمعيات السرية .. و .. اساءة استخدام الدين ببشاعة لخدمة الطموح الرهيب الذي لا يلجمه شيء » وهو ينظر إلى الحشاشين باعتبارهم « اتحاد من الدجالين والمغفلين استطاع تحت قناع من التشدد الديني والأخلاقي الاساءة إلى كل الأديان والأخلاقيات ، وان هذه الجماعة من السفاكين الذين سقط تحت نصال خناجرهم أسياد الدول ظلوا أقوياء لأنهم ولمدة ثلاثة قرون استطاعوا أن يبثوا الرعب في قلوب الجميع إلى أن سقط وكر الوحوش في يد الخلافة التي كانت منذ البداية هدفاً للتدمير بأيديهم كرمز للسلطة الروحية والزمنية للمسلمين » وحتى لا يخطىء أحد القراء مقصده أخذ فون هامر يقارن بين الحشاشين وفرسان المعبد والجيزويت وحركة الاستنارة والبنائين

الأحرار وقتلة الميثاق الوطني الفرنسي وقال « كما ظهرت في الغرب الجمعيات الثورية من حركة البنائين الأحرار كذلك ظهر في الشرق الحشاشون من الاسماعيلية ، وان دعاة التنوير الذين ظنوا أن في امكانهم بمجرد التبشير أن يجردوا الأمم من أمرائها ودياناتها قد ظهر جنونهم المرعب واضحاً في آثار الثورة الفرنسية تماماً كما ظهر في آسيا في عهد الحسن الثاني » .

ولقد كان لكتاب فون هامر تأثير كبير ، وظل لقرابة قرن ونصف من الزمان بمثابة المصدر الأساسي لصورة الحشاشين في الغرب . وفي هذه الأثناء كان البحث العلمي يتقدم ولا سيما في فرنسا حيث بذل المستشرقون جهوداً كبيرة في اكتشاف وتحرير وترجمة واستغلال النصوص العربية والفارسية ذات العلاقة بتاريخ الفرقة الإسماعيلية في سوريا وايران ، ومن أهم هذه النصوص أعمال اثنين من المؤرخين الفرس في العهد المغولي وهما الجويني ورشيد الدين وقد اطلع الاثنان على الكتابات الاسماعيلية في « ألموت » واستطاعا باستخدامها أن يقدما أول سرد متصل لتاريخ الإمارة الإسماعيلية في شمال ايران .

إذا كان استخدام المصادر الإسلامية قد أضاف الكثير إلى المعلومات المستقاة من الكتابات الأوربية في القرون الوسطى إلا أن أصحاب هذه المصادر كانوا أساساً من السنة ، وبالرغم من أنهم أحسن اطلاعاً بالطبع من المؤرخين

والرحالة الغربيين إلا أنهم ربما كانوا أكثر عداء تجاه نظريات الاسماعيليين وأهدافهم . ولم تلبث أن تحققت خطوة هامة أخرى إلى الامام بظهور مادة من نوع جديد فلأول مرة تظهر في دائرة الضوء معلومات تعكس مباشرة وجهة نظر الاسماعيليين أنفسهم . فمنذ القرن الثامن عشر لاحظ الرحالة الأوربيون أن الاسماعيليين ما زالوا موجودين في بعض القرى بوسط سوريا ، وفي عام ١٨١٠ نشر روسو القنصل الفرنسي العام في حلب تحت الحاف سيلفستر دي ساسي وصفاً للاسماعيليين بسوريا في أيامه يحتوي على معلومات جغرافية وتاريخية ودينية عنهم ، ولكن مصادر البحث لم توضح ويبدو أنها كانت محلية وشفوية استقاها روسو من أرض البحث كما أضاف سيلفستر دي ساسي بنفسه بعض الملاحظات التفسيرية . وقد كان روسو أول أوربي يحصل على مثل هذه المعلومات المحلية وأحضر إلى أوربا لأول مرة شذرات من المعلومات من الاسماعيليين أنفسهم وفي عام ١٨١٢ نشر مقتبسات من كتاب اسماعيلي حصل عليه من « مصيف » وهو أحد المراكز الاسماعيلية الرئيسية في سوريا ، وبالرغم من أن الكتاب لم يكن يحوي غير معلومات تاريخية ضئيلة إلا أنه ألقى شيئاً من الضوء على النظريات الدينية للفرقة . ولم تلبث أن وجدت نصوص أخرى من سوريا طريقها إلى باريس حيث نشر بعضها فيما بعد ، وخلال القرن التاسع عشر زار عدد من السياح الأوربيين

والأمريكيين القرى الاسماعيلية في سوريا وجاءوا بمعلومات اضافية عن تلك الأطلال وساكنيها .

أما في ايران حيث لا تزال قلعة ألموت العظيمة قائمة فقد أمكن الحصول على معلومات أخرى ولكن بدرجة أقل ففي عام ١٨٣٣ ظهر مقال في « جورنال الجمعية الجغرافية الملكية » لضابط بريطاني يدعى الكولونيل و . مونتيث W. Monteith يصف فيه رحلة قام بها إلى مدخل وادي ألموت ولكنه لم يبلغ القلعة فعلاً ولم يذكر شيئاً عنها ، وهو أمر حققه فيما بعد زميل له يدعى الليفتنانت كولونيل (سير) جوستان شيل Justin Sheil وظهر وصفه للقلعة في نفس الجورنال في عام ١٨٣٨ ، ثم جاء ضابط بريطاني آخر يدعى ستيوارت وزار القلعة بعد ذلك بعدة سنوات ، ثم انقضى زهاء قرن كامل قبل أن يستأنف اكتشاف قلعة ألموت من جديد .

أتباع آغا خان

ولكن كان ثمة ما هو أكثر من الاطلال يحكي مجد الاسماعيليين الغابر في ايران . ففي عام ١٨١١ قام القنصل الفرنسي روسو برحلة من حلب إلى ايران بحثاً عن وجود الاسماعيليين ، ودهش عندما علم انه لا يزال هناك أناس كثيرون في ايران يمتون برابطة الولاء لامام من نسل

اسماعيل ، وعلم ان اسمه شاه خليل الله ويقيم في قرية تدعى « كيك » بالقرب من مدينة « قم » في منتصف الطريق بين طهران وأصفهان ، يقول روسو « ويمكنني أن أضيف ان شاه خليل الله يجله أتباعه كإله ويعزون اليه المقدرة على الاتيان بالمعجزات ويخلعون عليه لقب الخليفة تشريفاً له وتكريماً ، كما يوجد اسماعيليون ينتشرون حتى الهند ويمكن رؤيتهم يأتون بانتظام إلى كيك من على ضفاف الجانج والاندوس ليتلقوا بركات أمامهم نظير ما يأتون به من هدايا فاخرة » .

وفي عام ١٨٢٥ أكد رحالة انجليزي يدعى ح . ب فريزر J.B. Fraser وجود الاسماعيليين في ايران واستمرار ولائهم لرئيسهم وهم وان لم يعودوا يزاولون الاغتيال بناء على أوامره إلا أنهم كما يقول فريزر « وحتى اليوم فان الشيخ أو رئيس هذه الطائفة لا يزال يلقى ولاء أعمى من رعاياه بالرغم من أن حماستهم قد فقدت طابعها العميق المرعب الذي كان لها من قبل » ، وكان هناك أيضاً أنصار لهذه النحلة في الهند « يمتون بالولاء الخاص لقديسهم » وقد قتل شيخهم السابق شاه خليل الله في يزد منذ سنوات (بالتحديد ١٨١٧) بأيدي متمردين ضد حاكم المدينة وخلفه في منصبه الديني أحد أبنائه وهو يلقى نفس الاحترام والتبجيل من أفراد الطائفة .

وجاءت الاضافة التالية إلى المعلومات من مصدر

مختلف تماماً ، ففي ديسمبر ١٨٥٠ نظرت محكمة جنايات بومباي قضية قتل غير مألوفة بعض الشيء ، فقد هوجم أربعة رجال ولقوا مصرعهم في وضح النهار نتيجة لخلافات في الرأي داخل الجماعة الدينية التي ينتمون اليها ، وقدم إلى المحاكمة تسعة عشر شخصاً حكم على أربعة منهم بالاعدام وشنقوا ، كان الضحايا والمتهمون ينتمون إلى طائفة إسلامية محلية تسمى طائفة « الخوجا » وتضم بضع عشرات من الألوف من الأعضاء معظمهم يمتهنون التجارة ويقيمون في بومباي وأنحاء متفرقة أخرى من الهند . وتبين أن الحادث وقع نتيجة لنزاع استمر أكثر من عشرين عاماً فقد بدأ في عام ١٨٢٧ عندما رفضت جماعة من الخوجا دفع الجعل المعتاد الذي يؤدى إلى رئيس طائفتهم المقيم في ايران ، وكان هو ابن شاه خليل الله الذي خلف أباه المقتول في عام ١٨١٧ ، وفي عام ١٨١٨ عينه شاه ايران حاكماً لإقليم « محلات » و « قم » وأضفى عليه لقب « أغا خان » وصار يعرف بهذا اللقب هو وأبناؤه فيما بعد .

وعندما واجه اغا خان المقيم في ايران هذا الرفض المفاجيء من جانب مجموعة من اتباعه في الهند لاداء واجباتهم الدينية أرسل مبعوثاً خاصاً إلى الهند لاقناعهم بالعودة إلى حظيرة العشيرة ، وصحبت المبعوث جدة اغا خان التي يبدو أنها قامت بنفسها بمحاورة خوجات بومباي في محاولة لاستعادة ولائهم ، ونجحت المهمة في

إبقاء معظم أعضاء الطائفة موالين لرئيسهم ولكن جماعة صغيرة أصرت على المعارضة متمسكة بأنه ليس ثمة علاقة ما بين الجماعة الهندية وآغا خان في ايران وليس ثمة ما يرغمهم على الولاء له ، واثار هذا الصراع مشاعر عنيفة داخل الجماعة وصلت إلى قمتها في اغتيالات عام ١٨٥٠ .

وفي هذه الأثناء غادر أغا خان ايران بعد ثورة فاشلة قام بها ضد الشاه وأقام فترة قصيرة في أفغانستان ثم لجأ إلى الهند حيث استطاع أن يحصل على صداقة الانجليز نظير خدمات أداها لهم في أفغانستان والسند . وبعد أن أقام أولاً في السند ثم في كلكتا استقر أخيراً في بومباي حيث جعل من نفسه رئيساً ذا نفوذ فعال على طائفة الخوجا ، ولكن كان لا يزال هناك بعض المنشقين الذين يعارضون مركزه وفكروا في اللجوء إلى القضاء لاحباط دعاويه على الطائفة ، وبعد عدة اجراءات أولية رفع عدد من المنشقين في أبريل ١٨٦٦ دعوى أمام المحكمة العليا في بومباي طالبين الحصول على حكم قضائي يمنع أغا خان من « التدخل في ادارة أوقاف جماعة الخوجا أو التدخل في شئونها » .

ونظرت القضية أمام كبير القضاة سير جوزيف أرنولد واستمر سماع الدعوى ٢٥ يوما جذبت خلالها انتباه كل المشتغلين بمهنة القانون في بومباي ، وقدم الجانبان المتقاضيان أسانيد مفصلة وحججاً كثيرة وذهبت

تحريات المحكمة بعيداً وعميقاً في بحار التاريخ وعلم الأنساب واللاهوت والقانون ، وتقدم للشهادة عدد كبير من الشهود منهم أغا خان نفسه الذي قدم اثباتات بأصله ونسبه ، وفي ١٢ نوفمبر ١٨٦٦ أصدر سير جوزيف أرنولد حكمه في القضية وجاء فيه أن طائفة الخوجا في بومباي جزء من طائفة الخوجا الكبيرة في الهند وهذه تنتمي دينياً إلى الجناح الاسماعيلي للشيعة ، وهم « جماعة من الناس كان أجدادهم هنوداً في الأصل وتحولوا إلى عقيدة الشيعة الامامية الاسماعيلية وظلوا متمسكين بها وقد كانوا دائماً وما زالوا تربطهم روابط الولاء الروحي بورثة الائمة الاسماعيليين » وقد تم تحولهم إلى الشيعة الاسماعيلية منذ حوالي أربعة قرون بواسطة داعية اسماعيلي جاء من ايران وظلوا تحت السلطة الروحية لنسل الائمة الاسماعيلية وآخرهم أغا خان ، وهؤلاء الائمة من نسل أمراء قلعة الموت الذين يدعون أنهم من نسل الخلفاء الفاطميين في مصر وينتمون إلى نسل النبي محمد ﷺ وأتباعهم هم الذين اشتهروا في القرون الوسطى باسم الحشاشين .

وكان حكم أرنولد تؤيده حجج واثباتات تاريخية كثيرة ، وهكذا ثبت قانوناً وضع جماعة الخوجا كجزء من طائفة الاسماعيلية والاسماعيلية كورثة للحشاشين ، وان اغا خان هو الرئيس الروحي للاسماعيلية المعاصرين ووريث ائمة « ألموت » ، وقد نشرت معلومات مفصلة عن الجماعة

لأول مرة عام ١٨٩٩ في الدورية المسماة :
Gazetter of the Bombay Presidency

لفت حكم أرنولد الانتباه إلى وجود طوائف اسماعيلية في أجزاء أخرى من العالم البعض منها لا يعترف برئاسة أغا خان ، وهذه الطوائف أساساً هي أقليات صغيرة في أماكن بعيدة ومنعزلة من الصعب الوصول اليها بكل معنى الكلمة وهي حريصة حتى الموت على ابقاء عقائدها وكتاباتها في طي السر والكتمان ، ولكن بعض هذه الكتابات المخطوطة وجدت طريقها رغم ذلك إلى أيدي الدارسين ، في البداية كانت هذه المخطوطات تأتي فقط من سوريا – وهي أول منطقة اهتم الغربيون بشئون الاسماعيلية فيها حديثاً وفي الأزمنة الوسطى على السواء – ولم يلبث أن تبعتها أخريات من مناطق متباعدة جداً ففي عام ١٩٠٣ أحضر تاجر ايطالي يدعى كابروتي مجموعة تضم ٦٠ مخطوطاً عربياً من صنعاء كانت أول دفعة من نوعها تودع بمكتبة امبروزيانا بميلانو ، وعند فحصها اتضح انها تضم عدة كتب في النظرية الاسماعيلية من وضع كتاب اسماعيليين ما زالوا مقيمين في بعض أجزاء الجنوب العربي كما وجد أن بعضها يحتوي على فقرات مكتوبة بشفرة سرية .

وعلى الجانب الآخر من أوربا اكتشف الدارسون الروس الذين حصلوا على بعض المخطوطات الاسماعيلية

من سوريا أن لديهم اسماعيليين يقيمون داخل حدود امبراطوريتهم . ففي عام ١٩٠٢ نشر الكونت الكسيس بوبرنيسكوي Bobrinskoy بحثاً عن « المنظمة » الاسماعيلية في العالم وتوزيع الاسماعيليين في آسيا الوسطى الروسية ، وفي نفس الوقت تقريباً حصل مسئول روسي في ادارة المستعمرات الخارجية يدعى ا . بولوڤيتسيف Polovtsev على نسخة من كتاب في العقيدة الاسماعيلية مكتوب بالفارسية وأودعت النسخة في المتحف الاسيوي بأكاديمية العلوم الروسية الامبراطورية ، وتلتها نسخة أخرى ، وبين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ حصل المتحف على مجموعة من المخطوطات الاسماعيلية التي اخضرت من شوغنان Shughnan بأعالي نهر اوكسوس Oxus بواسطة المستشرقين زاروبين Zarubin وسيميونوف Semyonov ، وبفضل هذه المخطوطات وما تلاها تمكن الدارسون الروس من فحص آداب وعقائد الاسماعيليين المقيمين في بامير Pamir وما يجاورها من الأقاليم الافغانية في باداخشان Badakhshan .

ومنذ ذلك الحين أحرزت الدراسات الاسماعيلية تقدماً كبيراً وسريعاً ، فقد أمكن الحصول على المزيد من النصوص الاسماعيلية وخاصة من المكتبات الغنية التي تملكها الطائفة في شبه القارة الهندية ، وظهرت أبحاث مفصلة كثيرة بواسطة الدارسين في مختلف البلاد بما فيهم بعض الاسماعيليين أنفسهم ، ولكن اكتشاف الأدبيات الضائعة

لتلك الفرقة كان مخيباً للأمل من بعض جوانبه أو بالتحديد فيما يتعلق بالتاريخ فان الكتب التي خرجت إلى دائرة الضوء تهتم كلية تقريباً بالمسائل الدينية وما يتعلق بها أما الكتب ذات الطبيعة التاريخية فهي قليلة العدد فقيرة المحتوى . ويبدو هذا أمراً حتمياً بالنسبة لطائفة من الأقليات لا تملك أرضاً ولا مؤسسات ثابتة لا يمكن بغيرهما لمؤرخ في القرون الوسطى أن يتصور التاريخ أو يكتبه ، ويبدو أن امارة « ألموت » وحدها هي التي أرخ لبعض أحداثها وحتى هذه وضعها مؤرخون من السنة وليس من الاسماعيلية . ومع ذلك فان الأدب الاسماعيلي رغم انه فقير في المحتوى التاريخي إلا أنه لا يفتقر بأية حال لكل القيمة التاريخية فاذا كانت مساهمته قليلة في قص تاريخ الأحداث التي وقعت للحشاشين في ايران وأقل منها بالنسبة لاخوانهم في سوريا ، إلا أن هذا الأدب ساهم بدرجة كبيرة في تحسين فهمنا للخلفية الدينية لهذه الحركة وجعل من الممكن اعادة تقييم عقائدها وأغراضها وتوضيح المغزى الديني والتاريخي للاسماعيلية في الإسلام ، وللحشاشين في الاسماعيلية ، والنتيجة أن صورة الحشاشين أصبحت تختلف الآن اختلافاً أساسياً عن تلك الصورة التي جاءت بها الشائعات والخيالات التي نقلها رحالة القرون الوسطى من الشرق كما تختلف عن الصورة العدائية المشوهة التي استخرجها مستشرقو القرن التاسع عشر من مخطوطات المؤرخين وعلماء الدين المحافظين

المسلمين هؤلاء الذين كان هدفهم الأساسي أن يرفضوا ويستنكروا لا أن يفهموا ويشرحوا ، وبفضل هذه الدراسات الحديثة لم يعد الحشاشون مجرد عصابة من السذج المخدرين يقودهم أفاكون مدبرون للمكائد ، أو مؤامرة لارهابيين عدميين ، أو جماعة من القتلة المحترفين ، ومع ذلك فانهم لم يصبحوا أقل مدعاة للاهتمام بعد أن تغيرت صورتهم تلك ...

الفصل الثاني

الاسماعيلية

حدثت أول أزمة في الإسلام بعد وفاة النبي في عام ٦٣٢ م ، أن محمداً ﷺ لم يدع أبداً أنه أكثر من بشر فان لا يميزه عن الآخرين سوى انه رسول الله وحامل كلمته ولكنه في ذاته ليس مقدساً وليس خالداً ، ومع ذلك فانه لم يترك أية أوامر صريحة بمن يخلفه كزعيم للجماعة الإسلامية وحاكم للدولة الإسلامية الوليدة ، ولم يكن أمام المسلمين ما يرشدهم سوى التجربة السياسية الهزيلة لعرب ما قبل الإسلام وبعد مناقشة قصيرة شابتها لحظة من التوتر الخطر وافقوا على اختيار أبي بكر وهو واحد من أقدم المسلمين وأكثرهم احتراماً ، خليفة للرسول ، وهكذا نشأت — بطريقة عارضة تقريباً — تلك المؤسسة التاريخية العظمى المعروفة بالخلافة .

ومنذ الأيام الأولى للخلافة كانت هناك جماعة من الناس يشعرون أن علياً ابن عم النبي وزوج ابنته أولى بخلافته من أبي بكر ومن تبعه من الخلفاء ، ولا شك أن

تأييدهم لعلي يرجع في جزء منه إلى اقتناعهم بأن صفاته الشخصية تجعله أصلح رجل للمهمة ، كما يرجع – ربما – إلى اقتناعهم بحق أهل البيت في وراثة السلطة الشرعية للنبي . هذه الجماعة أصبحت تعرف بشيعة علي ، أو حزب علي ، ثم الشيعة فحسب ، ومع مرور الزمن أدت إلى ظهور أخطر صراع ديني في الإسلام .

كانت الشيعة في أول الأمر مجرد جماعة سياسية ، عبارة عن مؤيدي أحد المرشحين للسلطة ، بدون أية نظريات دينية متمايزة أو أي محتوى ديني غير ذلك الذي يكمن في طبيعة السلطة السياسية الإسلامية ، ولكن سرعان ما أخذت تغيرات هامة تترى سواء من حيث تكوينها أو في طبيعة تعاليمهـــا .

فقد كان يبدو لكثير من المسلمين في ذلك الوقت أن الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية اتخذتا مجرى خاطئاً ، فبدلاً من المجتمع المثالي الذي تخيله النبي وصحابته الأتقياء الأول ظهرت إلى الوجود أمبراطورية تحكمها أرستقراطية جشعة عديمة الضمير مجردة من المبادىء الخلقية ، وبدلاً من العدل والمساواة كان هناك عدم المساواة والامتياز والسيطرة ، وبدا للكثيرين ممن رأوا الأمور على هذا النحو أن العودة إلى أهل بيت النبي سوف تعيد رسالة الإسلام الصحيحة الأصلية .

وفي عام ٦٥٦ اغتيل الخليفة عثمان بأيدي الثائرين المسلمين وأصبح علي خليفة للمسلمين ولكن فترة حكمه كانت قصيرة ومليئة بالفتن والحروب الأهلية ، وعندما اغتيل بدوره في عام ٦٦١ صارت الخلافة لخصمه معاوية وظلت في أسرته أي البيت الأموي زهاء قرن كامل .

ولكن شيعة علي لم تختف بوفاته بل استمرت أعداد متزايدة من المسلمين في الولاء لأهل البيت الذين رأوا فيهم الزعماء الشرعيين للجماعة الإسلامية ، ولم تلبث دعاويهم وما حصلوا عليه من تأييد أن اكتسب طبيعة دينية بل وتبشيرية بمقدم مخلص .

ان الدولة الإسلامية وحدة دينية سياسية قامت على الشريعة واستمرت بها ، وهي تستمد سيادتها من الله ، وواجب رئيسها أي الخليفة أن يحافظ على الإسلام ويتيح للمسلمين أن يعيشوا حياة اسلامية صالحة ، وفي هذا المجتمع تتعذر التفرقة بين ما هو ديني وما هو دنيوي ، فلا فرق بين « الكنيسة » و « الدولة » سواء من حيث القانون أو القضاء أو السلطة ، فهما شيء واحد يرأسه الخليفة ، ولمـــا كانت أسس التماسك في المجتمع ، وهويته ، وعلاقـــات الولاء والواجب في الدولة تشملها جميعاً وتعبر عنها الصيغة الدينية لذلك فان التفرقة الغربية بين الدين والسياسة ، بين المواقف الدينية والمواقف والأنشطة السياسية ، تصبح غير

ذات معنى وغير حقيقية . فالاستياء السياسي — وقد يكون مصدره اجتماعياً — يتخذ تعبيراً دينياً والانشقاق الديني يكتسب تضمينات سياسية وهكذا فانه عندما تقوم جماعة من المسلمين بما هو أكثر من مجرد المعارضة الشخصية والمحلية للقائمين على السلطة ، وعندما تشكل تهديداً للنظام القائم وتنشىء تنظيماً لتغييره فان تحديها هذا يعد دينياً ، ومنظمتها تصبح فرقة .

وقد شهد القرن الأول للتوسع الإسلامي كثيراً من التوترات التي أثارت المرارة والأحقاد وكثيراً من المظالم والآلام التي عبرت عن نفسها بالانشقاق الديني والثورة . كما أن انتشار الإسلام بالاعتناق أدخل في الجماعة الإسلامية أعداداً متزايدة من المؤمنين الجدد الذين يحملون معهم من خلفياتهم المسيحية أو اليهودية أو الإيرانية كثيراً من المواقف والأفكار الدينية التي لم تكن معروفة لدى المسلمين العرب الأوائل ، وهؤلاء المتحولون الجدد رغم أنهم مسلمون إلا أنهم لم يكونوا عرباً وأكثر من ذلك لم يكونوا أرستقراطيين ، ولذا فقد وجدوا أنفسهم في مرتبة اجتماعية واقتصادية دنيا أرغمتهم عليها الأرستقراطية العربية المسيطرة مما أوجد لديهم شعوراً بالظلم وجعلهم على استعداد للانتظام في الحركات التي تتحدى شرعية النظام القائم ، وحتى الفاتحون العرب أنفسهم لم يكونوا بمنجاة من الشعور بهذا السخط وعدم الرضاء ، فالعرب الأتقياء كانوا يأسفون

لتدني الخلفاء والحكام في حب الدنيا ، والعرب البدو كانوا يعارضون تجاوزات السلطة وانتهاكها لحقوقهم وحرماتهم ، وكثيرون آخرون من الذين يعانون من الخلافات الاقتصادية والاجتماعية الحادة التي جاءت مع الفتح والثراء بدأوا يشاطرون الداخلين الجدد في الإسلام أساهم وآمالهم ، وكثير من هؤلاء كانت لديهم أفكار عن الشرعية السياسية والدينية من تراثهم القديم ، فاليهود والمسيحيون يعتقدون في طهارة بيت داود وانتصاره الحتمي في النهاية عن طريق مسيح منتظر ، والزرادشتيون يتوقعون ظهور سوشيان وهو مخلص سيقوم في نهاية الزمن من نسل زرادشت المقدس ، وما أن تحولوا إلى الاسلام حتى كانوا على استعداد للانجذاب إلى دعاوى بيت النبوة التي يبدو أنها ستضع نهاية لمظالم النظام القائم وتنجز الوعد الإسلامي .

أثناء تحول الشيعة من حزب إلى فرقة وقع حادثان لهما دلالة خاصة ، وقد نجم هذان الحادثان من مجرى المحاولات غير الناجحة التي قام بها الشيعة لخلع الخلافة الأموية . الحادث الأول وقع في عام ٦٨٠ م وكان بطله الحسين بن علي وفاطمة ابنة النبي ، ففي اليوم العاشر من شهر محرم ، وفي مكان يدعى كربلاء ، بالعراق ، جوبه الحسين وأسرته وأتباعه بقوة أموية أبادتهم بقسوة بالغة ، وقتل في هذه المذبحة حوالي سبعين شخصاً ولم ينج سوى طفل مريض هو علي بن الحسين كان قد ترك راقداً في

خيمة ، وقد أدى استشهاد حفيد الرسول ومعينه على هذا النحو الدرامي وموجة الغضب والندم التي أعقبت إلى صب حماسة دينية جديدة في الشيعة الذين أصبحت تلهبهم الآن أفكار المعاناة والآلام والتكفير .

أما نقطة التحول الثانية فجاءت في أواخر القر ، السابع وأوائل الثامن (الميلادي) ، ففي عام ٦٨٥ قام شخص يدعى مختار وهو عربي من الكوفة بثورة باسم ابن عني المعروف بمحمد ابن الحنفية (نسبة إلى أمه وهي غير السيدة فاطمة بنت النبي) الذي قال عنه انه الإمام الحقيقي والرئيس الشرعي للمسلمين ، وقد هزم مختار وقتل في عام ٦٨٧ ولكن حركته استمرت من بعده ، وعندما توفي محمد بن الحنفية نفسه في حوالى عام ٧٠٠ م قال أنصاره إن امامته انتقلت إلى ابنه ، وادعى البعض أنه لم يمت ولكنه ذهب للاختفاء في جبال رضوى بالقرب من مكة ، وانه سيعود عندما يشاء الله وينتصر على أعدائه ، هذا الامام التبشيري يدعى « المهدي » أي الذي يتبع الهدى الحق .

هذان الحدثان : استشهاد الحسين وثورة محمد بن الحنفية وضعا النموذج المحتذى لسلسلة طويلة من الحركات الدينية الثورية ، وهناك شخصيتان مركزيتان في مثل هذه الحركات هما « الإمام » الذي يدعى أحياناً أيضاً المهدي أي الزعيم الشرعي الذي يأتي لتدمير الطغيان واقرار العدل ،

و « الداعي » الذي ينشر رسالته ويجند أنصاره وقد يقودهم في النهاية إلى النصر أو الاستشهاد . وفي أواسط القرن الثامن حققت إحدى هذه الحركات نجاحاً مؤقتاً إذ أسقطت الدولة الأموية وأحلت محلها العباسيين — وهم فرع آخر من الأسرة التي ينتمي اليها النبي وعلي — ولكن الخلفاء العباسيين في ساعة انتصارهم نبذوا العلويين ودعاتهم الذين جاءوا بهم إلى السلطة ، واختاروا طريق الاستقرار والاستمرار في الدين والسياسة، وأدت خيبة الآمال الثورية على هذا النحو إلى ظهور استياءات جديدة عنيفة واندلاع موجة جديدة من الحركات التبشيرية المتطرفة .

في المرحلة المبكرة من تاريخ الشيعة تعرضت نظرياتها ومنظماتها لتغييرات كثيرة ، فقد ظهر عدد كبير من الذين يدعون الانتماء بدرجة أو أخرى لأهل البيت أو ممثليهم ، ثم كانوا يختفون عن الأعين بعد أن يضيفوا تفصيلات جديدة إلى الأوصاف الأسطورية للمخلص المنتظر ، وكانت برامجهم تتراوح بين المعارضة المعتدلة وبين البدع الدينية المتطرفة التي هي أبعد ما تكون عن التعاليم السائدة المقبولة في الإسلام ومن أهم السمات التي أدخلوها تقديس الأئمة والدعاة واعتبارهم معصومين وقادرين على الاتيان بالمعجزات وكانت نظرياتهم تعكس أفكاراً صوفية واستشراقية مستمدة من الغنوصية ومذهب ماني ومختلف الأفكار الالحادية الايرانية واليهودية — المسيحية . ومن العقائد التي أدخلوها

فكرة التناسخ وتأليه الأئمة وأحياناً بعض الدعاة والاباحة أي عدم التقيد بأحكام الشريعة ، وفي بعض الأماكن — كما حدث مثلاً بين بعض الفلاحين والبدو في أجزاء من ايران وسوريا ظهرت ديانات محلية متميزة بذاتها نتيجة لاختلاط تعاليم الشيعة بالعقائد والعبادات المحلية السابقة .

كان البرنامج السياسي لهذه الفرق واضحاً : الاطاحة بالنظام القائم وتنصيب الإمام المختار ، ولكن من الصعب تحديد أي برنامج اجتماعي أو اقتصادي دعائي لها بالرغم من أن أوجه نشاطها كانت على صلة واضحة بالاحباطات والآمال الاجتماعية والاقتصادية ، ويمكن أن نستدل على بعض أفكار هذه البرامج من واقع التراث التبشيري لهذه الحركات وما تتوقع أن يتصدى له المهدي ويقوم باصلاحه وقد كان جزء من مهمته اسلامياً بالمعنى الواسع وهو العودة إلى الاسلام الحق ونشر العقيدة إلى آخر حدود الأرض ، ولكن كان عليه بالتحديد أن ينشر العدل « أن يملأ الدنيا بالعدل والمساواة كما هي ممتلئة الآن بالظلم والاضطهاد » وأن يقيم المساواة بين الضعيف والقوي ويأتي بالسلام والرخاء .

وفي البداية كان الزعماء الذين يلتف حولهم الشيعة يقيمون دعاويهم على أساس القرابة للنبي أكثر من الادعاء بأنهم من نسله المباشر عن طريق ابنته فاطمة ، وبعضهم

ومنهم عدد غير قليل من الأكثر نشاطاً لم يكونوا من نسل فاطمة بل حتى لم يكن بعضهم من نسل علي وانما من فروع أخرى من عشيرة النبي ، ولكن بعد انتصار العباسيين وخيانتهم ركز الشيعة آمالهم في نسل علي وبالذات هؤلاء الذين انحدروا من زواجه بابنة النبي ، وتم التركيز بصفة خاصة على ضرورة الانحدار المباشر من نسل النبي ، وتدعمت فكرة أنه منذ وفاة النبي لم يكن هناك في الواقع سوى خط واحد من الأئمة الشرعيين الذين هم وحدهم الرؤساء الشرعيون للجماعة الإسلامية ، وهؤلاء هم علي وابناه الحسن والحسين ونسل الحسين من ابنه علي زين العابدين وهو الوحيد الذي نجا من فجيعة كربلاء ، وفيما عدا الحسين امتنع هؤلاء الأئمة أساساً عن النشاط السياسي ، وفي الوقت الذي كان فيه هناك مطالبون آخرون بالخلافة يزهقون أرواحهم في محاولات يائسة للاطاحة بالخلافة القائمة عن طريق القوة فضل هؤلاء الأئمة الشرعيون أن يقوموا بنوع من المعارضة القانونية للخلفاء الذين يتولون زمام الأمور ، واختاروا أن يقيموا في مكة أو المدينة بعيداً عن المراكز السياسية الرئيسية ، وفي الوقت الذي احتفظوا فيه بحقوقهم في الحكم لم يفعلوا سوى القليل للحصول عليها ، بل على العكس نراهم في بعض الأحيان يعترفون بل ويساعدون وينصحون الحكام الأمويين ومن بعدهم العباسيين الذين يحكمون الأمبراطورية الإسلامية . وهذا الموقف من

جانب الأئمة الشرعيين أخذ في التراث الشيعي تفسيراً دينياً إذ عزيت سلبيتهم إلى تقواهم وزهدهم في الدنيا ، وفسر اذعانهم بأنه تطبيق لمبدأ « التقية » .

ان تعبير « التقية » ومعناه الحذر والاحتياط يشير إلى نظرية إسلامية للاعفاء ، والفكرة هي أنه في حالة الارغام أو الخطر يمكن اعفاء المؤمن من أداء بعض التزاماته الدينية وهذا المبدأ كثيراً ما قيلت بشأنه تعريفات وتفسيرات مختلفة ولم يكن قاصراً على الشيعة فحسب ، ولكنهم هم على أية حال الذين تعرضوا مراراً لأخطار الاضطهاد والقهر ولذا فانهم هم الذين لجأوا إلى هذا المبدأ أكثر من غيرهم ، وقد استخدم مبدأ « التقية » لتبرير اخفاء المعتقدات التي يحتمل أن تثير عداء السلطات أو الجماهير وكبديل للتهور المدمر للذات الذي ساق الكثيرين إلى الموت في انتفاضات لا أمل في نجاحها بالمرة .

كان النصف الأول من القرن الثامن (الميلادي) فترة نشاط وافر بين غلاة الشيعة ، فظهرت فرق وأشباه فرق لا حصر لها لاسيما بين العناصر المختلطة من سكان جنوب العراق وشواطىء الخليج الفارسي ، وكانت نظرياتهم متباينة ومستمدة من عناصر شتى وكان من السهل والشائع التنقل من فرقة إلى أخرى ، ومن زعيم إلى آخر ، وتعطي المصادر الإسلامية أسماء الكثيرين من الدعاة الدينيين في تلك الفترة بعضهم رجال من أصل متواضع تزعموا ثورات

وأعدموا ، وتنسب إلى بعضهم نظريات كانت من خصائص الاسماعيلية فيما بعد ، فمثلاً كانت إحدى الجماعات تزاول القتل خنقاً بالحبال كواجب ديني كعادة الثوجي Thuggee الهندية ، وهي سابقة تنذر بظهور الحشاشين في القرون التالية ، وحتى بين أصحاب النظريات المعتدلة ظهرت جماعات نضالية حاولت الاستيلاء على السلطة بالقوة ولقيت الهزيمة والدمار على أيدي الجيوش الأموية والعباسية من بعدهـــا .

وما أن حل النصف الثاني من القرن الثامن حتى كانت الحركات المتطرفة والنضالية المبكرة قد أثبتت فشلها واختفت تماماً أو تضاءلت أهميتها في حين برز الأئمة الشرعيون المعتدلون المرنون في صلابة وتصميم لحفظ عقيدة الشيعة واثرائها ومهدوا الطريق لجهد جديد وأكبر لتحقيق السيطرة على عالم الإسلام .

الانقسام الشيعي

ولكن بالرغم من فشل الحركات المبكرة وعدم تشجيع الأئمة أنفسهم فقد استمرت العناصر المتطرفة والنضالية في الظهور حتى داخل النطاق المباشر للأئمة الشرعيين ، وحدث الانقسام الحاسم بين المتطرفين والمعتدلين بعد وفاة جعفر الصادق الإمام السادس (بعد علي) في عام ٧٦٥ م ، فقد

كان لجعفر ابن أكبر هو اسماعيل ، ولأسباب ليست واضحة تماماً وربما لارتباطه بالعناصر المتطرفة ، حرم اسماعيل من خلافة أبيه في الامامة واعترف قطاع كبير من الشيعة بأخيه الأصغر موسى الكاظم باعتباره الإمام السابع واستمر نسل موسى حتى الإمام الثاني عشر الذي اختفى حوالى عام ٨٧٣ ولا يزال هو « الإمام المنتظر » أو « المهدي » بالنسبة للأغلبية الساحقة من الشيعة إلى اليوم ، وقد عرف أتباع الإمام الثاني عشر بالشيعة الاثني عشرية وهم يمثلون الجناح الأكثر اعتدالاً في الفرقة واختلافاتهم مع السنة محدودة في عدد معين من النقاط وحتى هذه الاختلافات قلت أهميتها كثيراً في السنوات الأخيرة ، ومنذ القرن السادس عشر أصبحت الشيعة الاثني عشرية هي المذهب الرسمي في إيران .

تبعت جماعة أخرى من الشيعة « اسماعيل » ونسله ، وهذه الجماعة عرفت باسم « الاسماعيلية » ، ولأن الاسماعيليين ظلوا يعملون في الخفاء فترة طويلة لذلك تمكنوا من تكوين فرقة بذت كل منافسيها في تماسكها وتنظيمها وجاذبيتها العقلية والعاطفية ، وبدلاً من التكهنات الفوضوية والخرافات البدائية التي وقعت فيها الفرق السابقة ظهر في الفرقة الجديدة عدد من المفكرين الدينيين البارزين تمكنوا من تطوير نظرية دينية على مستوى فلسفي رفيع وأنتجوا فكراً استطاع بعد محاق استمر قروناً أن ينتزع

الاعتراف بقيمته الحقيقية الآن ، فبالنسبة لأهل الورع والتقوى قدم الاسماعيليون احتراماً للقرآن والسنة والشريعة لا يقل عن احترام أهل السنة ، وبالنسبة لأهل الذكاء والفطنة قدموا تفسيراً فلسفياً للكون استمدوه من مصادر القدماء وخاصة الفكر الأفلاطوني الجديد ، وبالنسبة لأصحاب الأرواح الشفافة قدموا عقيدة عاطفية ذاتية دافئة تغذيها العبرة المستمدة من آلام الأئمة وتضحيات أتباعهم في معاناة العذاب واحراز الحق ، وأخيراً بالنسبة للمظلومين والمستائين من الأوضاع القائمة قدموا حركة معارضة قوية جيدة التنظيم واسعة الانتشار بدا انها تقدم امكانية حقيقية للاطاحة بالنظام القائم واقامة مجتمع جديد عادل بدلاً منه ، مجتمع يرأسه الإمام الذي هو وريث النبي ، والمختار من الله ، والزعيم الشرعي الوحيد للبشرية .

والإمام هو مركز النظام الاسماعيلي سواء في النظرية أو التنظيم ، فهم يؤمنون أنه بعد أن تم خلق العالم نتيجة فعل العقل الكوني في الروح الكونية دخل التاريخ البشري في سلسلة من الحقب أو الدوائر ، كل دائرة تبدأ بامام « ناطق » وهو النبي المرسل من الله ، ويتتابع بعده أئمة « صامتون » ، وهؤلاء الأئمة الصامتون يكونون أحياناً مستترين وأحياناً ظاهرين تبعاً لفترات اختباء العقيدة أو ظهورها . ويقولون ان أئمة الدورة أو الدائرة الحالية من نسل علي وفاطمة عبر اسماعيل وهم معصومون

وموحى اليهم بمعنى أنهم أنفسهم في الحقيقة مقدسون إذ أن الإمام هو تجسيد وصورة مصغرة لروح الكون الميتافيزيقية (الله ؟) ، ولذا فانه ينبوع المعرفة والسلطة فهو مطلع على الحقائق المخفية عن الآخرين وأوامره تقتضي الطاعة التامة التي لا تناقش .

وكانوا يجتذبون المبتدىء بالاثارة المستمدة من سحر المعرفة السرية والعمل السري ، فقد كان مما يميز الفرقة تفسيرها الرمزي للقرآن والمسمى « تأويل الباطن » ومنه اشتق تعبير « الباطنية » الذي عرفت به الفرقة أحياناً (١)

(١) ومن أسمائهم أيضاً كما أوردها أبو حامد الغزالي من كتابه « فضائح الباطنية » حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي : القرامطة وقرمطية نسبة إلى حمدان قرمط وحركته المعروفة بهذا الاسم . والخرمية نسبة إلى اتباعهم اللذات وطلب الشهوات وحط أعباء الشرع عن المتعبدين من « خرم » وهو لفظ أعجمي ينبىء عن الشيء المستلذ المستطاب . والبابكية وهو اسم لطائفة منهم بايعوا رجلاً يقال له بابك الخرمي واصطدموا بجيوش المسلمين بناحية أذربيجان في أيام المعتصم بالله . والسبعية لاعتقادهم ان أدوار الإمامة سبعة وربطهم تدابير العالم السفلى بالكواكب السبعة التي أعلاها زحل وأدناها القمر ، والمحمرة لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك ولبسوها . والتعليمية لأن مبدأ مذهبهم ابطال الرأي وابطال تصرف العقول ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم .

(المعرب)

فإلى جانب المعنى الحرفي والظاهري للقرآن والسنة فان لهما في نظر الاسماعيلية معنى آخر رمزياً وخفياً لا يكشف تفسيره إلا الإمام ويعلمه للمبتدئين في العقيدة ، وقد ذهبت بعض فروع الفرقة إلى أبعد من ذلك وانتهجت تعاليم مناقضة ترجع إلى أقصى التطرف الالحادي والصوفي الذي عرفه الإسلام ولدى الاسماعيلية أن الالتزام الديني الغائي هو المعرفة ــ الغنوصية ــ للإمام المحق ، وان حرفية الشريعة تلغى بالنسبة للاسماعيلي المؤمن وتوجد فقط إن كان لها محل كعقاب للدنس أو النجس . والواقع أن من النغمات الشائعة في الكتابات الدينية لدى الاسماعيليين البحث عن الحقيقة وهو أمر يبدو عبثاً في أول الأمر ثم لا يلبث أن يتحقق في لحظة اشراق تغشى الأبصار .

أما تنظيم الفرقة ونشاطاتها والوصاية عليها ونشر تعاليمها فكانت في أيدي هيئة من الدعاة يرأسهم الداعي الأكبر الذي هو المساعد المباشر للإمام .

لمدة قرن ونصف القرن بعد وفاة اسماعيل ظل الأئمة الاسماعيليون مخبوئين ولم يكن يعرف سوى القليل عن أوجه نشاط دعاتهم أو تعاليمهم . ولكن مرحلة جديدة بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع (الميلادي) عندما بدأ الضعف الواضح والمتزايد للخلفاء العباسيين في بغداد ينذر بانهيار الأمبراطورية الإسلامية وتمزيق المجتمع الإسلامي

وظهرت في الأقاليم الإسلامية المختلفة أسر محلية ذات طبيعة عسكرية في الغالب وقبلية المنشأ في بعض الأحيان ، ومعظم هذه الأسر الحاكمة كانت قصيرة الأجل ولكنها في بعض المناطق كانت تقوم عى الابتزاز والاضطهاد ، وحتى في العاصمة أخذ الخلفاء يفقدون قوتهم ويتحولون إلى دمى عاجزة في أيدي عساكرهم ، وأخذت أسس الثقة في الدولة الإسلامية العالمية والموافقة الاجماعية عليها تتقوض ، وبدأ الناس يتطلعون إلى أي مكان بحثاً عن الاطمئنان والثقة . في هذه الأزمنة غير المستقرة أخذت دعوة الشيعة التي تقول ان الجماعة الإسلامية سلكت طريقاً خاطئاً وينبغي اعادتها إلى جادة الصواب تسمع وتكتسب انتباهاً جديداً ، واستفاد فرعا الشيعة — الاثني عشرية والاسماعيلية — من هذه الظروف ، وبدا في أول الأمر كما لو أن الاثني عشرية على وشك الانتصار فظهرت أسر اثني عشرية حاكمة في عدة مناطق ، وفي عام ٩٤٦ م تمكنت أسرة شيعية في ايران ، وهي بنو بويه ، من انزال أقصى الاذلال بالعالم السني الإسلامي باستيلائها على بغداد ووضع الخليفة العباسي نفسه تحت سيطرة الشيعة ، ولكن في هذا الوقت لم يكن للشيعة الاثني عشرية إمام ، إذ أن الإمام الثاني عشر والأخير كان قد اختفى قبل حوالي سبعين عاماً من تلك الأحداث ، وهكذا واجه بنو بويه اختياراً صعباً ، فقرروا عدم الاعتراف بأي مطالب علوي آخر بالخلافة والاحتفاظ بالخلفاء

العباسيين كخلفاء صوريين تحت سيطرتهم ووصايتهم ، وهم اذ فعلوا ذلك زادوا من اخزاء الخلافة السنية التي فقدت لمعانها بالفعل ولكنهم في نفس الوقت قضوا نهائياً على امكان أن تكون الشيعة المعتدلة بديلاً لها .

ولكن كان هناك الكثير مما يجعل الناس في حاجة إلى بديل ، فان التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة التي حدثت خلال القرنين الثامن والتاسع قد جلبت الثراء والقوة للبعض والمشقة وخيبة الأمل للآخرين ، ففي الريف أدى نمو الملكيات الكبيرة التي تتمتع غالباً بامتيازات مالية إلى مزيد من أفقار الأجراء وصغار الملاك واخضاعهم ، وفي المدن أدى تقدم التجارة والصناعة إلى خلق طبقة من العمال المعدمين واجتذاب مهاجرين محتاجين لا جذور لهم ليكونوا بمثابة سكان مزعزعين وغير مستقرين . وفي وسط الرخاء العظيم كان هناك أيضاً شقاء عظيم ، ولم تستطع الشرعية الجافة ولا الفلسفة المتعالية للعقيدة السلفية ولا التزمت الحذر لشارحيها المعتمدين من السلطة أن تقدم سوى أقل السلوى للمحرومين وأضيق المجال للتطلعات الروحية للأشقياء الذين لا جذور لهم ، وبالاضافة إلى ذلك كانت ثمة قلقلة فكرية تغزو العقول ، فان العلم والفلسفة الإسلاميين اللذين ازدادا ثراء من مصادر كثيرة أصبحا أكثر دهاء وحنكة وتنوعاً ، وأصبحت هناك مسائل كبرى مقضة ينبغي علاجها ، مسائل تنبع من المواجهة بين الوحي الإسلامي وبين العلم

والفلسفة الاغريقيين والحكمة الفارسية وحقائق التاريخ المجردة ، ووسط أشياء كثيرة أخرى ظهر هناك انعدام للثقة في الحلول الإسلامية التقليدية ورغبة ملحة وحاجة عاجلة إلى حلول أخرى . وهكذا بدا كأن الاجماع الإسلامي العظيم — الديني والفلسفي والسياسي والاجتماعي — على وشك الانهيار ، وبرزت الحاجة إلى مبدأ جديد من الوحدة والسلطة والفكر يكون عادلاً وفعالاً لانقاذ الإسلام من خطر الدمار .

الاسماعيليون يتقدمون

ولم يكن هناك غير الاسماعيليين — بقوتهم المتنامية — من يستطيع تقديم مثل هذا المبدأ ووضع تخطيط لعالم جديد يهيمن عليه الإمام . وقد استطاع دعاة الاسماعيلية في هذه الأزمنة المضطربة أن يهبوا برسالتهم وخدماتهم الراحة والأمل لأهل التقوى والورع وللساخطين على السواء ، كما استطاعت التوفيقات الاسماعيلية أن تكون بمثابة نداء مغري للفلاسفة واللاهوتيين والشعراء والدارسين ، وإذا كانت معظم كتابات الاسماعيلية قد اختفت من أراضي الإسلام الرئيسية بسبب ردود الفعل العنيفة ضد الاسماعيلية في العصور اللاحقة أو طويت في صدور أعضاء الفرقة أنفسهم إلا أن عدة أعمال قليلة قد اكتسبت منذ زمن بعيد

شهرة واسعة ، وهناك الكثيرون من المؤلفين الكلاسيكيين العظام في العربية والفارسية تظهر فيهم على الأقل آثار التأثر بالاسماعيلية ، فمثلاً نجد أن « رسائل اخوان الصفا » — وهي دائرة معارف شهيرة للمعرفة الدينية والدنيوية وضعت في القرن العاشر — مشبعة بالفكر الاسماعيلي وكان لها نفوذ عميق في الحياة الفكرية الإسلامية من فارس إلى أسبانيا .

ومما لا يثير الدهشة أن يحقق الدعاة الاسماعيليون نجاحاً خاصاً في مناطق مثل جنوب العراق وشطئان الخليج الفارسي وأجزاء من فارس حيث ظهرت من قبل أشكال سابقة من التشيع النضالي والمتطرف أو حيث تقدم العبادات المحلية أرضية مناسبة ، ففي أواخر القرن التاسع استطاعت شعبة من الفرقة تسمى القرامطة — ولكن علاقاتها المحددة بالاسماعيلية الرئيسية غير مؤكدة — أن تستولي على المناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية وتنشىء شكلاً من الحكم الجمهوري فيها واتخذوا منها لمدة تزيد عن القرن قاعدة للعمليات العسكرية والدعائية ضد الخلافة ، وقد فشلت محاولة قرمطية للاستيلاء على السلطة في سوريا في أوائل القرن العاشر ، ولكن هذا الحدث له دلالته ويكشف عن بعض التأييد المحلي للاسماعيلية في سوريا حتى في ذلك الوقت المبكر .

وتحقق أكبر انتصار للقضية الاسماعيلية في ركن آخر

من أركان العالم الإسلامي ، فقد استطاعت بعثة اسماعيلية استقرت في اليمن في أواخر القرن التاسع أن تكسب كثيراً من المؤيدين وتحقق قاعدة للسلطة السياسية هناك ، ومنها أرسلت بعثات أخرى إلى بلاد مختلفة شملت الهند وشمال أفريقيا ، وفي شمال أفريقيا حقق الاسماعيليون أكبر نجاح مدهش لهم . ففي عام ٩٠٩ م وصلوا إلى درجة من القوة دعت الإمام المستور إلى أن يظهر من الاختباء ويعلن نفسه خليفة في شمال افريقيا ويتخذ لقب المهدي ، وهكذا تكونت دولة جديدة وأسرة حاكمة جديدة تعرف باسم « الفاطمية » بدعوى أنها من نسل فاطمة بنت النبي .

ولمدة نصف قرن انحصر حكم الخلفاء الفاطميين في الغرب فحسب أي في شمال أفريقيا وصقلية ولكن عيونهم رغم ذلك كانت على الشرق ، على مصر قلب العالم الإسلامي ، حيث يمكنهم أن يأملوا تحقيق غرضهم في الاطاحة بالخلفاء العباسيين أتباع السنة واعلان أنفسهم الرؤساء الوحيدين للعالم الإسلامي أجمع ، ونشط العملاء والمبشرون الاسماعيليون للعمل في كل البلاد السنية ، وأخذت الجيوش الفاطمية تستعد في تونس لغزو مصر كأول خطوة في الطريق نحو أمبراطورية الشرق .

وفي عام ٩٦٩ م تمت هذه الخطوة الأولى بنجاح فقد اقتحمت القوات الفاطمية وادي النيل وسرعان ما أخذت

تتقدم عبر سيناء إلى فلسطين وجنوب سوريا ، وبالقرب من الفسطاط المقر القديم للحكومة بنى الزعماء الفاطميون مدينة جديدة أسموها « القاهرة » لتكون عاصمة لأمبراطوريتهم كما بنوا مسجداً جامعاً جديداً أسموه « الأزهر » ليكون قلعة لعقيدتهم ، وانتقل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي من تونس إلى مقره الجديد حيث حكم خلفاؤه من بعده لمائتي من الأعوام التالية .

لقد أصبح التحدي الاسماعيلي للنظام القديم الآن وثيقاً وقوياً تقف وراءه قوة كبرى كانت لفترة أكبر قوة في العالم الإسلامي ، فقد كانت الأمبراطورية الفاطمية في قمتها تضم مصر وسوريا وشمال أفريقيا وصقلية والشاطىء الافريقي للبحر الأحمر والحجاز ببلاد العرب بما فيه المدينتان المقدستان مكة والمدينة . وبالاضافة إلى ذلك كان الخليفة الفاطمي يتحكم في شبكة واسعة من الدعاة ويتمتع بولاء أنصار لا يحصيهم العدد في البلاد التي لا تزال تحت الحكم السني في الشرق ، وفي دور العلم العظيمة بالقاهرة كان الدارسون والأساتذة يعكفون على تطوير نظريات العقيدة الاسماعيلية ويدربون المبشرين لنشر الدعوة في الداخل والخارج ، ومن بين المناطق الرئيسية التي ركزوا فيها نشاطهم فارس ووسط آسيا حيث كان الباحثون عن الحقيقة في تلك الجهات يجدون طريقهم إلى القاهرة ثم يعودون في الوقت المناسب إلى بلادهم الأصلية كمفسرين

مدربين للرسالة الاسماعيلية ، ومن بين هؤلاء برز الفيلسوف والشاعر نصري خسرو الذي تحول إلى المذهب الاسماعيلي أثناء زيارة له لمصر في عام ١٠٦٤ م وعاد ليدعو للمذهب الاسماعيلي في بلاد الشرق حيث أحرز نفوذاً قوياً .

وكان رد الفعل السني في أول الأمر محدوداً وغير فعال ، فقد اتخذت الخلافة العباسية بعض الاحتياطات الأمنية ضد الدعاة وأعلنت نوعاً من الحرب السياسية ضد الفاطميين فاتهمتهم — بطريقة غير مقنعة — في بيان صدر في بغداد عام ١٠١١ م بأنهم ليسوا فاطميين بالمرة وانما هم من نسل دعي سيء السمعة .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذه القوة القاهرة وما بذلوه من جهد هائل في حربهم السياسية والدينية والاقتصادية ضد الخلافة العباسية ، فقد أخفق التحدي الفاطمي في آخر الأمر ونجت الخلافة العباسية واستعاد الإسلام السني قوته وانتصر ، وبدأ الخلفاء الفاطميون يفقدون أمبراطوريتهم تباعاً ويفقدون معها سلطتهم على أتباعهم .

أن جانباً من السبب في هذا الفشل ينبغي البحث عنه في الأحداث التي وقعت في الشرق حيث كانت تجري تغيرات كبرى في ذلك الوقت ، فقد أدى مجيء الترك إلى وقف التمزق السياسي في جنوب غربي آسيا واستطاع لفترة من الزمن أن يعيد لبلاد الخلافة السنية ما فقدته من

وحدة واستقرار ، وقد كان الفاتحون الأتراك مؤمنين جدداً بالإسلام ، وكانوا مخلصين وموالين وسلفيين في عقيدتهم الدينية ، كما كانوا متشربين بشعور قوي نحو واجبهم للاسلام ومسئوليتهم كحماة جدد للخليفة وأسياد للعالم الإسلامي وأن عليهم أن يحافظوا عليه ويدفعوا عنه الأخطار الداخلية والخارجية ، وقد قاموا بهذا الواجب إلى نهايته ، وقدم الزعماء الترك والجنود الترك ما يلزم من قوة ومهارة سياسياً وعسكرياً لمواجهة واحتواء وصد الخطرين الكبيرين اللذين يتهددان الإسلام السني وهما تحدي الخلفـــاء الاسماعيليين ثم غزو الصليبيين القادمين من أوربا .

هذان الخطران — الانقسام الديني والغزو الأجنبي — ساعدا على اذكاء اليقظة السنية الكبرى التي كانت تستجمع قواها . ففي العالم السني كان لا يزال هناك احتياطي هائل للقوة الدينية يتمثل في فقه الفقهاء ، وروحانية المتصوفة ، وايمان الأتباع ، وفي هذا الوقت من الأزمة والانتعاش ظهرت تركيبة فكرية جديدة رداً على التحدي العقلي للفكر الاسماعيلي والجاذبية العاطفية للعقيدة الاسماعيلية .

وبينما كان الخصوم السنيون يكسبون مزيداً من القوة السياسية والعسكرية والدينية بدأت قضية الاسماعيلية الفاطمية في الضعف نتيجة للانقسام الديني والذبول السياسي ، وقد نشأت أولى الصراعات الداخلية الخطيرة في الاسماعيلية

نتيجة لذات النجاح الذي حققه الفاطميون ، فان الاحتياجات والمسئوليات المترتبة على انشاء دولة وأمبراطورية تطلبت بعض التغيير في النظريات السابقة أو كما يقول مؤلف اسماعيلي حديث : « برزت الحاجة إلى اتخاذ موقف أكثر ميلاً إلى الهدوء والمحافظة على الوضع القائم في الإسلام » ومنذ البداية كانت هناك صراعات بين الثوريين والمحافظين من الاسماعيلية وبين الحافظين للأسرار الخفية والكاشفين لها ، وكان على الخلفاء الفاطميين من وقت لآخر أن يواجهوا خطر الانقسام بل والمعارضة المسلحة كلما سحبت جماعة من أتباعهم رضاها أو تأييدها ، ومنذ زمن الخليفة الفاطمي الأول في شمال أفريقيا كانت هناك خصومات بين الدعاة الذين ينتمون إلى وجهات نظر مختلفة وارتدادات عن المعسكر الفاطمي ، وقد واجه الخليفة الرابع المعز لدين الله الفاطمي صعوبات مماثلة في نفس لحظة انتصاره الكبير أثناء غزوه لمصر بل وكان عليه أن يحارب ضد القرامطة في شرق شبه الجزيرة العربية الذين — بعد تأييدهم للفاطميين أول الأمر — انقضوا عليهم وهاجموا جيوشهم في سوريا ومصر ، ويبدو أن القرامطة عادوا في وقت لاحق إلى الولاء للفاطميين ثم اختفوا كشخصية مستقلة . وحدث انقسام آخر بعد اختفاء الخليفة السادس الحاكم بأمر الله الفاطمي في ظروف غامضة عام ١٠٢١ م فقد اقتنع فريق من المؤمنين به أن الحاكم بأمر الله شخصية

مقدسة وأنه لم يمت وانما استتر ، ورفضوا الاعتراف بمن تتابعوا من بعده على العرش الفاطمي ثم انشقوا عن الكيان الرئيسي للفرقة وأحرزوا بعض النجاح في كسب الولاء بين الاسماعيلية في سوريا ولا تزال جماعات منهم موجودة في سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة (اسرائيل) للآن وأحد مؤسسي هذه الفرقة داع من أصل وسط — آسيوي يدعى محمد بن اسماعيل الدرزي (ويقال انه كان ترزياً في الأصل) ولا يزال أتباعه يعرفون من بعده بالدروز .

الرسالة تتمزق

أثناء الحكم الطويل للخليفة الثامن المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) وصلت الأمبراطورية الفاطمية إلى أعلى ذراها ثم تهاوت إلى الانحلال السريع ، ولدى وفاته تمزقت الرسالة الاسماعيلية في أكبر انقسام داخلي في تاريخها .

في بداية الدولة الفاطمية كانت للخليفة سيطرة شخصية تامة على كل الشئون ، كان يهيمن على فروع الحكومة الرئيسية الثلاثة : الادارة الحكومية والهيئة الدينية والقوات المسلحة ، وكان رئيس الادارة المدنية ورئيس الحكومة الفعال تحت الخليفة هو الوزير وهو شخصية مدنية ، وكان رئيس الهيئة الدينية هو داعي الدعاة الذي كان يسيطر على الدعوة

الاسماعيلية داخل الأمبراطورية بالاضافة إلى سيطرته على جيش كبير من الدعاة والعملاء الاسماعيليين في الخارج ٥ وكان قائد الجيش أو أمير الجيوش يسيطر على الفرع الثالث وهو القوات المسلحة ، ومنذ وفاة الحاكم ، على أية حال ، بدأ العسكريون يزيدون من قوتهم حثيثاً على حساب المدنيين بل والخليفة نفسه ، والواقع أن النكسات والكوارث والانقلابات التي حدثت في أواسط القرن الحادي عشر قد زادت من سرعة هذا التطور الذي بلغ أقصاه في عام ١٠٧٤ عندما قام الخليفة المستنصر باستدعاء بدر الجمالي حاكم عكا العسكري للحضور إلى مصر بقواته ليأخذ بزمام الأمور ، وسرعان ما أصبح بدر الجمالي سيداً للبلاد يحمل الألقاب الثلاثة التي منحها له الخليفة : أمير الجيوش وداعي الدعاة والوزير دلالة على سيطرته على الفروع الثلاثة جميعاً : العسكري والديني والاداري غير أنه أصبح يعرف عادة باللقب الأول .

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد الحقيقي لمصر هو أمير الجيوش أو قائد الجند العسكري الأتوقراطي الذي يحكم البلاد عن طريق قواته ، ثم أصبح المنصب وراثياً فخلف بدر الجمالي ابنه ثم حفيده ثم سلسلة من الأتوقراطيين العسكريين الأخر ، وتماماً مثلما أضحى الخلفاء العباسيون في بغداد بمثابة دمى عاجزة في أيدي حماتهم والوصاة عليهم أمسى الخلفاء الفاطميون الآن مجرد رؤساء صوريين لسلسلة

متتابعة من الدكتاتوريين العسكريين ، وكانت تلك نهاية حزينة لأسرة حاكمة تدّعي الزعامة الروحية والسياسية لكل العالم الإسلامي وانحطاطاً يناقض بصورة بارزة العقائد والآمال التي تتحلى بها العقيدة الاسماعيلية .

وكان حتماً أن يثير هذا التغيير السخط والمعارضة بين العناصر الأكثر تماسكاً ونضالية من أعضاء الفرقة ، ومما زاد في معارضتها لما يجري من الأمور أن تلك الفترة شهدت تجدداً للنشاط بين الاسماعيليين في فارس ، غير أن هذه المعارضة لم تكن بذات بال ، كما لم يترتب على اختفاء بدر الجمالي وحلول ابنه الأفضل محله في عام ١٠٩٤ أي تغيير ذي بال في مجرى الأمور ، وعندما توفي الخليفة المستنصر بعد ذلك بشهور واجهت أمير الجيوش الأفضل ضرورة اختيار خليفة له ، ولم يكن الاختيار صعباً ، فمن ناحية كان هناك نزار الابن الأكبر الناضج الذي عينه المستنصر ولياً لعهده وقبله الزعماء الاسماعيليون بهذه الصفة ، ومن جهة أخرى كان هناك أخوه الأصغر المستعلي ، وهو شاب بدون حلفاء أو مؤيدين وبالتالي على استعداد لأن يعتمد كلياً على نصيره القوي ، ولا شك أن ذلك كان في ذهن أمير الجيوش الأفضل حين دبر زواج ابنته من المستعلي ، ولدى وفاة الخليفة المستنصر أعلن الأفضل زوج ابنته خليفة ، وفر نزار إلى الاسكندرية حيث هب في ثورة محلية أحرزت نجاحاً مبدئياً ولكنه لم يلبث أن هزم وأسر وقتل بعد ذلك .

باختيار المستعلى كخليفة قسم الأفضل الفرقة الاسماعيلية من الرأس إلى القدم ، واستبعد – عن قصد ربما – جميع أتباعها في بلاد الإسلام الشرقية ، وحتى داخل حدود الدولة الفاطمية ظهرت حركات معارضة . أما الاسماعيليون الشرقيون فقد رفضوا الاعتراف بالخليفة الجديد وأعلنوا ولاءهم لنزار وخطه وقطعوا كل علاقاتهم بالمؤسسة الفاطمية الواهنة في القاهرة ، وهكذا تم الانقسام بين الدولة والعناصر الثورية الذي بدأ ظهوره منذ بداية تكوين الدولة .

ولم يمض وقت طويل حتى كان الاسماعيليون الذين قبلوا المستعلى كخليفة قد قطعوا علاقاتهم كذلك بالنظام القائم في القاهرة . ففي عام ١١٣٠ اغتيل « الأمير » ابن المستعلى وخليفته بأيدي النزاريين ، ورفض أتباعه أن يعترفوا بالخليفة الجديد في القاهرة ونمت بينهم عقيدة بأن ثمة ابن طفل ضائع للأمير يدعى « الطيب » هو الإمام المخفي والمنتظر ولن يكون هناك أئمة بعده .

وحكم في القاهرة بعد ذلك أربعة خلفاء فاطميين آخرين ولكنهم لم يعودوا أكثر من أسوة حاكمة مصرية محلية بدون قوة أو نفوذ أو أمل ، وفي عام ١١٧١ عندما كان آخر واحد منهم يرقد ميتاً في قصره ، أمر القائد الكردي صلاح الدين الذي كان في ذلك الوقت قد أصبح السيد الحقيقي لمصر بالدعاء للخليفة العباسي في بغداد على أعواد المنابر ، وهكذا أعلن رسمياً الغاء الخلافة الفاطمية ، التي كانت قد ماتت

فعلاً كقوة دينية وسياسية ، بين عدم الاكتراث المطلق للجماهير وجمعت الكتب « الالحادية » الاسماعيلية وأحرقت ، وعادت مصر بعد أكثر من قرنين إلى حظيرة الجماعة السنية .

ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك اسماعيليون في مصر ولكن الفرقة استمرت في الحياة في بلاد أخرى بفرعيها الرئيسيين اللذين انقسمت اليهما بعد وفاة المستنصر . أما أتباع المستعلى فقد ذهبوا إلى اليمن والهند – حيث لا يزالون هناك – وأصبحوا يسمون « بالبهرة » ويطلق على عقيدتهم أحياناً « الدعوة القديمة » حيث أنها تسير على التقاليد النظرية الرئيسية للفترة الفاطمية .

وبينما كان المستعليون يجنحون نحو الركود في المراكز البعيدة من العالم الإسلامي كان منافسوهم النزاريون ، أتباع نزار ، يدخلون في مرحلة من التطور النشط سواء في العقيدة أو العمل السياسي ، ولعبوا لفترة طويلة قادمة دوراً هاماً ومثيراً في الشئون الإسلامية .

في القرن الحادي عشر انكشف الضعف الداخلي المتزايد للعالم الإسلامي نتيجة تعرضه لسلسلة من الغزوات أهمها تلك التي قام بها الأتراك السلاجقة حيث أنشأوا أمبراطورية عسكرية جديدة تمتد من أواسط آسيا إلى شاطىء البحر المتوسط وواكبت هذه الغزوات تغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية هامة كانت لها آثار عميقة في تاريخ الإسلام ، فكما هي العادة بعد الغزوات اقتطعت أراض

شاسعة ومنحت دخول كبيرة لضباط الجيوش التركية المنتصرة الذين كوّنوا مع بني جلدتهم من المسئولين والموظفين الأتراك طبقة حاكمة جديدة حلت محل الأرستقراطية والنبالة العربية والفارسية في الأزمنة السابقة ، وذهبت القوة والثروة والمناصب إلى رجال جدد كانوا في الحقيقة وافدين غرباء لم تمتصهم الحضارة المدنية للشرق الأوسط الإسلامي، وقد ازداد مركز الطبقة الممتازة القديمة ضعفاً نتيجة لعوامل أخرى منها هجرة البدو إلى المدن وتغير طرق التجارة وبداية التغيرات الكبرى التي أدت إلى نهضة أوربا والانحلال النسبي للعالم الإسلامي ، وفي هذه الأزمنة من الاضطراب والخطر استطاع الأسياد الترك الجدد أن يحافظوا على قدر من القوة والنظام ولكن بثمن مرتفع تمثل في زيادة الانفاق العسكري واحكام القبضة على الحياة العامة والتشدد الفكري .

لم تعد القوة العسكرية للترك قابلة للاهتزاز ، ولم تعد مدارس الفكر السلفي معرضة لتحد خطير ، ولكن كانت هناك وسائل أخرى للهجوم ، ومرة أخرى قدمت الاسماعيلية في شكلها الجديد نقداً مغرياً للمعتقدات التقليدية التي تحميها أمبراطورية السلاجقة وذلك بعد أن انتهجت استراتيجية ثورية جديدة وفعالة . لقد فشلت « الدعوة القديمة » للاسماعيلية ، وأخذت الأمبراطورية الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة . وظهرت الحاجة إلى « دعوة جديدة » وأسلوب جديد وهما ما قدمهما ثوري عبقري يدعى حسن الصباح .

الفصل الثالث

الدعوة الجديدة

ولد حسن الصباح في مدينة « قم » وهي احدى المراكز الأولى التي استوطنها العرب في فارس وكانت معقلاً قوياً للشيعة الاثني عشرية ، وكان أبوه ينتمي إلى الشيعة الاثني عشرية وقد جاء من الكوفة بالعراق ويقال انه من أصل يمني بل ويتخيل البعض انه ينحدر من ملوك حمير القدامى في جنوب شبه الجزيرة العربية . ولا نعرف بالتحديد التاريخ الذي ولد فيه حسن ولكن من المحتمل أن يكون في أواسط القرن الحادي عشر ، وعندما كان طفلاً انتقل الأب بأسرته إلى مدينة الري — بالقرب من مدينة طهران الحديثة — وهناك تلقى حسن تعليمه الديني ، وكانت الري مركزاً لنشاط الدعاة الاسماعيليين منذ القرن التاسع ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ حسن يشعر بتأثيرهم ، فنراه يكتب في احدى شذرات ترجمة حياته التي حفظها المؤرخون فيقول :

« منذ أيام طفولتي ، وأنا في السابعة من عمري ،

أحببت مختلف فروع المعرفة ، وكنت أتوق لأن أكون من علماء الدين وظللت حتى سن السابعة عشرة دارساً وباحثاً في المعرفة ولكني ظللت على عقيدة أجدادي الاثني عشرية .

« وذات يوم التقيت برجل ، أحد الرفاق (وهو تعبير يطلقه الاسماعيليون على أنفسهم) يدعى عميرة زاراب Amira Zarrab كان من وقت لآخر يدعو إلى نظرية الخلفاء في مصر ... كما كان يفعل آخرون من قبله ...

« لم يكن لدي أي شك أو زعزعة في ايماني بالإسلام وفي اعتقادي بوجود اله حي ، باق ، قدير ، سميع ، بصير وفي وجود نبي وامام ، وفي وجود مباحات ومحظورات ، وجنة ونار ، وأوامر ونواهي ، وكنت أفترض أن الدين والشريعة هما ما يؤمن به الناس بوجه عام والشيعة بوجه خاص ، ولم يدر بخلدي أن الحقيقة يمكن البحث عنها خارج الإسلام ، وكنت أعتقد أن نظريات الاسماعيلية من قبيل الفلسفة (وهي كلمة لها معنى مكروه لدى المؤمنين الأتقياء) وأن حاكم مصر فيلسوف .

« وكان عميرة زاراب ذا شخصية قوية ، وعندما ناقشني لأول مرة قال ان « الاسماعيلية يقولون كذا وكيت » فقلت له « لا يا صديقي لا تردد كلماتهم لأنهم كفرة وما يقولونه ضد الدين » وكانت هناك خصومات ومناقشات

بيننا تمكن خلالها من تدمير عقيدتي واثبات بطلانها ، ولم أشأ أن أعترف له بذلك ولكن في أعماقي كانت لكلماته أكبر الأثر ... وكان عميرة يقول لي « عندما تخلو إلى التأمل في سريرك أثناء الليل سوف تعرف أن ما أقوله لك مقنع » .

بعد ذلك افترق حسن ومعلمه ، ولكن التلميذ الصغير واصل بحثه ، وأخذ يقرأ كتب الاسماعيلية ، فوقع فيها على أشياء أقنعته ، وأخرى لم تقنعه ، ولكنه لم يلبث أن أصيب بمرض شديد كان له الفضل في تحويله تحويلاً كاملاً إلى المذهب الجديد ، كتب يقول « أخذت أفكر ، لا شك أن هذه هي العقيدة الصحيحة ولكني لم أعترف بها لخوفي الشديد وها قد اقترب الآن أجلي المحتوم وسوف أموت دون أن أصل إلى الحقيقة » .

ولم يمت حسن ، ولما شفي بحث عن معلم اسماعيلي جديد أتم تعليمه على يديه ، وكانت خطوته التالية أن يقسم يمين الولاء للامام الفاطمي ، وقد أدى هذا القسم أمام مبشر اسماعيلي مرخص له من عبد الملك بن عطاش كبير الدعاة الاسماعيليين في غرب ايران والعراق . وبعد ذلك بقليل ، في مايو — يونيو ١٠٧٢ وصل كبير الدعاة شخصياً إلى الري حيث قابل النصير الجديد ووافق عليه وحدد له مهمة في الدعوة وطلب منه أن يسافر إلى القاهرة ويقدم نفسه في بلاط الخليفة ، أو بمعنى آخر أن يسجل اسمه في المقر .

ولكن حسن لم يذهب في الواقع إلى مصر إلا بعد ذلك بسنوات ولدينا قصة تحاول أن تفسر الأحداث التي أدت إلى رحيله ، هذه القصة حكاها عدد من المؤلفين الفرس وانتقلت إلى القراء الأوربيين عن طريق المقدمة التي كتبها ادوارد فيتزجرالد لترجمته لرباعيات الخيام . تقول هذه القصة أن حسن الصباح والشاعر عمر الخيام والوزير نظام الملك كانوا زملاء دراسة لأستاذ واحد ، وتعاهد ثلاثتهم على أن أي واحد منهم يحقق قبل زميليه نجاحاً أو ثراء في هذا العالم عليه أن يساعد الآخرين . ودارت الأيام وأصبح نظام الملك وزيراً للسلطان ، فتقدم منه زميلاه طالبين أن يبر بما تعاهدوا عليه ، وعرض نظام الملك على كل منهما ولاية أحد الأقاليم ، ولكنهما رفضا وان كان رفضهما لسببين مختلفين ، فأما عمر الخيام فقد كره مسئوليات الادارة وفضل الحصول على معاش يتيح له التمتع بمباهج الفراغ ، وأما حسن فقد رفض أن يقنع بمنصب اقليمي وأصر على الحصول على منصب كبير في البلاط ، واذ تحققت رغبته لم يلبث أن أصبح مرشحاً للوزارة ومنافساً خطيراً لنظام الملك نفسه ، ولذا فقد تآمر عليه الوزير واستطاع بخدعة أن يلحق به خزياً في عين السلطان ، وشعر حسن بالعار والغضب ففر إلى مصر ليعد العدة للانتقام .

ولكن هذه القصة تثير بعض الصعوبات ، فالمعروف

أن نظام الملك ولد عام ١٠٢٠ على أقصى تقدير وقتل عام ١٠٩٢ أما تاريخ ميلاد حسن الصباح وعمر الخيام فغير معروف ولكن الأول مات في عام ١١٢٤ والثاني في عام ١١٢٣ على أقل تقدير ، ومقارنة هذه التواريخ تدل على أنه من غير المحتمل أن يكون الثلاثة قد تعاصروا كطلاب علم ، ومعظم الدارسين المحدثين يرفضون هذه القصة المنمقة كخرافة من محض الخيال ، ويقدم مؤرخون آخرون تفسيراً أكثر معقولية لرحيل حسن فيقولون انه أزعج السلطات في الري واتهمته هذه السلطات بإيواء عملاء مصريين وبأنه مهيج خطير للخواطر ، وليتفادى الاعتقال هرب من المدينة بادئاً سلسلة من الرحلات حملته أخيراً إلى مصر .

وطبقاً لشذرات قصة حياته بقلمه نعرف أنه غادر الري في عام ١٠٧٦ وذهب إلى أصفهان ومنها سافر شمالاً إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين حيث طرد من المدينة بواسطة القاضي لأنه — أي حسن — أصر على أن الإمام وحده له الحق في تفسير الدين نافياً بذلك سلطة علماء السنة ، فواصل رحلته عبر العراق وسوريا حتى وصل إلى دمشق وهناك علم أن الطريق البري إلى مصر مغلق بسبب اضطرابات عسكرية فاتجه غرباً إلى الشاطىء وسافر جنوباً إلى بيروت ثم أبحر من فلسطين إلى مصر ووصل إلى القاهرة في ٣٠ أغسطس عام ١٠٧٨ ، واستقبل بحفاوة في البلاط الفاطمي .

مكث حسن الصباح في مصر حوالي ثلاث سنوات قضى الشطر الأول منها في القاهرة ثم في الاسكندرية وتقول بعض الأخبار أنه اختلف مع أمير الجيوش بدر الجمالي بسبب تأييده – أي حسن – لنزار ، فأدخل السجن ثم طرد من البلاد ، واذا كان السبب الذي عزى اليه الداعي قد يكون اضافة لاحقة حيث أن النزاع على الخلافة فاطمية لم يكن قد ثار بعد ، إلا أن حدوث صدام بين الثوري المتطرف والدكتاتور العسكري أبعد ما يكون عن عدم الاحتمال .

أبعد حسن الصباح من مصر إلى شمال أفريقيا ولكن السفينة الافرنجية التي كان مسافراً بها تحطمت ، وأنقذ ، وحمل إلى سوريا ، وهناك سافر إلى حلب وبغداد ووصل إلى أصفهان في ١٠ يونيو ١٠٨١ وراح خلال السنوات التسع التالية يسافر على اتساع في بلاد الفرس ناشراً الدعوة الاسماعيلية ، وهو يتحدث في شذرة ترجمة حياته عن مثل هذه الرحلات فيقول « ومن هناك (من أصفهان) سافرت إلى كرمان ويزد وباشرت الدعوة هناك بعض الوقت » ومن وسط ايران عاد إلى أصفهان ثم اتجه جنوباً ليقضي ثلاثة أشهر في خوزستان وكان قد أمضى فيها بعض الوقت خلال عودته من مصر .

الدعوة في أرض الديلم

أخذ حسن الصباح يركز انتباهه بدرجة متزايدة على أقصى الشمال الفارسي – على أقاليم الخزر كجيلان ومازندران وبالتحديد على الهضبة المعروفة باقليم الديلم . هذه الأقاليم – التي تقع شمال سلسلة الجبال التي تحيط بالهضبة الايرانية الكبرى – تختلف في تركيبها الجغرافي عن بقية البلاد ، وكان يسكنها أناس شجعان محبون للقتال مستقلون ، وكان الايرانيون في الهضبة الرئيسية ينظرون اليهم منذ زمن طويل كقوم غرباء عنهم وشديدي الخطر . وفي الأزمنة القديمة لم يستطع حكام ايران اخضاعهم على نحو فعال ، وحتى العرب الغزاة وجدوا من الضروري أن يقيموا قلاعاً على الحدود لصد هجماتهم ، أما حكام ايران العرب فقد أحرزوا معهم تقدماً ضئيلاً ، ويقال انه عندما كان القائد العربي الحجاج يستعد لمهاجمة الديلم أعد خارطة للبلاد مبيناً عليها الجبال والوديان والممرات وأراها لوفد من الديلم طالباً منهم الاستسلام قبل أن يغزو بلادهم ويدمرها ، فنظروا إلى الخارطة وقالوا له « لقد أخبروك الخبر الصحيح عن بلادنا ، وهذه صورتها ، ولكنهم لم يضعوا عليها المحاربين الذين يدافعون عن هذه الممرات والجبال ، وسوف تعلم عنهم اذا حاولت » . ومع مرور الزمن انتشر الإسلام في الديلم بالتغلغل السلمي

وليس بالفتح العسكري .

كان الديلم من آخر الخاضعين للإسلام ومن أول من أكدوا ذاتيتهم فيه : سياسياً بقيام سلسلة من الأسر الحاكمة المستقلة ودينياً باتخاذهم عقائد غير سلفية ، ومنذ نهاية القرن الثامن عندما لجأ أعضاء من أهل بيت على الهاربين من الاضطهاد العباسي إلى الديلم ووجدوا التأييد لديهم أصبحت الديلم مركزاً للنشاط الشيعي ، واستطاع الديلم أن يدافعوا عن استقلالهم بغيرة فائقة ضد خلفاء بغداد وغيرهم من الحكام السنة ، وأثناء القرن العاشر وتحت حكم بني بويه نجح الديلم في فرض سيطرتهم على معظم بلاد الفرس والعراق ، بل وأصبحوا لفترة أوصياء على خلفاء بغداد أنفسهم حتى وضع مقدم السلاجقة نهاية للحكم الديلمي والشيعي في الامبراطورية الإسلامية وبدأ يضغط بشدة على الديلم أنفسهم .

بين هؤلاء الأقوام الشماليين — ومعظمهم من الشيعة ومتأثرون فعلاً بالدعوة الاسماعيلية — ركز حسن الصباح جهده الأكبر ، وكانت لدعوته النضالية جاذبية كبيرة بين سكان جبال الديلم ومازندران المتمردين والمحبين للقتال ، وكان الصباح يتفادى المدن ويشق طريقه عبر الصحارى من خوزستان إلى شرق مازندران وأخيراً استقر في دمغان حيث بقي ثلاث سنوات ومن هذه القاعدة أخذ يرسل الدعاة للعمل بين سكان الجبال وكان يقوم بنفسه

بالسفر بلا انقطاع لتوجيه دعاته ومساعدتهم على نشر الدعوة وسرعان ما لفت نشاطه انتباه الوزير نظام الملك الذي أمر السلطات في الري باعتقاله ، ولكنها لم تنجح ، وتحاشى حسن الري وسافر بالطريق الجبلي إلى قزوين التي كانت أنسب قاعدة لحملته في بلاد الديلم .

قلعة الموت وأخواتها

لم يكن حسن الصباح — أثناء جولاته التي لا تكاد تنقطع — مشغولاً فحسب بكسب الأنصار لقضيته ، وإنما كان مهتماً كذلك بأن يجد لنفسه قاعدة ما ، لم يكن يريد أن يحصل على مخبأ سري في مدينة مما يجعله تحت خطر الاكتشاف والاقتحام المستمر وانما كان يبحث عن معقل ناء منيع يستطيع بفضل حصانته أن يوجه حربه ضد امبراطورية السلاجقة ، ووقع اختياره أخيراً على قلعة « ألموت » Alamot وهي حصن مقام فوق طنف ضيق على قمة صخرة عالية في قلب جبال البورج Al Borg ويسيطر على واد مغلق صالح للزراعة يبلغ طوله حوالي ثلاثين ميلاً وأقصى عرضه ثلاثة أميال والقلعة ترتفع أكثر من ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر كما تعلو عدة مئات من الأقدام فوق قاعدة الصخرة ، ولا يمكن الوصول اليها إلا عبر طريق ضيق شديد الانحدار كثير المنعطفات أما

التقدم نحو الصخرة فعن طريق الوادي الضيق لنهر « ألموت » الذي يشق مجراه بين منحدرات صخرية عمودية أو ناتئة بين حين وآخر .

وقد قيل أن هذه القلعة بناها أحد ملوك الديلم القدامى فبينما كان خارجاً للصيد ذات يوم أطلق نسراً مدرباً فاعتلى صخرة ، وأدرك الملك القيمة الاستراتيجية للموقع وبنى عليه فوراً قلعة أسماها « ألوه أموت » ومعناها في لسان أهل الديلم « تعليم النسر » والبعض يترجم الاسم إلى « عش النسر » ، ولكن الترجمة الأولى هي الأرجح وقد أعاد بناء القلعة حاكم علوي في عام ٨٦٠ م وفي وقت وصول حسن الصباح كانت القلعة في يد علوي آخر يدعى مهدي كان قد منحها له السلطان السلجوقي .

وأعد حسن الصباح خطة محكمة للاستيلاء على قلعة « ألموت » ، فقد استقر في دمغان وأخذ يرسل الدعاة للعمل في القرى المحيطة بالقلعة ثم — كما يقول في شذرات ترجمة حياته « ومن قزوين أرسلت الدعاة مرة أخرى إلى قلعة ألموت ... وأمكن كسب بعض الرجال في القلعة للعقيدة الاسماعيلية بواسطة الدعاة ، وهؤلاء حاولوا تحويل العلوي صاحب القلعة نفسه وتظاهر هو بأنهم كسبوه إلى جانبهم ولكنه بعد ذلك تحايل على ارسال جميع المتحولين إلى الخارج ثم أغلق أبواب القلعة وقال انها تخص السلطان ، وبعد مناقشات كثيرة سمح لهم بالدخول وبعد ذلك رفضوا

أن ينفذوا أوامره بالخروج مرة أخرى » .

وبعد أن نجح حسن الصباح في زرع أنصاره داخل القلعة غادر قزوين إلى مشارف « ألموت » حيث مكث مختبئاً بعض الوقت إلى أن تمكن أنصاره من تهريبه سراً إلى داخل القلعة في يوم الأربعاء الموافق ٤ سبتمبر ١٠٩٠ م وظل فترة أخرى من الوقت متخفياً داخل القلعة ونكن شخصيته لم تلبث أن أميط عنها اللثام في الوقت المناسب وتحقق المالك القديم للقلعة مما حدث ولكنه أسقط في يده ولم يستطع أن يفعل شيئاً لوقف مجرى الأحداث أو تغييرها وسمح له حسن بمغادرة القلعة ، وأعطاه — طبقاً لقصة يوردها المؤرخون الفرس — مبلغاً قدره ٣٠٠٠ دينار ذهبي ثمناً للقلعة .

وبذلك أصبح حسن الصباح سيداً لقلعة « ألموت » ولم يغادرها مرة واحدة منذ دخوله حتى وفاته بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاماً ، كما لم يغادر البيت الذي يقيم فيه داخل القلعة سوى مرتين اثنتين . وفي هاتين المرتين صعد فقط إلى سطح البيت ! ويقول رشيد الدين « أما بقية الوقت حتى وفاته فقد أمضاه في قراءة الكتب ، وكتابة كلمات الدعوة ، وادارة شئون مملكته ، وكان يحيا حياة متقشفة ، معتدلة ، تقية » .

وفي البداية كان أمام حسن الصباح واجباً مزدوجاً :

أن يكسب مزيداً من الأنصار وأن يسيطر على المزيد من القلاع فصار يرسل المبشرين والاتباع من « ألموت » إلى مختلف الجهات لتحقيق هذين الغرضين ، وكان هدفه الواضح أن يسيطر على الأراضي المجاورة لمقره مباشرة وهي منطقة تسمى رود بار Rod-bar أي حوض النهر نسبة إلى نهر شاه رود الذي يتدفق في المنطقة . كانت الحياة في تلك الوديان الجبلية النائية الخصبة تسير على النهج القديم غير متأثرة بالتغيرات التي تحدث في الجنوب ، ولم تكن هناك مدن حقيقية في رودبار ، ولم تكن ثمة سلطة عسكرية أو سياسية مستقرة في مدينة ما بالمنطقة ، بل كان الناس يعيشون في قرى متناثرة ويدينون بالولاء لنبلاء محليين يقيمون في القلاع ، واستطاع الاسماعيليون أن يجدوا بين هؤلاء النبلاء والقرويين مؤيدين لهم . يقول جويني « لقد بذل حسن كل جهد ممكن للاستيلاء على الأماكن الملحقة بألموت أو المجاورة لها ، وكان يفعل ذلك عن طريق كسب السكان بأخاديعه الدعائية اذا استطاع فاذا لم تنطل عليهم حيله أخذها بالمذابح والسلب والنهب وسفك الدماء والحرب ، وبهذا استولى على ما استطاع الاستيلاء عليه من القلاع ، وأينما وجد صخرة مناسبة كان يبني فوقها قلعة له » .

وقد حقق حسن الصباح نجاحاً هاماً بالاستيلاء على قلعة لاماسار Lamasar بهجوم شنه عليها في الفترة من

١٠٩٦ إلى ١١٠٢ وكان يقود المهاجمين كيا برزرجميد Kiya Burzurgumid الذي ظل قائداً للقلعة عشرين عاماً ، وكانت القلعة تحتل مكاناً استراتيجياً فوق صخرة مستديرة تطل على شاه رود ، وقد أتاحت هذه القلعة للاسماعيليين أن يدعموا قوتهم في كل منطقة رود بار .

بعيداً إلى الجنوب الشرقي تقع بلاد كوهستان Quhistan الجبلية القاحلة وهي تقع على الحدود الحالية بين ايران وأفغانستان ، ويعيش سكانها في مجموعة من الواحات المتفرقة المنعزلة تحيطها من كل الجهات الصحراء المالحة الكبرى للهضبة الرئيسية . وقد كانت هذه المنطقة في الأزمنة الإسلامية المبكرة احدى الملاجىء الأخيرة للزرادشتيين (المجوس) وعندما تحولت إلى الإسلام أصبحت معقلاً للشيعة وغيرهم من المنشقين الدينيين ثم للاسماعيليين ، ففي عام ١٠٩١ — ١٠٩٢ أرسل الحسن الصباح بعثة تبشيرية إلى كوهستان لتجنيد سكانها والحصول على تأييدهم للدعوة الاسماعيلية ، ووقع اختياره لرئاسة البعثة على حسين القعيني وهو داع قدير قام بدور في تحويل ألموت وكان هو نفسه من أصل كوهستاني ، وقد أحرزت البعثة نجاحاً عاجلاً ، فقد كان سكان كوهستان يتذمرون تحت الحكم السلجوقي ، ويقال ان مشاعر الاستياء بلغت قمتها عندما حاول قائد سلجوقي مستبد أن يحصل على أخت أحد النبلاء المحليين الذي يتمتع باحترام بالغ بين قومه

فانضم إلى صفوف الاسماعيليين ، والواقع أن ما حدث في كوهستان كان أكثر من مجرد تسلل سري أو استيلاء على قلاع ، وإنما أخذ ما يشبه شكل ثورة شعبية أو حركة استقلال من السيطرة العسكرية الأجنبية ، فقد هب الاسماعيليون في ثورات صريحة في كثير من أنحاء الاقليم وفرضوا سيطرتهم على عدة مدن رئيسية وهي شوشان وقعين وطبس وتون وأخريات ، وهكذا نجحوا في كوهستان الشرقية كما نجحوا في رودبار في انشاء دولة اقليمية بالفعل .

كانت المناطق الجبلية ذات ميزة واضحة بالنسبة لاستراتيجية الاسماعيليين في التوسع ، وقد كانت هناك منطقة أخرى مماثلة تقع في الجنوب الغربي من ايران في المنطقة بين خوزستان وفارس ، فهناك أيضاً توافرت الشروط اللازمة للنجاح : البلاد المنيعة والسكان القلقين الساخطين والتراث المحلي القوي الموالي للشيعة والاسماعيلية وقد كان الزعيم الاسماعيلي في هذه المنطقة يدعى أبو حمزة وهو اسكافي من عرجان Arrajan كان قد ذهب إلى مصر وعاد داعياً فاطمياً ، واستولى على قلعتين يبعدان عدة أميال عن عرجان واستخدمهما كقاعدة لمزيد من النشاط .

العنف الاسماعيلي

في الوقت الذي كان فيه بعض دعاة الاسماعيلية يحصلون على مراكز قوة لهم في المناطق النائية ويدعمون أنفسهم فيها كان هناك آخرون يبثون دعايتهم الدينية في المراكز الرئيسية داخل العالم السني والسلجوقي ، وهؤلاء هم الذين تسببوا في سفك أول الدماء بين العملاء الاسماعيليين والسلطات السلجوقية . وقد وقع الحادث الأول من هذا القبيل في مدينة صغيرة تسمى سافا Sava في الهضبة الشمالية على مسافة ليست بالبعيدة من الرى وقم وربما يكون هذا الحادث قد وقع قبل الاستيلاء على قلعة « ألموت » والذي حدث أن مجموعة من ثمانية عشر اسماعيلياً اعتقلوا بأمر آمر الشرطة لاشتراكهم سوياً في صلوات خاصة ، وكان هذا هو لقاءهم الأول وقد سمح لهم بالانصراف بعد استجوابهم ، ولكنهم حاولوا تجنيد مؤذن من سافا كان يعيش في أصفهان ولما رفض الرجل الاستجابة لندائهم خشوا أن يشي بهم للسلطات فقتلوه . ويقول المؤرخ العربي ابن الأثير انه كان أول ضحية لهم وكانت دماؤه أول دماء سفكوها وقد بلغت أنباء هذا الاغتيال إلى الوزير نظام الملك الذي أعطى أوامره الشخصية بإعدام زعيم الجماعة وهو نجار يدعى طاهر وكان ابن واعظ تقلد عدة مناصب دينية ثم قتله بعض الرعاع في كرمان بشبهة انه اسماعيلي

وقد أعدم طاهر وجعل عبرة وأمثولة وسحلت جثته في ساحة السوق ، يقول ابن الأثير انه كان أول اسماعيلي يعدم .

في عام ١٠٩٢ قام السلاجقة بأولى محاولاتهم لمواجهة الخطر الاسماعيلي بالقوة العسكرية ، فأرسل السلطان ملكشاه — السيد الأعلى لجميع الأمراء والحكام السلاجقة — حملتين عسكريتين احداهما ضد « ألموت » والأخرى ضد كوهستان ، ولكن الحملتين أمكن صدهما ، وقد صدت الحملة الاولى بمساعدة مؤيدي الاسماعيلية والمتعاطفين معهم من سكان رودبار وقزوين ويورد المؤرخ الجويني وصفاً اسماعيلياً لهذا الانتصار فيقول : « ان السلطان ملكشاه بعث في بداية عام ٤٨٥ (١٠٩٢ م) أميراً يدعى ارسلان تاش ليطرد حسن الصباح وأتباعه ويستأصل شأفتهم ، ونزل هذا الأمير بعسكره أمام ألموت في غرة جمادي من نفس السنة (يونيو — يوليو ١٠٩٢) وفي ذلك الوقت لم يكن حسن الصباح لديه في ألموت أكثر من ستين أو سبعين رجلاً وكانت لديهم مؤن قليلة وقد عاشوا على القليل الذي لديهم والذي لا يكاد يكفيهم واستمروا في المعركة ضد محاصريهم . وفي ذلك الوقت كان أحد دعاة الحسن ويدعى ديدار بوعلي وكان قد جاء من زفاره Zuvara وأردستان Ardistan واستقر في قزوين واستطاع تحويل بعض سكان المنطقة ، وكذلك كان يوجد

في اقليم طلقان Talqan وكوهي — بارا Kuh-i-Bara واقليم الرى كثير من الناس يعتقدون في الدعوة الصباحية وجميعهم كانوا يؤاذرون الرجل المستقر في قزوين . والآن طلب حسن الصباح مساعدة بوعلي فأرسل له هذا جماعة من كوهى — بارا وطلقان كما أرسلت الأسلحة ومعدات الحرب من قزوين ، وأقبل حوالي ٣٠٠ رجل لمساعدة حسن الصباح وألقوا بأنفسهم على « ألموت » . وفي احدى ليالي أواخر شهر شعبان من نفس السنة (سبتمبر — اكتوبر ١٠٩٢) قاموا بمساعدة حامية ألموت وتأييد بعض سكان رودبار الذين كانوا متحالفين معهم خارج القلعة بشن هجوم مفاجيء على جيش أرسلان تاش ، وبتوفيق العناية الإلهية استطاعوا دحر الجيش فرحل عن « ألموت » وعاد إلى « ملكشاه » — ثم ارتفع الحصار عن المركز الاسماعيلي في كوهستان عندما وصلت الأخبار بوفاة السلطان في نوفمبر ١٠٩٢ .

وفي تلك الأثناء أحرز الاسماعيليون أول نصر كبير لهم في الفن الذي صار ينسب اليهم ... فن الاغتيال ، وكانت ضحيتهم المختارة الوزير نظام الملك نفسه الذي أدت جهوده في « بذر بذور الشقاق ونشر جراثيم التعطيل بينهم » إلى جعله أخطر عدو لهم ، وقد دبر حسن الصباح لهذه الجريمة بعناية . يقول المؤرخ رشيد الدين الذي كان ينقل دون شك عن مصادر اسماعيلية مع بعض التصرف

« ان سيدنا نصب الشباك والفخاخ من أجل أن يصيد أول كل شيء هدفاً كبيراً كنظام الملك ويجعله يسقط في شباك الهلاك والموت ، وبهذا العمل ذاع صيته وعمت شهرته وأرسى أسس الفدائية ، قال : من منكم يخلص هذه الدولة من شرور نظام الملك الطوسي ؟ فوضع رجل يسمى بوطالب أراني يده على صدره علامة الموافقة ... وفي ليلة الجمعة ١٢ رمضان من عام ٤٨٥ (١٦ ديسمبر ١٠٩٢) وفي منطقة ساهنا من اقليم نهاوند تقدم الرجل وهو متخف في ثياب الصوفيين إلى محفة نظام الملك الذي كان محمولاً من الساحة العامة إلى خيام حريمه وطعنه بسكين ، وبهذه الطعنة نال الرجل الشهادة ، وبذلك كان نظام الملك أول من قتله الفدائيون وقال مولانا — عليه ما يستحق — ان قتل هذا الشيطان هو بداية البركة » .

وكانت تلك بداية سلسلة طويلة من الهجمات المماثلة أدت — في حرب رعب محسوبة — إلى إنزال الموت المفاجىء بملوك وأمراء وقادة جيوش وحكام بل ورجال دين ممن أدانوا نظريات الاسماعيلية وأفتوا بقمع من يقول بها ، اذ يقول أحد هؤلاء الخصوم الأتقياء « ان قتلهم أحل من ماء المطر ، ومن واجب السلاطين والملوك أن يهزموهم ويقتلوهم وينظفوا وجه الأرض من دنسهم ، ولا يجوز الاتصال بهم أو تكوين صداقات معهم أو أكل لحم ذبح بواسطتهم ، أو الدخول معهم في زواج ، ان سفك دم

ملحد منهم أكبر جزاء من قتل سبعين من كفار الروم » .

كان الحشاشون يبدون في عيون ضحاياهم مجرمين متعصبين ضالعين في مؤامرة شيطانية ضد الدين والمجتمع أما رفاقهم الاسماعيليون فكانوا ينظرون اليهم باعتبارهم « قوة نخبة » في الحرب ضد أعداء الإمام ، وانهم بقتلهم للطغاة والمغتصبين يعطون الدليل الناصع على إيمانهم وولائهم ويحصلون على البركة الخالدة العاجلة ، وقد استخدم الاسماعيليون أنفسهم تعبير « الفدائي » لوصف القاتل منهم ، وحفظ لنا الزمن قصيدة اسماعيلية ممتعة تمتدح شجاعتهم وإخلاصهم وتضحيتهم كما حفظت سجلات « ألموت » المحلية التي استشهد بها رشيد الدين وكاشاني قائمة شرف للاغتيالات تسجل أسماء الضحايا وأسماء المؤمنين التقاة الذين قاموا باغتيالهم .

نظام الفرقة

كانت الحركة الاسماعيلية من حيث الشكل جمعية سرية لها نظامها الخاص وقسمها وشعائرها ولها درجات من الوظائف والمعرفة ، وكانت أسرارها تحفظ جيداً فلا يعرف منها سوى شظايا متناثرة مضطربة ، وقد كان مناظروهم التقليديون يصورون الاسماعيلية كعصابة من العدميين المضللين الذين يخدعون الأغرار عبر مراحل

متعاقبة من الحظ بعقلياتهم وفي آخر تلك المراحل يكشفون لهم عن كفرهم الكامل المريع . أما الكتاب الاسماعيليون فقد كانوا ينظرون إلى فرقتهم باعتبارها حفيظة على أسرار مقدسة وشعائر تقدمية لا يمكن للمؤمن بالعقيدة أن يطلع عليها إلا بعد برنامج طويل من الاعداد والارشاد ، وكان التعبير الشائع الذي يطلق على تنظيم الفرقة هو « الدعوة » ، والقائمون بها هم « الدعاة » الذين يماثلون القسس المعينين ، وفي المراحل الاسماعيلية المتأخرة انقسموا إلى مراتب عليا ودنيا مختلفة من المبشرين والمعلمين والمجازين ، ويأتي تحتهم المستجيبون وهم الطبقة الدنيا من أعضاء الفرقة ، وفوقهم يوجد الحجة (بالفارسية خوجا) وهو الداعية الأكبر . وكانت كلمة « الجزيرة » تستخدم لتدل على الاختصاص الاقليمي أو العرقي الذي يرأسه الداعي ، وكان الاسماعيليون — كغيرهم من الفرق والطوائف الإسلامية — يسمون زعماءهم الدينيين بالشيوخ (بالفارسية بير) وكان الاسم الشائع لعضو الفرقة « الرفيق » .

في عام ١٠٩٤ واجهت الاسماعيلية أزمة كبرى ، فقد مات الخليفة الفاطمي المستنصر ، إمام العصر ورئيس العقيدة ، في القاهرة تاركاً خلفه نزاعاً على الوراثة ، ورفض اسماعيلية فارس الاعتراف بخليفته على العرش المصري وأعلنوا ايمانهم بأن الخليفة الشرعي هو ابنه الأكبر المطرود نزار ، والى أن وقع هذا الانقسام كان التنظيم

الاسماعيلي في فارس — على الاقل من الناحية الشكلية — تحت السلطة العليـــا للامام والداعي الأكبر في القاهرة . وكان حسن الصباح مجرد عميل لرؤساء الفرقة في مصر ، أولا كنائب لعبد الملك بن عطاش ثم كخليفة له ، أما الآن فقد حدث انقسام كامل ، ومن ثم لم يعد الاسماعيليون في فارس يتمتعون بحماية أسيادهم السابقين في القاهرة أو يتحملون سيطرتهم .

وواجهت اسماعيلية فارس مشكلة عويصة هـــي شخصية الامام ، والامام هو الشخصية المركزية في كل النظام الديني والسياسي للاسماعيليين ، وقد اعتبروا نزارا هو الامام الشرعي بعد المستنصر ، ولكن نزارا قتل في سجن بالاسكندرية وقيل ان أبناءه قتلوا معه ، وادعى بعض النزارية أن نزاراً لم يمت حقيقة وانما استتر وسيعود إلى الظهور باعتباره المهدي المنتظر ، ومعنى هذا أن خط الائمة قد انتهى . ولكن هذه المدرسة الفكرية لم تستمر طويلا ، ولا نعرف ماذا كان يقوله حسن الصباح لأتباعه حول هذه النقطة بالذات ولكن ظهرت بعد ذلك نظرية تقول ان الامامة انتقلت إلى حفيد لنزار أحضر سراً إلى قلعة « ألموت » ، وتقول احدى الروايات انه كان طفلا جرى تهريبه من مصر إلى فارس بينما تقول رواية أخرى أن محظية لابن نزار كانت حاملا منه وقد أخذت إلى « ألموت » حيث وضعت حملها وهو الامام الجديد ، وطبقاً للعقيدة

النزارية ظلت هذه الأحداث في طي الكتمان والسرية المطلقة في ذلك الوقت ، ولم تذع إلا بعد ذلك بسنوات طويلة .

توسع الاسماعيلية

غير أن غياب الامام الظاهر والتعديلات التي كان من الضروري اجراؤها بعد الانشقاق عن القاهرة لم يبد أنها أوقفت أو عاقت نشاط الاسماعيليين في فارس بل على العكس فقد استغل الاسماعيليون الخلل المؤقت الذي أصاب الدولة السلجوقية خلال السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر والسنوات الأولى من القرن الثاني عشر وقاموا بمد نشاطهم إلى مناطق جديدة .

فخلال هذه الفترة تمكن الاسماعيليون من السيطره على قلعة بشرق البورج في عام ١٠٩٦ وكان هذا العمل بمثابة امتداد لجهودهم السابقة في هذا المضمار ، فقد أرسل حسن الدعاة من ألموت إلى منطقة دمغان التي عمل فيها بعض الوقت قبل ذهابه إلى بلاد الديلم ، وهناك حصلوا على مساعدات قيمة من حاكم دمغان وهو ضابط يدعى مظفر كان قد تحول سراً إلى العقيدة الاسماعيلية على يد عبد الملك بن عطاش ، وكانت هناك قلعة في جنوب دمغان تسمى قلعة غيردكوه وهي عظيمة القيمة لأغراض الفرقة نظراً

لقوتها وموقعها وشمر مظفر عن ساعديه ليحصل لهم عليها وكان حينئذ لا يزال يتظاهر بالولاء للسلاجقة فحرض الأمير السلجوقي الذي كان بمثابة رئيسه على أن يطلب قلعة غيردكوه من السلطان ويعينه قائداً لها ووافق على ذلك الأمير والسلطان ، وبذا استولى مظفر على غيردكوه واستطاع بسلطة الأمير وربما على نفقته أيضاً أن يرمم ويحصن القلعة ويملأها بالمؤن والكنوز ، وعندما تمت ترتيباته جميعاً أعلن عن حقيقة نفسه باعتباره اسماعيلياً من أتباع حسن الصباح ، وظل يحكم القلعة لمدة ٤٠ سنة ، وكانت قلعة غيردكوه تطل على الطريق الرئيسي بين خرسان وغرب ايران وتقع في نفس الوقت بالقرب من المراكز الاسماعيلية بشرق مازندران مما جعلها عظيمة القيمة من حيث تدعيم المركز الاستراتيجي للقوة الاسماعيلية المتصاعدة .

وفي نفس الوقت تقريباً قاموا بضربة أكثر جسارة باستيلائهم على قلعة تدعى شاه ديز تقع على تل بالقرب من المدينة الكبيرة أصفهان مقر السلطان السلجوقي ، وكان المبشرون الاسماعيليون يعملون في هذه المدينة منذ فترة طويلة بل ان عبد الملك بن عطاش كان يقيم فيها ولكنه هرب منها عندما اتهم بالتشيع ، وحصل الاسماعيليون على فرصة جديدة في أصفهان نتيجة للصراع بين السلطان الجديد بركيارق Berkyaruq وأخوته غير الأشقاء وزوجة أبيه ، وفرض الاسماعيليون حكما من الرعب في أصفهان

لم ينته إلا عندما هبت الجماهير بالثورة ضدهم وأشبعتهم تقتيلا ، وقد تكررت مثل هذه الهبات الشعبية ضد الاسماعيلية في مدن فارسية أخرى .

وقد استطاع أحمد – ابن عبد الملك بن عطاش – القيام ببداية جديدة في أصفهان ، وكان أحمد قد سمح له بالبقاء في المدينة عندما هرب أبوه منها اعتقاداً من السلطات انه لا يشارك أباه آراءه الدينية ولكنه كان في حقيقة الأمر يعمل سراً لنصرة القضية الاسماعيلية ، ويقول مؤرخ فارسي انه تمكن من الحصول على عمل كمدرس لأبناء الجند في حامية شاه ديز وهم أساساً من المرتزقة الديلميين وبهذه الوسيلة استطاع أن يفوز بالحظوة لديهم ويكسبهم إلى العقيدة الاسماعيلية وبهذا سيطر على القلعة ، وتقول رواية أخرى أكثر واقعية أنه استطاع ببساطة أن يكسب ثقة القائد ويصبح ساعده الأيمن ثم خلفه بعد وفاته .

وبعد ذلك بقليل كسب الاسماعيليون حصناً آخر بالقرب من أصفهان يسمى حصن خالنكان ، وليس واضحاً ما إذا كان ذلك نتيجة استيلاء أم تنازل ، وتقول حكاية من ذلك النوع الذي أغرم المؤرخون بقصه عن الاسماعيلية ان نجاراً اسماعيلياً عقد صداقة مع قائد الحصن وأقام وليمة شرب فيها جميع جنود الحصن حتى ثملوا تماماً فقام الاسماعيليون بالاستيلاء على الحصن .

كان السلطان بركيارق الذي خلف ملكشاه في عام ١٠٩٢ مشغولاً تماماً بالصراع ضد أخيه غير الشقيق محمد تابار الذي كان يؤيده أخوه الشقيق سانجار ، وعلى أحسن الأحوال لم يكن لدى السلطان بركيارق سوى أدنى الاهتمام وأقل الجنود الممكن ادخارهم لمواجهة الاسماعيليين ، وعلى أسوأها كان هو أو بعض قواده على استعداد للسماح بالعمليات الاسماعيلية ضد أعدائه ، أو حتى ربما – في بعض الحالات – على استعداد لأن يطلب مساعدتهم سراً ، وهكذا كان ممثلو بركيارق في خرسان يحصلون على تأييد الاسماعيليين في كوهستان ضد الجناح المنافس . ونجد في قائمة الشرف التي تحوي اغتيالات الحشاشين التي عثر عليها بقلعة ألموت حوالي ٥٠ حالة اغتيال أثناء حكم حسن الصباح تبدأ بالوزير نظام الملك وأكثر من نصف هؤلاء الضحايا ينتمون إلى هذه الفترة وبعضهم من أنصار محمد تابار وخصوم بركيارق .

في صيف ١١٠٠ م أوقع بركيارق الهزيمة بمنافسه محمد تابار الذي انسحب إلى خرسان ، وفي أعقاب هذا النصر أصبح الاسماعيليون أكثر جسارة وثقة بالذات بل وتمكنوا من التغلغل في بلاط بركيارق وجيشه وحصلوا على تأييد الكثيرين من الأجناد وهددوا من يعارضهم بالاغتيال . يقول المؤرخ العربي ابن الأثير « ان أي قائد أو ضابط لم يكن يجرؤ أن يترك بيته بدون حماية وكانوا يرتدون الدروع

تحت ملابسهم وحتى الوزير أبو الحسن كان يرتدي قميصاً من الزرد تحت ثيابه ، وطلب كبار الضباط من السلطان بركيارق أن يسمح لهم بالظهور أمامه مسلحين خوفاً من أن يتعرضوا للهجوم فمنحهم الاذن بذلك » .

ولكن بركيارق اضطر في النهاية أن يتخذ اجراء ضد الاسماعيليين لتعاظم خطرهم ووقاحتهم وتزايد السخط بين مؤيدي السلطان بسبب لينه معهم وتسامحه ازاءهم ، ويبدو أنه توصل في عام ١١٠١ إلى اتفاق مع سانجار الذي كان لا يزال يحكم خرسان على اتخاذ اجراء مشترك ضد ذلك العدو الذي يهددهما كليهما ، وأرسل سانجار حملة كبيرة مسلحة جيداً ويقودها كبير أمرائه ضد المناطق الاسماعيلية في كوهستان وخربت الحملة المنطقة ثم ألقت الحصار على طيس معقل الاسماعيليين الرئيسي ، وتمكن جنود سانجار باستخدام المجانيق من تدمير أغلب جدران القلعة وكانوا على وشك الاستيلاء عليها ولكن الاسماعيليين رشوا الأمير ليرفع الحصار ويذهب إلى حال سبيله ، وعندئذ استطاعوا اصلاح قلعة طيس واعادة تحصينها وتقويتها استعدادا لمواجهة الهجوم التالي . وقد جاء هذا الهجوم بعد ثلاث سنوات عندما قاد الأمير جيشا جديداً إلى كوهستان وكان يضم بالاضافة إلى جنوده النظاميين عدداً من المتطوعين ، وقد نجحت الحملة هذه المرة ولكنها للغرابة لم تكن حاسمة لقد تمكنت قوات السلاجقة من

هزيمة وتدمير طيس وغيرها من القلاع الاسماعيلية وسلب ونهب المستوطنات الاسماعيلية وأخذ بعض سكانها أرقاء ثم انسحبوا بعد الحصول على وعد من الاسماعيليين بأنهم « لن يعيدوا بناء القلعة أو يشتروا أسلحة أو يدعوا أحدا إلى عقيدتهم » على حد تعبير ابن الأثير وقد اعتبر الكثيرون هذه الشروط لينة جداً وانتقدوا سانجار لقبولها ، والمؤكد على أي حال أنه لم يمض وقت طويل حتى تمكن الاسماعيليون من تقوية أنفسهم في كوهستان مرة أخرى .

ولم يبذل بركيارق جهداً حقيقياً لمهاجمة مراكز السلطة الاسماعيلية في غرب فارس والعراق ، وبدلا من ذلك حاول تهدئة غضب قواته وجماهيره بأن سمح — أو شجع — باعداد مذبحة للمتعاطفين مع الاسماعيلية في أصفهان ، وهكذا اشترك الجند والمواطنون في تصيد المشبوهين الذين كان يحاط بهم ويؤخذون إلى الميدان الكبير حيث يقتلون وكان مجرد الاتهام البسيط كافياً للانتقام ، يقول ابن الأثير أن كثيرين من الأبرياء فقدوا حياتهم في ذلك اليوم نتيجة لأعمال الانتقام ، ومن أصفهان امتدت الاجراءات ضد الاسماعيليين إلى العراق حيث قتلوا في معسكر ببغداد وأحرقت كتبهم ، وكان أحد الاسماعيليين البارزين ويدعى أبو ابراهيم أسدبادي قد أرسله السلطان نفسه في مهمة رسمية إلى بغداد ، فأرسل السلطان أوامره بالقبض عليه ، وعندما جاء سجانوه لقتله ، قال لهم أسد بادي :

« حسناً ، أنكم ستقتلونني ولكن هل يمكنكم قتل هؤلاء الذين في القلاع ؟ » .

كانت سخرية أسدبادي في محلها ، لقد أصيب الاسماعيليون بنكسة ولم يعد في امكانهم الاعتماد على اذعان بيركيارق لهم ، وظل الفدائيون لفترة عاجزين نسبياً ولكن قلاعهم ظلت منيعة ، وارهابهم — وان قل — لم ينته ، فبين عامي ١١٠١ — ١١٠٣ تسجل « قائمة الشرف » اغتيال مفتي أصفهان في الجامع القديم بتلك المدينة ، ووالي بيهق ، ورئيس الكرمية Karramiyya وهي جماعة دينية متشددة ضد الاسماعيليين وقد لقي مصرعه في جامع نيسابور أيضاً وإذا كان اغتيال القادة والمسئولين السلاجقة قد بدا صعباً نسبياً في ذلك الوقت فقد ظلت المهمة الآن هي عقاب الشخصيات الدينية والمدنية التي تجرؤ على معارضة الاسماعيليين ، وقد كان خلال هذه السنوات أن اتخذ حاكم ألموت خطوة أخرى هامة هي ارسال مبعوثيه إلى سوريا .

ان الخطر الاسماعيلي على الامبراطورية السلجوقية قد أمكن احتواؤه لا تدميره . وبعد وفاة بركيارق في ١١٠٥ بذل خليفته محمد تابار جهداً حازماً جديداً للتغلب عليهم ، يقول ابن الأثير « عندما أصبحت السلطنة في يدي محمد ولم يعد هناك خصم ينازعه لم يكن ثمة ما يشغل باله أكثر

من الاحاطة بالاسماعيليين وقتالهم والانتقام للمسلمين من ظلمهم وسوء فعالهم ، وقرر أن يبدأ بقلعة أصفهان التي كانت في أيديهم لأنها كانت أكثر ايذاء وهيمنة على حاضرته لذا فقد قاد جيشه بنفسه ضدهم وألقى عليهم الحصار في ٦ شعبان عام ٥٠٠ هـ (٢ — ٢ أبريل ١١٠٧) .

وقد تأخر حصار القلعة وسقوطها نتيجة لسلسلة من الخدع والمناورات دبرها الاسماعيليون وأصدقاؤهم فمنذ البداية تأجل رحيل الحملة خمسة أسابيع بسبب أنباء كاذبة عن وجود مخاطر في كل مكان بثها المتعاطفون مع الاسماعيليين في معسكر السلطان . وعندما وجد الزعيم الاسماعيلي المحلي أحمد بن عطاش نفسه في مأزق استطاع أن يحصل على فرصة لالتقاط الأنفاس باثارته خصومة دينية اذ بعث إلى السلطان برسالة إدعى فيها ان الاسماعيليين مسلمون جيدون يؤمنون بالله ورسوله ويتبعون الشريعة وانهم يختلفون عن السنة فيما يتعلق بالامامة فحسب ، ولذا فان من الأجدر بالسلطان أن يمنحهم هدنة وشروطاً ويقبل ولاءهم . وقد أشعل الخطاب مناقشة دينية بين المهاجمين والمدافعين ، وبين مختلف مدارس الفكر في معسكر المهاجمين فقد مال عدد كبير من المستشارين الدينيين للسلطان إلى قبول الحجة الاسماعيلية ولكن قلة منهم اتخذوا موقفاً متشدداً ، وقال أحدهم « لندعهم يردون على هذا السؤال : اذا أحل لكم أمامكم ما تنهى عنه الشريعة أو حرم عليكم ما تحله الشريعة فهل تطيعونه ؟ فاذا أجابوا بنعم فان دماءهم

تحل » وبفضل تصميم هؤلاء المتشددين انتهت المناقشة إلى لا شيء واستمر الحصار .

بعد ذلك ، جرب الاسماعيليون تغيير سياستهم فاقترحوا حلاً وسطاً هو أن يسلموا قلعة شاه ديز في مقابل اعطائهم قلعة أخرى مجاورة « من أجل حماية أرواحهم وممتلكاتهم من العامة » وامتدت المفاوضات بينما كان وزير السلطان يشرف بنفسه على امداد القلعة بالمؤن الغذائية ، ولكن هذه المرحلة انتهت عندما أصاب أحد الحشاشين الاسماعيليين أحد أمراء السلطان ولكنه فشل في قتله ، وكان هذا الأمير من أشد خصوم الاسماعيلية ، عندئذ واصل السلطان الحصار مرة أخرى وأصبح الأمل الوحيـــد لدى المدافعين عن القلعة أن يفاوضوا على شروط التسليم .

ولم يمض وقت طويل حتى تم الاتفاق على الشروط فسمح لجزء من الحامية الاسماعيلية بمغادرة القلعة تحت حماية السلطان والذهاب إلى المراكز الاسماعيلية في طيس وعرجان المجاورة وأن يتحرك الباقون إلى أحد أجنحة القلعة ويخلوا بقيتها للسلطان ، وعندما ترد الأنباء بوصول المنصرفين إلى زملائهم بسلام على الباقين النزول من القلعة والسماح لهم بمغادرتها إلى « ألموت » . ولكن عندما جاءت الأنباء في حينها بوصول المغادرين إلى وجهتهم رفض أحمد بن عطاش أن ينفذ ما يفرضه عليه الاتفاق ، وكان قد انتهز فرصة المهلة وقام بتدعيم أسلحته ورجاله وهم حوالى ثمانين

رجلاً في الجناح المتبقي من القلعة واستعد لقتال حتى الموت ، ولم يغلبوا إلا بفضل أحد الخونة الذي أبلغ معسكر السلطان بأن أحد أسوار الجناح غير محمي وأن ما يبدو بأعلاه مجرد أسلحة ودروع صنعت في هيئة رجال وما هي برجال ، فهاجم عساكر السلطان من ناحية ذلك السور ، وفي الهجوم الأخير تم قتل جميع المدافعين وألقت زوجة ابن عطاش بنفسها من فوق أسوار القلعة بعد أن تزينت بحليها وجواهرها فقتلت في الحال ، وأسر ابن عطاش وعرض في موكب طاف شوارع أصفهان ، ثم سلخ حياً وحشي جلده بالتبن وأرسلت رأسه إلى بغداد .

وأصدر السلطان بياناً للاحتفال بهذا النصر كتب بأسلوب طنان رنان بعض الشيء ولكنه يعطي فكرة عن وجهة نظر السلاجقة في عدوهم الذي تغلبوا عليه ، جاء فيه « في قلعة شاه ديز .. باض الزيف وأفرخ .. هناك كان ابن عطاش الذي طار منه صوابه في طريق الخطأ وضل والذي قال لرجاله ان الصراط المستقيم طريق زائف ، وجعل مرشداً له كتاباً مليئاً بالأكاذيب ، وأباح سفك دماء المسلمين والاستيلاء على ممتلكاتهم .. وحتى إذا لم يكونوا قد فعلوا أكثر مما فعلوه عندما جاءوا أول الأمر إلى أصفهان حين اتبعوا أساليب الخيانة وأوقعوا فرائسهم في حبالهم بالغدر والخديعة وقتلوهم بوسائل التعذيب المريعة والموت الفظيع ، وما قاموا به من اغتيالات عديدة بدأت بنبلاء البلاط ونخبة

العلماء وما سفكوه من دماء ذكية لا تعد ولا تحصى وغير ذلك من الجرائم البشعة في حق الاسلام ... ان لم يكن قد فعلوا أكثر من ذلك فقد كان من واجبنا أن نحارب دفاعاً عن الدين وأن نركب السهل والصعب في حربنا المقدسة ضدهم حتى حدود الصين » .

وبالطبع فان ذكر الصين هنا ليس أكثر من بلاغة لغوية واستعارة من حديث شهير للنبي ﷺ ولكن هجوم السلطان على الاسماعيليين امتد إلى أقصى الجانبين الشرقي والغربي للأمبراطورية السلجوقية ، وقد فشلت حملة أرسلت ضد الاسماعيليين في تكريت بالعراق ، وكان الاسماعيليون قد سيطروا عليها لمدة اثني عشر عاماً ، ولكن الحملة أرغمت القائد الاسماعيلي على تسليمها إلى الشيعة العرب المحليين ، وفي الشرق تحمس سانجار لاتخاذ اجراء ضد القواعد الاسماعيلية في كوهستان ، ولكن نتائجه غير واضحة ، وفي نفس هذا الوقت تقريباً أو بعده بقليل سقطت قواعد الاسماعيليين القوية بالقرب من عرجان ولم نعد نسمع الكثير عن تلك القواعد في منطقة خوزستان وفارس .

ولكن المركز الرئيسي للقوة الاسماعيلية لم يكن في واحد من هذه الأمكنة بل كان في الشمال ، في قلاع رودبار وغير دكوه وبخاصة قلعة ألموت العظيمة مقر حسن الصباح . وفي عام ١١٠٧ – ٨ أرسل السلطان حملة

عسكرية إلى رودبار تحت قيادة وزيره أحمد بن نظام الملك وقد كان للوزير أسبابه القوية لكراهية الاسماعيليين فان أباه الوزير الشهيد نظام الملك كان أول ضحاياهم البارزين كما أن أخاه فخر الملك سقط تحت خنجر أحد الحشاشين في نيسابور في العام السابق .

وقد أحرزت الحملة بعض النجاح وأحدثت متاعب كبيرة للاسماعيليين ولكنها فشلت في تحقيق هدفها الرئيسي وهو الاستيلاء على ألموت أو تدميرها . يقول المؤرخ الجويني « انه (أحمد بن نظام الملك) حاصر ألموت واوستفاند Usta Vand التي تجاورها على ضفاف نهر أنديج Andij وشنوا الحرب بعض الوقت ودمروا المحاصيل ، ولما لم يستطيعوا تحقيق أكثر من ذلك انسحب الجيش من رودبار . وفي القلاع كانت هناك مجاعة كبيرة وعاش الناس على أكل الحشائش ولهذا السبب فقد نقلوا زوجاتهم وأبناءهم إلى أماكن أخرى وأرسل (حسن الصباح) أيضاً زوجته وبناته إلى غير دكوه » .

ولم يكتف السلطان تابار بإرسال قواته النظامية ضد القواعد الاسماعيلية وانما حاول أيضاً أن يثير جيران الاسماعيليين ضدهم وأقنع أحد الحكام المحليين في جيلان بأن ينضم إلى الهجوم ولكن بدون جدوى فقد سحب الحاكم المحلي فيما بعد تأييده زاعماً أن غطرسة السلطان قد

آذته ويصور الجويني حيرة الحكام المحليين في الديلم بين جيرانهم المفزعين القريبين من ناحية وبين أسيادهم الأقوياء البعيدين تصويراً حياً فيقول « حول هذه المسألة كان الحكام المحليون القريبون والبعيدون معرضين للخطر سواء من أصدقائهم أو أعدائهم وكانوا معرضين للوقوع في دوامة الخراب فقد كانوا بين شقي الرحى سواء من أصدقائهم وهم ملوك الاسلام وفي امكانهم أن يخضعوهم ويدمروهم فيكونون بذلك قد خسروا الدنيا والآخرة أو من أعدائهم الاسماعيليين خوفاً من خداعهم وخيانتهم ولذا كانوا يلوذون بكهف الـدفاع والاحتياط ورغم ذلك فقد قتل معظمهم » .

لقد اتضح أن الاستيلاء على « ألموت » بالهجوم المباشر مستحيل ، ولذا فقد حاول السلطان طريقة أخرى هي حرب الاستنزاف التي كان يرجو عن طريقها أن يضعف الاسماعيليين إلى حد لا يستطيعون معه الصمود للهجوم . يقول الجويني « لثماني سنوات متوالية كانت القوات تأتي إلى رودبار وتدمر المحاصيل ويشترك الجانبان في القتـال ، وعندما أصبح معروفاً أن حسن ورجاله لم تعد لديهم قوة أو طعام عين السلطان محمد (تابار) في بداية عام ٥١١ هـ (١١١٧ — ١٨ م) الأتابك نوشتجين شيرجير قائداً للقوات وأمره بمحاصرة القلاع من الآن فصاعداً ، وفي غرة صفر (٤ يونيو ١١١٧) حاصر العسكر لامناسار ،

وفي ١١ ربيع أول (١٣ يوليو) حاصروا « ألموت » ، وأقاموا المجانيق وحاصروا ببسالة وما أن هلّ شهر ذو الحجة من تلك السنة (مارس — أبريل ١١١٨) حتى كانوا قد أوشكوا على الاستيلاء على القلاع وتخليص البشرية من كيدهم ولكن وصلت الأنباء بوفاة السلطان محمد في أصفهان فتفرق الجند وتركوا الملاحدة أحياء فأخذوا إلى قلاعهم كل المؤن والأسلحة ومعدات الحرب التي خلفها جيش السلطان وراءه » .

كان انسحاب جيش شيرجير وهو على وشك الانتصار سبباً لخيبة الأمل الشديدة ، وهناك ما يدل على أن أنباء وفاة السلطان لم تكن وحدها السبب في هذا الانسحاب المتعجل ، اذ ثمة دور شرير لعبه رجل يدعى قوام الدين نصير بن علي الدرجازيني ، وكان وزيراً في خدمة السلاجقة ويقال انه كان اسماعيلياً في السر . هذا الرجل كان له تأثير كبير على السلطان الجديد محمود ابن السلطان المتوفى محمد وخليفته في أصفهان ، فقد لعب الدرجازيني دوراً له أهمية في البلاط السلطاني ويقال انه هو الذي دبر انسحاب جيش شيرجير من « ألموت » وبذلك أنقذ الاسماعيليين في آخر لحظة ، كما أنه سمم ذهن السلطان الجديد محمود ضد شيرجير فألقى به في السجن وقتله ، وقد اتهم الدرجازيني بعد ذلك بالتآمر في عدة اغتيالات أخرى مما يجعل أصابع الشك تتجه إلى أنه لعب دوراً في وفاة السلطان محمد المفاجئة .

ولكن الحشاشين حتى أثناء حصار شيرجير لقلعتهم لم يكونوا خاملين ، ففي عام ١١٠٨ — ٩ م قتلوا عبيد الله الخطيب . قاضي أصفهان وكان خصماً لدوداً لهم ، ويقال ان هذا القاضي كان يشعر بما يتعرض له من الخطر فكان يرتدي دروعاً واقية تحت ملابسه كما جعل لنفسه حارساً خاصاً يتبعه أينما ذهب واتخذ كافة الاحتياطات الممكنة الأخرى ، ولكن كل ذلك لم تكن له جدوى فأثناء أدائه صلاة الجمعة بمسجد همدان استطاع أحد الفدائيين من الحشاشين أن ينفذ بينه وبين حارسه ويرديه قتيلاً . وفي نفس السنة أغتيل قاضي نيسابور أثناء الاحتفال بنهاية شهر رمضان ، وفي بغداد هاجم أحد الحشاشين أحمد بن نظام الملك انتقاماً منه بدون شك للحملة التي قادها ضد « ألموت » وأصيب الوزير ولكنه نجا ، وكان هناك ضحايا آخرون كذلك منهم رجال دين سنيون وقضاة وشخصيات كبيرة مثل الأمير الكردي أحمديل أخ السلطان في الرضاع .

أعقبت وفاة السلطان محمود في عام ١١١٨ مرحلة أخرى من المنازعات الداخلية بين السلاجقة استطاع الحشاشون استغلالها ليجددوا قواهم بعد الضربات التي منوا بها وأن يستعيدوا مركزهم في كوهستان والشمال على السواء ، وفي تلك الفترة تمكن سانجار — الذي كان يسيطر على الأقاليم الشرقية في عهد أخويه بركيارق ومحمد تابار — أن يصنع لنفسه أولوية غير وطيدة بين الحكام السلاجقة ، وفي هذه

الفترة بدأت تتغير طبيعة العلاقات بين الاسماعيليين والدول السنية وتميل إلى المهادنة والتسامح ، والواقع أن الحركة الاسماعيلية لم تنبذ أهدافها النهائية ولكن الاسماعيليين خففوا من حملة التخريب والارهاب التي يقومون بها في البلاد الرئيسية وركزوا بدلاً من ذلك على حماية الأقاليم التي يسيطرون عليها وتدعيمها بل وحصلوا على قدر من الاعتراف السياسي بهم من الولايات والدول السنية ، وعندما عاد التمزق يعمل في جنبات الشرق الأوسط بعد مرحلة الانتصارات السلجوقية العظيمة المؤقتة ظهرت الولايات والامارات الاسماعيلية في شكل دول مستقلة صغيرة بل وشاركت في التحالفات والمنافسات المحلية .

يحكي المؤرخ الجويني قصة تفسر تسامح سانجار ازاء استقلال الاسماعيليين فيقول : « كان حسن الصباح يرسل السفارات في طلب السلام فلا يجيبه أحد ، ولذا فانه بشتى طرق الخداع والاغراء استطاع أن يرشي بعض رجال البلاط للدفاع عنه أمام السلطان ، وحرض أحد طواشي السلطان بمبلغ كبير من المال ، وأرسل اليه خنجراً قام الطواشي برشقه في الأرض إلى جانب سرير السلطان بعد أن أوى ذات ليلة إلى فراشه وهو مخمور ، وعندما استفاق السلطان في الصباح ورأى الخنجر ملأه الذعر ولكنه أمر بابقاء الأمر سراً لأنه لم يكن يعرف من يتهمه بذلك ، وبعد ذلك أرسل له حسن الصباح رسولاً يحمل الرسالة التالية : « ألا ترى

انني أردت بالسلطان خيرا اذ أن هذا الخنجر الذي غرس في الأرض الصلبة لم يغرس في صدره الطري ؟ » فخاف السلطان ومنذ ذلك الحين مال للسلام معهم ، وباختصار امتنع السلطان بسبب هذه الحيلة عن مهاجمتهم مما أدى إلى ازدهار أحوالهم في عهده ، فسمح لهم بمنحة مقدارها ٣٠٠٠ دينار من الضرائب التي تحصل عن الأراضي التابعة لهم في اقليم قميش Qumish كما سمح لهم بفرض رسم صغير على المسافرين الذين يمرون تحت قلعة غيردكوة وهي عادة مستمرة حتى هذا اليوم ، وقد اطلعت على عدة فرمانات للسلطان في خزانة كتبهم وفيها يخطب السلطان ودهم ويثني عليهم ومن ذلك استطعت أن أستنتج إلى أي مدى كان السلطان يتغاضى عن أفعالهم ويرغب في أن يكون على علاقة سلمية معهم ، وباختصار فانهم تمتعوا خلال حكمه بالهدوء والسلام » .

العلاقات مع القاهرة

كان للنزاريين في « ألموت » عدو آخر إلى جانب الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة ، ففي القاهرة كان الخليفة الفاطمي هو عدوهم الآخر وبين أنصاره ونزاريي فارس ذلك العداء التقليدي الخاص الذي يقوم بين الفروع المتنافسة في نفس العقيدة ، وفي عام ١١٢١ اغتيل في القاهرة

الوزير المهيب وقائد الجيوش الأفضل وانتشرت الشائعات تتهم الحشاشين بأنهم وراء الجريمة بدون شك ، ولكن المؤرخ الدمشقي المعاصر ابن القلانسي يصف هذا الاتهام بأنه « تظاهر فارغ وافتراء واه » ويقول ان السبب الحقيقي لاغتياله وجود سخيمة بينه والخليفة الفاطمي « الأمير » الذي خلف المستعلي في عام ١١٠١ فقد كان الخليفة « الأمير » ينفر من وصاية وزيره القوي ولذا فقد أعرب عن ابتهاجه علناً عند وفاته . أما الرواية الاسماعيلية التي يقصها رشيد الدين وكاشاني فتنسب اغتيال الأفضل إلى « ثلاثة رفاق من حلب » وعندما جاءت الأنباء بوفاته « أمر سيدنا باقامة الاحتفالات سبعة أيام بلياليها وكرم الرفاق واحتفى بهم » .

ويبدو ان ازاحة الأفضل التي أحدثت مثل هذا الحبور في قلعة « ألموت » وقصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة على السواء كانت مناسبة طيبة لمحاولة التقارب بين الفرعين الاسماعيليين ، ففي عام ١١٢٢ م عقد اجتماع عام في القاهرة خصص لابراز حق المستعلي ضد نزار ، وفي نفس الوقت تقريباً دافع الخليفة عن شرعيته في الخلافة في رسالة رعوية موجهة بصفة أساسية إلى الأخوة المنشقين ، وأمر الوزير الجديد في القاهرة ويدعى المأمون كاتم أسرار الدولة أن يكتب رسالة مطولة إلى حسن الصباح يحثه فيها على العودة إلى الحق ونبذ اعتقاده في إمامة نزار ، وكان الوزير

المأمون يعبر بذلك عن رغبات الخليفة ودعاته أكثر مما يعبر عن آرائه الشخصية إذ انه كان اثني عشرياً وليس اسماعيلياً أصلاً ، وبالطبع لم تكن لدى الوزير أية نية في دفع تعامله مع حسن الصباح أبعد من ذلك . ولم تلبث أن اكتشفت مؤامرة موجهة وممولة من « ألموت » تستهدف اغتيال الأمير والمأمون وأعقب ذلك اتخاذ تدابير أمن مشددة عنا الحدود المصرية وفي داخل القاهرة لمنع تسلل عملاء الحشاشين .

يقول المؤرخ المصري ابن ميسر « عندما جاء المأمون إلى الحكم أبلغوه بأن ابن الصباح (حسن الصباح) والباطنية ابتهجوا لوفاة الأفضل وامتد أملهم إلى اغتيال الأمير والمأمون نفسه ، وانهم أرسلوا بذلك رسائل إلى رفاقهم المقيمين في القاهرة كما بعثوا اليهم مالاً يوزعونه بين أنفسهم ، فجاء المأمون إلى والي عسقلان وعزله وعين آخر محله وأمر الوالي الجديد بأن يستعرض جميع أصحاب المناصب في عسقلان والتفتيش عليهم وأن يبعد كل من ليس معروفاً للسكان المحليين وأمره بأن يفحص بدقة كل التجار وغيرهم من الأشخاص الذين يصلون إلى المدينة ولا يصدق ما يقولونه بأنفسهم عن أسمائهم وألقابهم وبلادهم .. بل يستجوب كل واحد منهم عن زملائه الآخرين ، وأن يتعامل معهم كلاً على انفراد وأن يعطي كل ذلك أهمية بالغة ، واذا جاء أحد ليس من عادته المجيء فعليه أن يستوقفه عند الحدود ويفحص أحواله والأمتعة التي يحملها

وعليه أن يفعل مثل ذلك مع الجمالين وأن يمنعهم من الدخول إلى البلاد ما لم يكونوا معروفين بأنهم زوار منتظمون ، وعليه ألا يسمح لأية قافلة بالتقدم إلا بعد أن يرسل تقريراً مكتوباً إلى الديوان ذاكراً فيه عدد التجار وأسماءهم وأسماء خدمهم وأسماء الجمالين وقائمة بأمتعتهم حتى يجري التحقق من ذلك في مدينة بلبيس عند وصولهم إلى بوابتها ، وفي نفس الوقت عليه أن يكرم التجار ويمتنع عن مضايقتهم . ثم أصدر المأمون أوامره إلى ولاة القاهرة القديمة والجديدة بأن يسجلوا أسماء جميع السكان شارعاً شارعاً ، وحياً حياً ، وعدم السماح لأي شخص بالانتقال من بيت إلى آخر بدون الحصول على موافقته الصريحة ، وعندما عرف كل شيء عن السجلات وأسماء الناس في القاهرة القديمة والجديدة وألقابهم وظروفهم وطريقة معيشتهم وأي غرباء يترددون عليهم بعث بعد ذلك نسوة يغشين المنازل للتلصص على أخبار الناس والابلاغ عن أي مشكوك فيه حتى لم يعد هناك شيء يخص أي واحد من سكان القاهرة القديمة والجديدة مخفياً عنه .. وفي ذات يوم أرسل عدداً من الجنود ووزعهم بين الأحياء وأمرهم بالقبض على من يأمر باعتقاله » ا . هـ .

وهكذا أمكن اعتقال الكثيرين من عملاء الاسماعيلية وكان من بينهم معلم أبناء السلطان ! وعثر لدى بعض المعتقلين على أموال أرسلها اليهم حسن الصباح ليستخدموها

في أغراضه بمصر ، ويقول المؤرخ ابن ميسر أن شرطة الوزير وجواسيسه بلغوا من النجاح أنه منذ لحظة خروج أحد الحشاشين من « ألموت » كانت ترصد كل حركاته وتبلغ إلى القاهرة ، ويبدو أن خطاب العفو الذي كان يدعو زعماء النزاريين بالاسم إلى العودة إلى الحظيرة الفاطمية دون خوف من عقاب لم يرسل ، وتدهورت سريعاً العلاقات بين القاهرة وألموت .

وفاة حسن الصباح

في مايو ١١٢٤ مرض حسن الصباح وشعر أن نهايته تقترب فأعد العدة لمن يخلفه ووقع اختياره على برزجميد الذي ظل عشرين عاماً قائداً لقلعة لاماسار ليكون خليفة له . يقول المؤرخ الجويني « بعث إلى لاماسار لاحضار برزجميد وعينه خليفة له وجعل ديدار أبو علي الاردستاني (يجلس) على يمينه وكلفه بشئون الدعوة ، وحسن ابن آدم القسراني (يجلس) على شماله ليتولى شئون الادارة ، وكيا باجعفر أمامه قائداً للقوات ، وكلفهم بالعمل أربعتهم في اتفاق وتعاون إلى أن يظهر الإمام المستتر ويتولى شئون المملكة ، وفي ليلة الأربعاء ٦ ربيع ثان عام ٥١٨ (٢٣ مايو ١١٢٤) انطلقت روحه عائدة إلى نار الله وجحيمه » .

كانت تلك نهاية شخصية عظيمة ، ويصف المؤرخ

العربي ابن الأثير الذي لم يكن صديقاً له بأي حال حسن الصباح بأنه كان « حاد الذهن ، ثاقب الفكر ، قديراً ، عليماً بالهندسة والحساب والفلك والسحر وأشياء أخرى » أما الترجمة الاسماعيلية لحياته والتي اقتبس منها المؤرخون الفرس أمثال الجويني ورشيد الدين وكاشاني فانها تركز على زهده وتقشفه فنقرأ فيها « طوال ٣٥ عاماً عاشها في ألموت لم يجرؤ أحد على شرب الخمر علناً أو وضعه في الجرار » ولم تكن شدته على خصومه فحسب وانما على أقرب أقربائه كذلك . فقد أعدم أحد أبنائه لشربه خمراً ، وأعدم ابناً آخر بتهمة ثبت بعد ذلك أنه بريء منها وأنها من تدبير الداعي حسين القئيني ، وقد اعتاد أن يشير إلى اعدامه لابنيه ليروع كل من تسول له نفسه الاعتقاد بأن حسن الصباح انما يقول ما لا يفعل .

كان حسن الصباح مفكراً وكاتباً كما كان رجل عمل وقد حفظ له المؤلفون السنيون نصين من تأليفه أحدهما شذرات من قصة حياته بقلمه والآخر مختصر لمقال في اللاهوت ، وكان الاسماعيليون المتأخرون يشيرون اليه باحترام باعتباره أول محرك « للدعوة الجديدة » أي النظرية الاسماعيلية المعدلة التي برزت بعد الانشقاق عن القاهرة والتي حافظ عليها وطورها الاسماعيليون النزاريون ونجد في الكتابات النزارية المتأخرة عدداً من الفقرات التي ربما كانت مقتبسة عن حسن الصباح أو لعلها تلخيصات لبعض أقواله ،

وهو لم يزعم قط أنه الإمام وانما ممثل للإمام فحسب ، وانه بعد اختفاء الإمام أصبح هو الحجة أي البرهان أو نبع المعرفة للامام المخبوء في عصره والرابطة الحية بين خط الأئمة الظاهرين في الماضي وفي المستقبل وزعيم الدعوة ، والنظرية الاسماعيلية شمولية بصفة أساسية ، والمؤمن فيها ليس له حق الاختيار ولكن ينبغي عليه أن يتبع « التعليم » والإمام هو المصدر النهائي للارشاد أما المصدر المباشر فهو ممثله المعتمد ، والناس لا يختارون امامهم كما يقول بذلك أهل السنة ولا يصدرون الأحكام في صحة الشئون المتعلقة بالدين والشريعة ، فالله هو الذي يعين الإمام ، والإمام هو مستودع الحقيقة وهو فقط الذي يشرع بالعقل والنقل ، والإمام الاسماعيلي فحسب بطبيعة منصبه وتعاليمه هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك ، ولذا هو وحده الإمام الحق ، ومنافسوه مغتصبون وأتباعهم خطاة وتعاليمهم مزيفة .

هذه النظرية بتركيزها على الولاء والطاعة ورفضها للعالم كما هو أصبحت سلاحاً ماضياً في يد المعارضة الثورية السرية بعد أن تكشفت المطاعن المؤلمة في الخلافة الفاطمية ، وهكذا اصبح الانشقاق عن القاهرة ونقل الولاء إلى إمام غامض مخبوء مطلقاً لعقال قوي التأجج والعاطفة لدى الاسماعيليين ، وكانت مساهمة حسن الصباح أنه أطلق عقال هذه القوى وقام بتوجيهها .

الفصل الرابع

الدعوة في فارس

كانت وفاة السلطان السلجوقي تعني عادة التوقف العاجل عن كل عمل ايجابي ، واستراحة في الصراع ، وحالة من عدم التيقن ، وخلال هذه الفترة يحاول أعداء الدولة في الداخل والخارج أن يجدوا الفرصة لتحقيق مآربهم . لا بد أن الكثيرين ظنوا بعد وفاة حسن الصباح أن الامارة الاسماعيلية التي أنشأها سوف تركن إلى نفس هذا النموذج المعتاد للحكومات الاسلامية في تلك الفترة . وفي عام ١١٢٦ أي بعد مرور سنتين على خلافة بزرجميد شن السلطان سانجار هجوماً على الاسماعيليين وضع هذا السؤال موضع الاختبار ، والواقع أنه منذ الحملة على طبس Tabas في عام ١١٠٣ لم يتخذ سانجار أي اجراء ضد الاسماعيليين بل ربما يكون قد دخل في نوع من الاتفاق معهم ، ولا نعرف سبباً مباشراً لهذا الهجوم ضد الاسماعيليين في عام ١١٢٦ ، ولكن يبدو أن شعور السلطان بالثقة المتزايدة بقوته وظنه

بضعف الاسماعيليين تحت حاكمهم الجديد يشكلان تفسيراً كافياً لقراره عدم المزيد من التسامح ازاء هذه القوة الخطرة المستقلة على حدوده بل وفي داخل حدود أمبراطوريته وقد لعب دوراً هاماً في هذا الشأن معين الدين كاشي وزير السلطان وكان من المتحمسين لاتخاذ اجراء عنيف ضد الخطر الاسماعيلي .

ويبدو أن الهجوم الأول قد وقع في الشرق ، ويتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير فيقول « في هذا العام أعطى الوزير أوامره بالحرب ضد الاسماعيليين لقتلهم حيث تقفوا وهزيمتهم ونهب حوائجهم واسترقاق نسائهم وأرسل جيشاً ضد توراي ثيث Turaythith (في كوهستان) التي كانت في أيديهم وضد بيهق Bayhaq في اقليم نيسابور .. وأرسل قواته ضد كل جزء من ممتلكاتهم بعد أن زودها بالأوامر بأن تقتل كل من تجده من الاسماعيليين » وهذا يعني فيما يبدو حرمان الاسماعيليين من الحقوق التي يتمتع بها الأسرى والمدنيون طبقا للشرع في حالة الحرب بين المسلمين ، ومعاملتهم كالكفار سواء بسواء أي أنه يجوز قتلهم واسترقاقهم .

ويسجل المؤرخ العربي ابن الأثير انتصارين لقوات السلطان على أعدائهم الاسماعيليين ، الأول هو الانتصار الذي أحرزته هذه القوات ضد قرية تارز Tarz الاسماعيلية

بالقرب من بيهق حيث أعمل جند السلطان السيف في سكان القرية الاسماعيلية وانتحر زعيمهم بأن ألقى بنفسه من فوق منارة المسجد ، والثاني هو الانتصار الذي أحرزته الغارة على توراي ثيث حيث قام الجند « بقتل الكثيرين وأخذ غنائم جمة ثم عادوا » ومن الواضح أن نتائج الحملة كانت محدودة وغير حاسمة .

أما في الشمال فقد كانت نتائج الهجوم أكثر سوءاً اذ فشلت حملة ضد رودبار قادها ابن أخ شيرجير وردت على أعقابها وغنم منها الاسماعيليون غنائم كثيرة ، كما فشلت حملة أخرى قامت بمساعدة محلية وأسر أحد قوادها .

ولم يتأخر انتقام الاسماعيليين طويلاً ، اذ تمكن اثنان من الفدائيين من شق طريقهم إلى قصر الوزير متخفين في زي سائسي الخيول واستطاعا بمهارتهما واظهارهما الطاعة المطلقة أن يكسبا ثقة الوزير ثم حانت لهما الفرصة عندما استدعاهما الوزير إلى مجلسه كي يختارا حصانين عربيين يقدمهما هدية للسلطان بمناسبة السنة الفارسية الجديدة فقتلاه طعناً بالخناجر في ١٦ مارس ١١٢٧ ويقول عنه ابن الأثير « انه فعل أفعالاً حسنة وأظهر عزماً صادقاً في الحرب ضدهم وقد منحه الله الشهادة » ويذكر نفس المؤلف أن السلطان سنجار انتقم لمقتل وزيره بأن شن حملة انتقامية ضد « ألموت » أهلك خلالها أكثر من عشرة آلاف اسماعيلي ،

ولكننا لا نجد ذكراً لهذه الحملة في المصادر الاسماعيلية أو في أي مصادر أخرى ومن المحتمل أن تكون من نسج الاختلاق .

وقد خرج الاسماعيليون من هذه الحروب أكثر قوة مما كانوا قبلها ، ففي رودبار دعموا قوتهم ببناء قلعة قوية جديدة أسموها ميمون ديز Maymundiz ووسعوا أملاكهم بالاستيلاء على طلقان Talqan . وفي الشرق أغارت قوات اسماعيلية من كوهستان على الأرجح ضد سيستان Sistan في عام ١١٢٩ ، وفي نفس العام وجد السلطان السلجوقي محمد المقيم في أصفهان أن من الحكمة أن يحاول عقد صلح معهم ، فدعا ممثلاً عن « ألموت » للمجيء إلى أصفهان لبحث شروط السلام ، ولكن لسوء الحظ أحاطت الجماهير في أصفهان بالمبعوث الاسماعيلي وأحد زملائه بعد خروجهما من لدى السلطان وقتلوهما ، وقد اعتذر السلطان بشدة عن الحادث وحاول نفي مسئوليته عنه ولكنه رفض طلب بزرجميد معاقبة القتلة ، فرد الاسماعيليون بمهاجمة قزوين حيث تقول سجلاتهم انهم قتلوا أربعمائة شخص وغنموا غنائم كثيرة ، وحاول أهل قزوين أن يحاربوا الاسماعيليين ولكن كما يقول المؤرخ الاسماعيلي رشيد الدين لاذوا بالفرار عندما قتل الرفاق أميراً تركياً ، كما فشل هجوم على « ألموت » قام به السلطان محمود شخصياً في ذاك الوقت في إحراز أية نتيجة .

في عام ١١٣١ توفي السلطان محمود وتلى ذلك نشوب النزاع المعتاد بين اخوته وابنه ، وقد استطاع بعض الأمراء أن يورطوا الخليفة العباسي في بغداد « المسترشد » في تحالف ضد السلطان مسعود أحد المتنازعين على الحكم في إيران ، وفي عام ١١٣٩ وقع الخليفة ووزيره وعدد من كبار رجاله في أسر السلطان مسعود بالقرب من همدان ، وساق السلطان مسعود أسيره الكبير إلى مراغة Maragha حيث عامله كما يقال باحترام ، ولكن ذلك لم يمنع جماعة كبيرة من الاسماعيليين من اقتحام المعسكر واغتياله ، وهكذا تعرض خليفة عباسي — الرمز الرئيسي للعالم السني الإسلامي — لخناجر الحشاشين عندما سنحت الفرصة ، ولكن الشائعات اتهمت السلطان مسعود بالمشاركة في الجريمة أو الاهمال المتعمد بل واتهمت سانجار الذي كان لا يزال الرئيس الاسمي للحكام السلاجقة بتدبير الجريمة ، أما المؤرخ الجويني فقد حاول قصارى جهده تبرئتهما من هذه الاتهامات فكتب يقول « ان بعض قصار النظر وكارهي بيت سانجار اتهماهما بالمسئولية عن هذا الفعل ولكن كذب المنجمون ورب الكعبة ، فان طيبة شخصية السلطان سانجار ونقاء سجيته كما يشهد بها أتباعه وتدعيمه للمذهب الحنفي والشريعة واحترامه لكل ما يتعلق بالخليفة وكذلك رحمته وعطفه ، كل ذلك برهان ساطع واضح على زيف وكذب اتهامات توجه إلى مثل هذا الشخص » .

أما في « ألموت » فقد استقبلت أنباء موت الخليفة العباسي بابتهاج فاحتفلوا بها سبعة أيام بلياليها وأكرموا الرفاق الذين ارتكبوا هذه الفعلة وسبوا ولعنوا اسم العباسيين وشعاراتهم .

وإذا كانت قائمة اغتيالات الاسماعيليين في فارس أثناء حكم بزرجميد قصيرة نسبياً إلا أنها تضم عدداً من الشخصيات الهامة الكبيرة فإلى جانب الخليفة المسترشد تشمل قائمة ضحاياهم والي أصفهان وحاكم مراغة ووالي تبريز ومفتي قزوين .

لم يكن التواني في معدل الاغتيالات هو التغيير الوحيد الذي طرأ على الامارة الاسماعيلية بعد عهد حسن الصباح ، وانما كان هناك تغيير آخر يتمثل في هدوء طبيعتها الثورية ، فقد كان بزرجميد خلافاً لحسن الصباح من مواطني رودبار المحليين ولم يكن أجنبياً عن المنطقة ولم يشارك في تجربة حسن الصباح كداعية سري وانما أمضى حياته العملية كحاكم اداري ، وقد قبله غير الاسماعيليين بصفته حاكماً اقليمياً وهناك حادثة توضح ذلك تماماً وهي هرب الأمير يارانكوش وأتباعه ولجوئهم إلى « ألموت » مع أن هذا الأمير كان من أقدم وأشد أعداء الاسماعيليين وكان هربه من وجه شاه خورازم (خورازمشاه) الذي طلب من الاسماعيليين تسليمه اليه قائلاً انه أي الشاه صديق للاسماعيليين في حين

أن يارانكوش عدو لهم ، ولكن بزرجميد رفض تسليمه قائلاً « انني لا أستطيع أن أعده عدواً من يضع نفسه تحت حمايتي » والواقع أن التأريخ الاسماعيلي لفترة حكم بزرجميد كثيراً ما يفخر بقص مثل هذه الأفعال التي تدل على الشهامة أو بمعنى آخر تدل على دور الحاكم الشهم بأكثر مما تدل على دور الزعيم الثوري .

وقد نفذ الحاكم الاسماعيلي هذا الدور إلى حد التسامح في عقيدته نفسها ، اذ يحكي مؤرخ اسماعيلي انه في عام ١١٣١ ظهر زعيم شيعي يدعى أبو هشام في الديلم وبعث رسائل يدعو فيها لنفسه إلى كل المناطق المجاورة حتى خراسان « فأرسل بزرجميد رسالة اليه ينصحه ويلفت نظره إلى البراهين الالهية » فأجاب أبو هشام قائلاً « ان ما تقوله كفر وضلال وإذا أتيت لي وتناقشنا سوف يتضح فساد معتقداتك » فأرسل الاسماعيليون جيشاً اليه فهزمه» « وأمسكوا بأبي هشام وأقاموا عليه حججاً كثيرة وأحرقوه » .

وأخيراً انتهى حكم بزرجميد الطويل بوفاته في ٩ فبراير ١١٣٨ ، ويسجل الجويني بأسلوبه الأنيق الحدث قائلاً « ظل بزرجميد مستوياً على عرش الجهل حاكماً بالخطأ حتى ٢٦ جمادي الأول عام ٥٣٢ (٩ فبراير ١١٣٨) عندما سحق تحت كعب الهلاك وحمى الجحيم بادام جثته » .

• • •

حكم محمد بن بزرجميد

ومما له دلالة كذلك على تغير طبيعة الزعامة الاسماعيلية في هذه الفترة أنه بعد وفاة بزرجميد خلفه ابنه محمد بدون متاعب وكان قد عينه وريثاً له قبل وفاته بثلاثة أيام فقط . ويقول المؤرخ الاسماعيلي أنه عندما مات بزرجميد « ابتهج الأعداء وأظهروا الوقاحة » ، ولكنهم لم يلبثوا أن تبينوا سراعاً أن آمالهم لم تكن في محلها .

كان أول ضحايا الحكم الجديد عباسي آخر هو الخليفة السابق « الرشيد » ابن وخليفة « المسترشد » الذي اغتاله الاسماعيليون من قبل ، وكان الرشيد مثل أبيه من قبل قد تورط في منازعات السلاجقة وخلعته هيئة من القضاة والفقهاء جمعها السلطان ، فغادر الرشيد العراق إلى فارس ليلحق بحلفائه وبينما كان مقيماً في أصفهان للإبلال من مرض أصابه هاجمه مغتالوه يوم ٥ أو ٦ يونيو ١١٣٨ وكان قتلته خرسانيون يعملون في خدمته ، وابتهجت « ألموت » مرة أخرى بوفاة الخليفة . واعتبر ذلك أول « نصر » للحكم الجديد .

وتضم قائمة الشرف في حكم محمد ١٤ حالة اغتيال فإلى جانب الخليفة السابق الرشيد يعد أبرز ضحايا هذه الفترة السلطان السلجوقي داود الذي اغتاله أربعة فدائيين سوريين

في تبريز عام ١١٤٣ ، ويقال ان القتلة أرسلهم زنكي حاكم الموصل الذي كان يبسط حكمه إلى سوريا وقد خشي أن يكون داود يسعى ليحل محله وهذا شيء غريب بالتأكيد أن يحدث اغتيال في شمال غربي فارس بتدبير في سوريا وليس من قلعة « ألموت » القريبة ، ومن الضحايا الآخرين أحد الأمراء في بلاط سانجار وأحد معاونيه وأمير من بيت خورازمشاه وحكام محليون في جورجيا (؟) ومازندران ووزير وقضاة كوهستان وتفليس وهمدان كانوا قد سمحوا أو أفتوا بقتل الاسماعيليين .

كانت هذه حصيلة هزيلة إذا ما قورنت بأيام حسن الصباح العظيمة وتعكس القلق المتزايد لدى الاسماعيليين ازاء المشكلات المحلية والاقليمية ، وتهم سجلات الاسماعيليين في هذه الفترة بهذه الحوادث الصغيرة بينما لا تكاد تذكر شيئاً عن الشئون الكبرى التي كانت تحدث في الأمبراطورية حينذاك ، فبدلاً من ذلك تبرز هذه السجلات المنازعات المحلية مع الحكام المجاورين مقرونة بقوائم عن الأبقار والماشية والحمير وغيرها من الغنائم ، وقام الاسماعيليون بسلسلة من الغارات والغارات المضادة بين رودبار وقزوين ، وفي عام ١١٤٣ صدوا هجوماً قام به السلطان محمد ضد قلعة « ألموت » واستطاعوا الحصول على — أو بناء — بعض القلاع الجديدة في بعض أقاليم قزوين بل وقيل انهم مدوا نشاطهم إلى منطقتين جديدتين هما

جورجيا حيث أغاروا عليها ونشروا فيها دعايتهم ، وما يسمى اليوم بأفغانستان حيث طلب حاكمها – لأسباب خاصة به – أن يرسلوا اليه بعثة من الدعاة الاسماعيليين ، ولكن عند وفاته في ١١٦١ قام خليفته بقتل الدعاة والذين حولوهم إلى عقيدتهم على السواء .

كان أكبر عدوين للاسماعيليين في ذلك « قت هما حاكم مازندران وحاكم الري من قبل السلاجقه ويدعى عبـاس ، ويقال ان الاثنين بنيا أبراجاً من جماجـم الاسماعيليين ، وقد دبر عباس مذبحة للاسماعيليين في المدينة وهاجم الأقاليم الاسماعيلية ، وفي عـام ١١٤٦ و ١١٤٧ اغتيل عباس بواسطة السلطان مسعود بينما كان في زيارة لبغداد ، ويقول مؤرخ اسماعيلي ان رأسه أرسلت « باشارة من السلطان سانجار » إلى خرسان وهناك دلائل تفيد أن سانجار والاسماعيليين كانوا في ذلك الوقت في جانب واحد بالرغم من أنهم أحياناً كانوا يتنازعون مثلما حدث عندما أيد سانجار محاولة لاقامة العقيدة السنية في أحد مراكز الاسماعيليين في كوهستان ، وهناك كما في كل مكان كانت المنازعات محلية واقليمية ، ومما يستحق الانتباه أن الزعامة في القلاع والامارات الاسماعيلية الأخرى بالاضافة إلى ألموت كانت تنتقل من الأب إلى الابن ، وغالباً ما تكون المنازعات الناشبة منازعات أسرية .

وبدا كما لو أن الجذوة قد انطفأت لدى الاسماعيليين

فقد وصل الموقف بين الامارات الاسماعيلية والسلطنات السنية إلى تجمد فعلي وقبول ضمني متبادل بين الفريقين ، أما الكفاح العظيم للقضاء على النظام القديم وانشاء عصر جديد باسم الإمام الاسماعيلي المستور فقد خبا وتحول إلى مجرد مناوشات على الحدود واغارات للاستيلاء على الماشية ، أما القلاع المنيعة التي قصد بها في الأصل أن تكون رءوس رماح لهجوم عظيم على الأمبراطورية السنية فقد تحولت إلى مراكز لأسر اسماعيلية محلية من طراز ليس بغير الشائع في التاريخ الإسلامي ، وكان لدى الاسماعيليين مصانعهم الخاصة بسك العملة وكانوا يسكون عملتهم الخاصة بهم ، حقاً كان الفدائيون ما زالوا يزاولون الاغتيال ولكن ذلك على أية حال لم يكن بالمسلك الغريب أو غير المألوف بالنسبة لهم ، ولم يكن كافياً لاذكاء آمال أبناء الطائفة .

وكان بينهم من لا يزالون يحنون إلى أيام حسن الصباح العظيمة وإلى التفاني والمغامرة اللذين ميزا كفاحه المبكر والعقيدة الدينية التي أذكتهما ، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في زعيم جديد هو حسن ابن سيد قلعة « ألموت » محمد وخليفته المنتظر ، وقد أبدى حسن اهتماماً كبيراً بشئون الدعوة منذ صباه المبكر . يقول مؤرخ اسماعيلي انه « عندما اقترب من سن الحلم أبدى رغبة في دراسة وبحث تعاليم حسن الصباح وآبائه (آباء حسن) وأصبح متفوقاً في عرض عقيدتهم وبسبب بلاغة كلماته استطاع أن يكسب الشطر

الأكبر من هؤلاء الناس ولما كان أبوه (محمد) يفتقر تماماً إلى هذا الفن فقد بدا ابنه كأستاذ كبير بالنسبة له مما دفع العامة إلى اتباعه وإذ لم يكونوا قد سمعوا بمثل أقواله من أبيه فقد بدأوا يعتقدون انه الامام الذي وعد به حسن الصباح وزاد ارتباط الناس به وسارعوا إلى اتباعه كزعيم لهم » .

ولكن محمداً لم يحب شيئاً من ذلك كله ، فقد كان محافظاً في عقيدته الاسماعيلية » وكان متشدداً في اتباع المبادىء التي أرساها أبوه وحسن (الصباح) فيما يتعلق بأسلوب الدعاية للإمام والاحترام الخارجي للفرائض الإسلامية واعتبر أن سلوك ابنه لا يتطابق مع هذه المبادىء ، ولذا فانه استنكره بشدة ودعا الناس وتحدث فيهم قائلاً : هذا الحسن ابني وأنا لست الإمام ولكني واحد من دعاته وكل من يستمع إلى هذه الأقوال ويعتقد فيها كافر وملحد » وعلى هذا الأساس عاقب بعض الذين اعتقدوا في امامة ابنه بكل وسائل التعذيب والايذاء ، ففي احدى الحالات أعدم ٢٥٠ شخصاً في « ألموت » ثم ربط جثثهم فوق ظهور ٢٥٠ شخصاً آخرين اتهموا بنفس التهمة وطرد هؤلاء من القلعة ، وبهذه الطريقة أثبطت هممهم ، وأخمدت حركتهم » وتحمل حسن هذه المضايقات انتظاراً لفرصته الملائمة واستطاع أن يبدد شكوك أبيه ، وعند وفاة محمد في عام ١١٦٢ خلفه بدون معارضة ، وكان حنيئذ في حوالى الخامسة والثلاثين من العمر .

حكم حسن بن محمد بن بزرجميد

كان حكم حسن في بداية الأمر خالياً من الأحداث الهامة لم يميزه سوى بعض التخفف من الأتباع الحازم للشريعة الذي كان سائداً من قبل في « ألموت » ، ولكنه فجأة بعد عامين ونصف العام من ولايته وفي منتصف شهر الصوم رمضان أعلن قيام « العهد الألفي السعيد » .

وقد حفظ لنا الأدب الاسماعيلي اللاحق ذكر ما حدث كما تسرب ذكره ببعض التعديل إلى السجلات الفارسية التي كتبت بعض سقوط « ألموت » وتتفق المصادر جميعاً على سرد قصة غريبة ، ففي اليوم السابع عشر من شهر رمضان من عام ٥٥٩ هـ (٨ أغسطس ١١٦٤) تحت صعود العذراء وعندما كانت الشمس في برج السرطان أمر حسن بإقامة منبر في فناء « ألموت » يواجه الغرب ترفرف على أركانه الأربعة رايات أربع كبيرة بيضاء وحمراء وصفـــراء وخضراء .. وجاء الناس من مختلف الجهات وكان قد استدعاهم من قبل إلى « ألموت » وتجمعوا في الفناء ، فالذين أقبلوا من الشرق لزموا الجانب الأيمن والذين جاءوا من الغرب وقفوا على الجانب الأيسر والذين جاءوا من الشمال ، من رودبار والديلم ، وقفوا في مواجهة المنبر ، ولما كان المنبر يواجه الغرب لذلك كانت ظهور المجتمعين نحو مكة ، وتقول نبذة اسماعيلية في وصف ما حدث « وبعد

قرابة الظهر نزل السيد حسن على ذكره السلام من القلعة مرتدياً ثوباً أبيض وعمامة بيضاء ، وتقدم نحو المنبر من الجانب الأيمن ، وارتقاه في خطى وئيدة ، وتوجه بالتحية ثلاث مرات الأولى إلى أهل الديلم ثم إلى الذين على اليمن ثم إلى الذين على اليسار ، وظل جالساً برهة ثم وقف مرة أخرى وهو ممسك بسيفه وتحدث بصوت جهوري مخاطباً سكان العوالم الثلاثة عالم الجن وعالم الأنس وعالم الملائكة فأعلن انه قد وصلته رسالة من الإمام المختفي تحمل تعليمات جديدة تقول : ان إمام عصرنا يبعث اليكم تحياته وسلامه ويبلغكم انه دعاكم خدمه الخصوصيين المختارين ، وانه حرركم من أعباء قواعد الشريعة وأحضركم إلى القيامة » ، وبالاضافة إلى ذلك فقد قضى الإمام بتعيين حسن بن محمد بن بزرجميد وكيلاً له وداعية وحجة ، وعلى حزبنا أن يطيعوه ويتبعوه في شئونهم الدينية والدنيوية وأن يعتبروا أوامره ملزمة ويعرفوا أن كلمته هي كلمتنا » وعندما أتم حسن خطبته نزل من على المنبر وصلى ركعتين أسماهما صلاة الاحتفال ثم أمر بالمائدة فمدت ودعا الناس إلى قطع صيامهم والمشاركة في الطعام والابتهاج ، وبعث الرسل يحملون هذه التعاليم السعيدة شرقاً وغرباً ، ففي كوهستان كرر رئيس قلعة مؤمن أباد نفس حفلة « ألموت » وأعلن نفسه وكيلاً لحسن من فوق منبر يواجه الاتجاه الخاطىء كذلك . وتلقى

الاسماعيليون في سوريا الرسالة أيضاً واحتفلوا بانتهاء الشريعـــة !

ان انتهاك الشريعة الدينية على هذا النحو الشعائري المهيب — بما في ذلك اتجاه المصلين بظهورهم إلى مكة والافطار ظهراً في منتصف الصوم — يمثل الحد المتطرف من اتجاه الايمان بالعصر الألفي السعيد بما ينطوي عليه ذلك من مخالفة صريحة لمبادىء الدين ، وهذا الاتجاه تواتر في تاريخ بعض المذاهب الإسلامية وله مشابهات واضحة في الفكر المسيحي ، ومنطوقه أن الدين قد استوفى غرضه وبذلك انتهى حكمه ، فالأسرار قد كشفت ، والإمام قد أظهر رحمته وعفوه ، فهو إذ جعل المؤمنين خدمه المختارين الخصوصيين قد حفظهم من الخطيئة وباعلانه القيامة قد وقاهم من الموت ونقلهم أحياء إلى الفردوس الروحي وهو معرفة الحقيقة والتأمل في جوهر الله المقدس ، وقد علق الجويني ، الفقيـــه المؤرخ على ذلك قائلاً « إن جوهر هذه العقيدة الضالة يكمن في اتباع أقوال الفلاسفة الذين يقولون بأن العالم غير مخلوق والدهر غير محدود والقيامة روحية ، وهم يفسرون الجنة والنار تفسيراً رمزياً على نحو يعطي هذه المفاهيم معنى روحياً فحسب ، فيقولون ان القيامة تكون عندما يصل الخلق إلى الخالق وتكشف كل أسرار الخليقة وحقائقها ، فتلغى أفعال الطاعة ، لأنه في هذه الدنيا توجد أفعال ولا يوجد حساب أما في الآخرة

فيوجد حساب ولا توجد أفعال ، وهذه هي القيامة الروحية الموعودة والمنتظرة في كل الأديان والمعتقدات وقد كشف عنها حسن بن محمد بن بزرجميد وكنتيجة لها أعفى الناس من الواجبات التي تفرضها عليهم الشريعة لأنهم في فترة القيامة هذه يجب أن يتجهوا بكل جوارحهم إلى الله ويتخلوا عن شعائر الدين وما اعتادوه من عبادات ، ان الشريعة تقول ان على الناس أن يقيموا خمس صلوات في اليوم كي يكونوا مع الله ، ولكن هذا التكليف رسمي فحسب ، ففي القيامة الروحية ينبغي على الناس أن يكونوا دائماً مع الله في قلوبهم ويتجهوا بأرواحهم دوماً نحو حضرته القدسية لأن هذه هي الصلاة الحقة »

هذا النظام الديني الجديد أحدث تغيراً هاماً في وضع سيد « ألموت » ، ففي الحفل الذي أقامه في ساحة القلعة أعلن نفسه وكيلاً للإمام المخبوء والحجة الحية له ، وباعتباره معلن القيامة أصبح هو « القائم » — وهذه شخصية بارزة في الفكر الديني الاسماعيلي — ويقول رشيد الدين انه بعد أن أعلن حسن قيامته وزع مكاتيب يقول فيها انه وان كان من الناحية الظاهرية يعرف كحفيد لبزرجميد إلا انه في الحقيقة الخفية امام العصر وابن الامام السابق من نسل نزار ، ومن المحتمل — كما يقول البعض — ان حسن لم يدع انحداراً طبيعياً من صلب نزار ، فلم تعد لذلك أهمية في عصر القيامة ، ولكنه زعم نوعاً من النبوة الروحية

والواقع أن ثمة سوابق في الحركات التبشيرية الإسلامية المبكرة أدعى فيها أشخاص انهم ينحدرون روحياً أو بالتبني عن أهل البيت ، وعلى أية حال فاننا نجد في التراث الاسماعيلي اللاحق اجماعاً على تأكيد أن حسن ونسله جاءوا من الخط الحقيقي لنزار بالرغم من وجود تفسيرات مختلفة لكيفية حدوث ذلك أما حسن نفسه فهو يحتل مركزاً مرموقاً في هذا التراث ويشار اليه دائماً بعبارة « حسن على ذكره السلام » !

وقد قبل معظم الاسماعيليين هذا النظام الديني الجديد ولكن كان هناك البعض ممن رفضوا التحرر من التزامات الشريعة وقد استخدم حسن ازاءهم أشد العقوبات « لتحريرهم » . يقول رشيد الدين « ان حسن أوضح ضمناً وصراحة أنه كما أن في زمن الشريعة إذا لم يبد انسان ما طاعة وعبادة واتبع قاعدة القيامة بأن الطاعة والعبادة روحيتان فانه يعاقب ويرجم ويقتل كذلك فان في زمن القيامة إذا التزم انسان بحرفية الشريعة وأصر على الطقوس والعبادة البدنية فانه يعاقب ويرجم ويقتل » .

وكان من بين هؤلاء العصاة الذين رفضوا الانصياع للأوامر الجديدة صهر حسن وهو سليل أسرة ديلمية نبيلة ويصفه الجويني بأنه كان واحداً ممن بقي في قلوبهم ظل من الطاعة والدين ، هذا الرجل لم يستطع أن يتحمل انتشار

هذه الأخطاء المخزية فليرحمه الله ويجازيه بحسن قصده ، وفي يوم الأحد ٦ ربيع الأول عام ٥٦١ (٩ يناير ١١٦٦) طعن المارق حسن بخنجر أثناء وجوده في قلعة لاماسار فرحل عن هذا العالم إلى نار الله الموقدة » .

حكم محمد الثاني

وخلف حسناً ابنه محمد وكان شاباً في التاسعة عشرة من العمر ، واستمر محمد في تأكيده بأن أباه وبالتالي هو شخصياً أئمة من نسل نزار ، ويقال انه كان كاتباً مجيداً وخلال فترة حكمه الطويل استطاع أن يطور نظرية القيامة ويرسخها ، ولكن يبدو أن هذه النظرية لم يكن لها تأثير ملحوظ على العالم الخارجي ، فمما له دلالة خاصة أن كل فترة القيامة في قلعة « ألموت » مرت دون أن يذكرها أحد من مؤرخي السنة المعاصرين ولم تعرف وتذع إلا بعد دمار « ألموت » ووقوع كتابات الاسماعيليين في أيدي فقهاء السنة .

وقد مرت كذلك فترة حكم محمد الثاني بلا أحداث بارزة من الناحية السياسية ، وفيما عدا أن ساكني « ألموت » واصلوا الاغارة على جيرانهم وقتل الفدائيين لأحد وزراء الخليفة في بغداد لم يحدث شيء بارز آخر ، غير أن هناك قصة يحكيها رشيد الدين وغيره من المؤلفين عن الفقيه السني

الكبير فخر الدين الرازي ، فيقال ان فخر الدين الرازي هاجم في محاضراته لطلبة أصول الدين في الري النظرية الاسماعيلية وأعلن رفضه لها ولعنها ، ولما سمع سيد « ألموت » بذلك قرر أن يضع حداً للأمر فأرسل فدائياً إلى الري ، وهناك انضم الفدائي إلى طلبة الرازي وواظب على محاضراته سبعة أشهر كاملة لم ينقطع خلالها يوماً واحداً كما أبدى نجابة كبيرة وأخيراً حانت له فرصة للقاء أستاذه في حجرته بحجة بحث مشكلة معقدة ، وفجأة شهر الفدائي سكيناً وهدد به الفقيه الكبير ، فقفز فخر الدين بعيداً وصاح « ماذا تريد أيها الرجل ؟ » فأجاب الفدائي « أريد أن أبقر بطن فضيلتك من الصدر إلى السرة لأنك لعنتنا فوق المنبر » وبعد عراك بينهما تمكن الفدائي من القاء فخر الدين أرضاً وجثم فوق صدره فارتعب الفقيه ووعد بالتوبة والامتناع عن مثل هذه الهجمات في المستقبل فتظاهر الفدائي بالاقتناع وقبل تعهداً صادقاً من فخر الدين باصلاح وسائله،وعندئذ أخرج الفدائي صرة بها ٣٦٥ ديناراً ذهبياً أعطاها للفقيه وقال له اننا سنعطيك في كل عام مبلغاً مماثلاً مقابل امتناعك عن مهاجمتنا ، ومنذئذ تحاشى فخر الدين الرازي في محاضراته عن الفرق في الإسلام أن يذكر الاسماعيليين بسوء ، ولاحظ أحد تلاميذه هذا التغيير وسأل عن السبب فقال الأستاذ « انني لا أنصح بلعن الاسماعيليين فان لهم حججاً ثقيلة وأخرى حادة ! » هذه القصة يبدو انها خرافة ولكن

مما يلاحظ أن فخر الدين الرازي في كتاباته – وإن كان لا يقبل نظريات الاسماعيليين – فانه يستنكر في بعض المواضع محاولات أحد فقهاء السنة رفض النظريات الاسماعيلية بطريقة متعصبة وغير مؤيدة بأدلة صحيحة من كتاباتهم وأثنى على فقيه آخر لأنه اقتبس نصاً اسماعيلياً اقتباساً صحيحاً ، وبالطبع فان وجهة نظر الرازي ليست بالضبط ان الاسماعيليين على صواب ولكنه يريد أن يقول انه ينبغي في الخصومات الدينية أن تكون مؤسسة على معلومات صحيحة وفهم ذكي لوجهة نظر الخصم .

وفي تلك الأثناء كانت هناك تغيرات سياسية كبرى تأخذ مجراها في بلاد الإسلام الشرقية ، فقد أخذت في الانحلال السلطنة السلجوقية الكبرى التي استطاعت لفترة أن تحافظ على وحدة الاسلام السني وتأكيد هدفه ، وبدأ يظهر محلها نظام جديد من الامارات التي أسسها أمراء أو قواد سلاجقة وأيضاً وبدرجة متزايدة رؤساء القبائل التركمانية البدوية الذين دفعتهم الموجات المتتالية من الهجرة التركية إلى الانحدار من آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط ، وبدا التوسع التركي لفترة كأنه وصل إلى حدوده الاقليمية القصوى ، فقد تحطم وانهار النظام الأمبراطوري السلجوقي ولكن استمر التغلغل التركي في تعميق وتدعيم الانتصار الذي تحقق بالفعل ولم يؤد تغيير النظام إلى أي تغيير في الجوهر ، فقد وجد الأمراء المتتابعون سواء كانوا من العناصر

المحلية أو التركمانية أنه من الأيسر لهم أن يحتفظوا بالممارسات السياسية والعسكرية والادارية التي كان يسير عليها السلاجقة بما في ذلك الالتزام القوي بالاسلام السني السلفي ، وهنا وهناك حيث يقل عدد الأتراك كانت الجماعات المحلية ذات الأصل الفارسي أو التركي أو العربي ترفع رءوسها وتحقق قدراً من الاستقلال ولكن الرؤساء الترك رغم انقسامهم السياسي واصلوا انتهاج هدفهم المشترك وهو انتزاع القيادات المحلية القديمة والحلول محلها وحققوا في ذلك نجاحاً كبيراً .

وقرابة نهاية القرن الثاني عشر ظهرت في الشرق قوة جديدة ، فالى الجنوب من بحر أرال Aral توجد بلاد خورازم Khorazm وهي موطن حضارة مزدهرة قديمة يحميها سياج من الصحارى من أن تتأثر بالتقلبات التي كانت تهز البلاد المجاورة ، وكان الأتراك قد هزموا خورازم واستعمروها كما فعلوا بمعظم آسيا الوسطى وكانت أسرتها المالكة تنحدر من مملوك تركي بعث به السلطان السلجوقي الكبير ملكشاه إلى هناك حاكماً على خورازم ، ولكن حكام هذا الاقليم استقلوا بمصالحهم وارتبطوا بشخصيته المحلية واستخدموا لأنفسهم اللقب المحلي القديم خورازمشاه أي شاه خورازم كتابعين في أول الأمر لدول كبرى ثم كحكام مستقلين ، وكانت مملكة خورازم – بين الفوضى العامة السائدة في المنطقة – تبدو برخائها وقوتها العسكرية بلد

أمن واستقرار ، ولم يمض وقت طويل حتى أحس شاه خورازم بأن عليه أن يبسط بركات حكمه إلى بلاد وشعوب أخرى ، وهكذا ما أن حل عام ١١٩٠ حتى كان تكيش Tekish شاه خورازم قد احتل خرسان وأصبح بذلك سيداً على ايران الشرقية وقوة كبيرة في عالم الإسلام ، ولما كان الخليفة الناصر في بغداد قد تأذى كثيراً من أفعال آخر سلاجقة ايران طغرل الثالث Tughrul III لذا ناشد تكيش أن يهب إلى مساعدته ، وهكذا تهيأت الفرصة للجيوش الخورازمية للتقدم غرباً واحتلال الري وهمدان ، وقد لقي آخر السلاجقة هزيمته ومصرعه في الري عام ١١٩٤ .

لقد ظل السلاجقة طوال قرن ونصف القرن منذ ظهورهم يعتبرون سلطنتهم العظيمة التي أنشأوها جزءاً مقبولاً من السلطة الإسلامية ، ولكن بوفاة آخر السلاجقة ظهر فراغ سياسي في المنطقة التي كانوا يحكمونها وأصبح واضحاً أن الشخص الذي يمكن أن يملأ هذا الفراغ هو تيكيش شاه خورازم المنتصر . وبعث تيكيش برسالة إلى الخليفة الناصر في بغداد يطلب فيها أن يعترف به سلطاناً على ايران مكافأة له على خدماته الجليلة ولكن الناصر كانت لديه أفكار أخرى ، وهكذا فان تيكيش الذي كان يأمل أن يتحول من حليف للخليفة إلى حام له وجد نفسه بدلاً من ذلك خصماً للخليفة يناصبه العداء .

والواقع انه منذ ولاية الناصر الخلافة في عام ١١٨٠

أحرزت الخلافة العباسية صحوة بارزة ودفعة إلى الأمام ، فقد ظل الخلفاء قرابة ثلاثة قرون مجرد دمى متحركة كرءوس رمزيين للاسلام السني في أيدي الحكام العسكريين والأمراء ثم السلاطين ولكن انهيار سلطة السلاجقة في العراق أتاح فرصة للناصر سرعان ما استغلها ، وكان له هدفان : أن يستعيد الوحدة الدينية للاسلام وعلى رأسها السلطة الروحية للخليفة وأن ينشىء « امارة خليفية » في العراق تحت سيطرته الفعالة حتى يستخدمها كقاعدة لسياساته الدينية أي تكون بمثابة « دولة كنيسة » محررة من أي سيطرة أو نفوذ من الخارج . وقد استطاع الناصر أن يحقق الهدف الثاني — وهو الهدف المحدود — عن طريق العمل السياسي والعسكري ضد طغرل ثم تيكيش . أما الهدف الأول — وربما الأساسي — وهو استعادة الوحدة الإسلامية ، فقد سعى له بسلسلة من المبادرات الدينية والاجتماعية والتعليمية بما في ذلك التقرب إلى الشيعة الاثني عشرية والاسماعيلية ، وأحرز مع الآخرين قدراً مدهشاً من النجاح .

حكم جلال الدين حسن

في أول سبتمبر ١٢١٠ مات سيد ألموت محمد الثاني — ربما مسموماً — وخلفه ابنه جلال الدين حسن ، وكان الابن حتى في حياة أبيه قد أبدى علامات على عدم رضاه

عن نظريات وممارسات « القيامة » كما أبدى رغبة في قبول الأخوة الإسلامية بمعناها الواسع . يقول الجويني « انه منذ صغره عينه أبوه كخليفة له ، ولما شب ظهرت عليه دلائل النجابة ورفض عقائد أبيه وشعر بالاستياء من عادات الكفر والانحلال ، ولما أحس أبوه بمشاعره دبت بينهما العداوة وأصبح كل منهما يكره الآخر ولا يثق فيه .. والآن أقدم جلال الدين حسن — سواء بدافع من عقائده السلفية أو بدافع من كراهيته لأبيه — على التآمر ضد أبيه (محمد الثاني) وبعث سراً برسائل إلى الخليفة في بغداد وسلاطين وحكام البلاد الأخرى يبلغهم فيها أنه على العكس من أبيه يؤمن بالاسلام وعندما يأتي دوره في الحكم سوف يلغي الكفر ويعيد اعتناق الإسلام .. ومنذ أول لحظة له في الحكم جاهر جلال الدين باسلامه ووبخ شعبه وحزبه بشدة على الحادهم وحظر عليهم مواصلة ما هم فيه وحثهم على اعتناق قواعد الدين واتباع تعاليم الشريعة وأرسل مبعوثين إلى الخليفة في بغداد ومحمد خورازمشاه والملوك والأمراء في العراق وفي كل مكان يبلغهم بهذه التغييرات ولما كان قد مهد الطريق أثناء حياة أبيه باعلانه موقفه لهم جميعاً لذلك فقد صدقوا كلمته وخاصة في بغداد حيث صدر مرسوم يؤكد اعتناقه الإسلام وعومل بكل تقدير واحترام وخوطب في المراسلات بألقاب الشرف وأصبح يعرف باسم جلال الدين المسلم الجديد وأصبح أتباعه يعرفون في عصره «بالمسلمين الجدد» . وقد

يستطيع المحلل النفساني هنا أن يلاحظ أنه في الوقت الذي كان فيه جلال الدين حسن مختلفاً عن أبيه كان شديد الارتباط بأمه التي كانت امرأة سنية مؤمنة .

وكان من الطبيعي أن يبدي أهل قزوين شيئاً من الشك في حقيقة هذا التحول إلى الايمان من جانب جيرانهم وأعدائهم القدامى ، وتحمل جلال الدين حسن مشاقاً عظيمة من أجل اقناعهم باخلاصه ، فقد بعث مباشرة إلى أعيان المدينة محرضاً لهم على ارسال وفد إلى « ألموت » لفحص ما تحتويه مكتبتها من مؤلفات وأبعاد ما لا يروق لهم من الكتب ، وقد كان منها مؤلفات وضعها حسن الصباح وغيره من أئمة الاسماعيلية من أجداد وأسلاف جلال الدين ، يقول الجويني « ان جلال الدين أمر بهذه الكتب فأحرقت في حضور أهل قزوين وبارشادهم وصب الشتائم واللعنات على آبائه ومؤلفي هذه الكتب وقد شاهدت بنفسي خطاباً في أيدي أعيان قزوين وقضاتها كان قد أملاه جلال الدين حسن وأعلن فيه اعتناق الإسلام وقبوله فرائض الشريعة وبراءته من كفر آبائه وأسلافه ومعتقداتهم وقد كتب عليه جلال الدين بخط يده بضع كلمات تؤكد تخليه عن ديانتهم ، وعندما كان يذكر أسماء آبائه وأسلافه يضيف قائلاً « فليملأ الله قبورهم بالنار » أو « فلينزلهم الله منازل الجحيم » !

وقامت أم جلال الدين بالحج في عام ٦٠٩ (١٢١٢ —

١٣ م) حيث عوملت بتقدير واحترام بالغين في بغداد ، ولكن كان من سوء الحظ أن زيارتها لمكة اقترنت باغتيال ابن عم شريف مكة ، ولما كان الشريف يشبه ابن عمه المقتول شبهاً كبيراً لذلك فقد اقتنع الشريف بأنه هو الذي كان مقصوداً بالقتل ، وأن القاتل فدائي اسماعيلي أرسله الخليفة لهذا الغرض ، فاستبد به الغضب وهاجم ونهب قوافل الحجاج العراقيين وفرض عليهم غرامات ثقيلة دفعت معظمها السيدة القادمة من « ألموت » ، ولكن بالرغم من هذا الحادث المؤسف استطاع جلال الدين أن يحتفظ بمحالفاته الإسلامية وعقد أواصر صداقة وثيقة مع حاكم اران Arran وأزربيجان Azerbayjan وتبادل معه الهدايا ومختلف المساعدات واشترکا سوياً في قتال عدوهما المشترك حاكم غرب ايران وقد وجدا في ذلك تأييداً من الخليفة العباسي في بغداد عندما طلبا مساعدته .

وقدم الخليفة مساعدة أخرى من نوع مختلف لجلال الدين حسن .. « فان جلال الدين بعد أن أقام عاماً ونصف العام في العراق وأران وأذربيجان عاد إلى ألموت ، وخلال رحلاته واقامته في هذه البلاد ازداد قبول المسلمين له كمسلم وأصبح في مكنته أن يختلط بهم بحرية وشجعه هذا أن يطلب من أمراء جيلان Gilan أيدي بناتهم للزواج » وكان من الطبيعي أن يتردد الأمراء في قبول أو رفض عرض هذا الخطيب المشكوك فيه ، فتظاهروا بأن علقوا رضاهم على

موافقة الخليفة ، فقام على الفور مبعوث من « ألموت » إلى بغداد ، ورد الخليفة بالموافقة على زواج بنات الأمراء من جلال الدين « على سنة الله ورسوله » واستطاع جلال الدين بهذا المرسوم أن يحصل على أربع أميرات جيلانيات كزوجات له ، ولإحداهن حق انجاب الإمام اللاحق.

من هذه المغامرات الدينية والعسكرية والزواجية نستدل على قوة مركز جلال الدين حسن ، لقد ألغى « القيامة » وأعاد « الشريعة » بمرسوم لا يقل فجاءة واكتساحاً عن المرسوم الذي أعلنت به ، وأطاعه أتباعه في ذلك سواء في كوهستان أو سوريا أو رودبار ، وغادر ألموت كما لم يفعل أحد من سابقيه حيث أقام عاماً ونصف عام بالخارج دون أن يقع له حادث مؤسف واحد ، وبدلاً من أن يبعث بالفدائيين لقتل القواد وعلماء الدين كان يبعث بالجيوش لفتح المدن والأقاليم ، ثم أقام المساجد والحمامات في القرى ليكمل تحويل أرضه من وكر للقتلة إلى مملكة محترمة تربطها روابط التحالف والمصاهرة بجيرانها .

وقد بدل جلال الدين من تحالفاته شأن غيره من الحكام المحليين ، اذ يبدو انه في أول الأمر كان يؤيد خورازمشاه بل ودعا باسمه في صلاة الجمعة بمساجد رودبار ، ثم حول ولاءه إلى الخليفة العباسي في بغداد وقدم له خدمات عديدة بما في ذلك اغتيال أمير متمرد دخل في خدمة خورازمشاه وشريف مكة ، وأخيراً سارع إلى الاعتراف

والاحتماء بقوة رهيبة جديدة تنبثق في الشرق إذ يقول الجويني « ويقول الاسماعيليون انه قبل أن يخرج الخان الأكبر جنكيز خان من تركستان إلى ديار الإسلام أوفد اليه جلال الدين سراً مبعوثين يحملون خطابات مكتوبة تعبر عن خضوعه له وولائه ، هذا ما يقوله الملاحدة ولا أعرف مدى صحته ، ولكن من الواضح انه عندما دخلت جيوش جنكيز خان بلاد المسلمين كان أول حاكم يرسل اليه السفراء ويقدم الهدايا ويقبل الولاء هو جلال الدين » .

وفي نوفمبر ١٢٢١ بعد حكم دام عشر سنوات مات جلال الدين حسن . « وكان المرض الذي أودى بحياة جلال الدين حسن هو « الدوسنتاريا » وقامت الشبهات بأنه سمم بواسطة زوجاته وبالاتفاق مع أخته وبعض أقاربه ، ولذلك فان وزيره الذي يشرف على المملكة وكان وصياً على ابنه علاء الدين أقدم على قتل عدد كبير من أقارب جلال الدين ومنهم أخته وزوجاته بهذه الشبهة وأحرق بعضهم » .

وهناك تفسيرات مختلفة لعودة جلال الدين إلى احترام الشعائر الدينية وتصالحه مع السنة والخلافة ، فالجويني وغيره من مؤرخي السنة الفرس يعتقدون بصدق تحوله الديني رغبة منه في نبذ معتقدات أسلافه الفاسدة وطرقهم واعادة قومه إلى طريق الإسلام الصحيح الذي نبوا عنه،ويبدو أن الخليفة نفسه كان مقتنعاً بحسن نية جلال الدين حسن ، فانه بتدخله لتأييد زواجه من أميرات جيلان وتكريمه لأمه أثناء

قيامها بالحج قد أعرب عن محاباة له أكثر مما تقتضيه ضرورة التحالف وحتى أهل قزوين الذين أعربوا عن شكوكهم فيه أول الأمر عادوا فسلموا باخلاصه . ولكن المؤرخ النمسوي جوزيف فون هامر الذي عاش بعد ذلك بستة قرون في فينا أثناء حكم مترنيخ كان أقل اقتناعاً باخلاص جلال الدين في تحوله من الاسماعيلية إلى الاسلام وكان يعتقد ان ذلك لم يكن أكثر من نفاق وسياسة مرسومة لاعادة الثقة في نظامه الذي عراه رجال الدين وقاطعه الأمراء ، وللحصول على لقب أمير بدلاً من لقب الشيخ ، ويعتقد فون هامر ان جلال الدين فعل مثلما فعله الجيزويت الذين أقدموا حين هددوا بالطرد من البرلمان والحرمان من الفاتيكان على انكار معتقداتهم ولعنها علناً وقت أن كانوا يضمرونها سراً .

ان هذه التحولات تحتاج كذلك إلى تفسير من وجهة نظر الاسماعيليين ، فالاسماعيلية لم تكن مجرد امارة اقليمية تخضع لرئيس مخلص حتى لو كانت تلك هي صورتهم في العالم الخارجي ، كما انهم لم يكونوا مجرد عصابة من المتآمرين والقتلة وانما كانوا أتباعاً مؤمنين بدين معين له ماض يفخرون به ورسالة عالمية يدعونها ، وهم ككل المؤمنين الأتقياء كانوا يشعرون بالحاجة إلى المحافظة على قلعة عقيدتهم سليمة ، وهذا يتطلب اعطاء دلالة وتفسير دينيين لكل هذه التحولات من الشريعة إلى القيامة ، ومن القيامة

إلى اتباع السنة ثم للعودة إلى الاسماعيلية المقيدة بالدين .

ان الاجابة على ذلك تكمن في مبدأين : نظرية التقية أي اخفاء المعتقدات الحقيقية للفرد في مواجهة الخطر ، والفكرة الاسماعيلية القديمة عن تتابع فترات الاستتار والسفور والتي تتجاوب مع فترات الالتزام بالقانون الخارجي أو الحقيقة الباطنة وكل من هذه الفترات يعلنها إمام يأتي بتعليمات جديدة يقول مؤلف اسماعيلي من القرن الثالث عشر « ان فترة كل نبي يلتزم بالأشكال الخارجية للقانون القدسي تسمى فترة احتجاب أما فترة كل قائم يظهر الحقائق الباطنية لتعاليم الأنبياء فتسمى القيامة » وهكذا فان فترة احتجاب جديدة تكون قد بدأت في عام ١٢١٠ باعتلاء جلال الدين حسن حكم الاسماعيليين وفي ذلك الحين لم يكن الأئمة وحدهم هم المستترون كما حدث في فترات الاحتجاب السابقة وانما أيضاً الطبيعة الحقيقية للدعوة الاسماعيلية ذاتها ، وعندما تستتر الحقيقة الباطنة لا يهم كثيراً شكل الولاء الخارجي الذي يتبناه معتنقو الدعوة .

حكم علاء الدين محمود

عند وفاة جلال الدين خلفه ابنه الوحيد علاء الدين محمود وكان صبياً في التاسعة ، وظل وزير أبيه جلال الدين هو الحاكم الفعلي لألموت مدة من الزمن ويبدو أنه حافظ

على سياسة الوفاق مع العالم السني ، ولكن بدأت تتجمع في الأفق رياح رد الفعل ، فلم يعد احترام الشريعة يفرض بالقوة في الممتلكات الاسماعيلية بل وهناك ما يدل على أنهم كانوا يشجعون على عكسه ، وقد عزا الجويني وغيره من المؤرخين الفرس هذه التغيرات إلى الإمام الجديد « والآن كان علاء الدين صبياً لم يتلق قدراً من التعليم ، وهم طبقاً لمعتقداتهم الفاسدة يرون أن الإمام معصوم سواء كان طفلاً أو شاباً أو شيخاً وكل ما يقوله أو يفعله صحيح .. وطبقاً لذلك فان أحداً لم يكن يجرؤ أن يعترض على أي طريق يسلكه علاء الدين ولم يسمحوا لأحد بأن يؤدبه أو ينصحه أو يهديه إلى الصواب ... فوقعت مقاليد الأمور في أيدي النساء ، وأطيح بالأسس التي أرساها أبوه ، وهؤلاء الذين كانوا خوفاً من أبيه يظهرون احترام الشريعة والإسلام ولكنهم يضمرون في قلوبهم الغافية وأذهانهم المظلمة الايمان بالعقيدة المأفونة التي جاء بها جده .. هؤلاء وقد رأوا الآن أن أحداً لا يمنعهم ولا يحول دونهم وارتكاب الخطايا الممنوعة .. عادوا مرة أخرى إلى الحادهم واستعادوا قوتهم ، أما الآخرون الذين قبلوا الاسلام عن اقتناع فقد خافوا وعادوا إلى اخفاء حقيقة انهم مسلمون » !

« وبعد أن حكم هذا الصبي زهاء خمس أو ست سنوات أصابته لوثة عقلية ، ولكن أحداً لم يجرؤ على معارضته ، وأخفيت عنه كل شئون مملكته في الداخل والخارج ، ولم

يجرؤ مستشار واحد أن ينطق بكلمة أمامه ، وأصبحت السرقة وقطع الطريق والاعتداءات حوادث يومية شائعة في مملكته سواء بعلمه أو بغير علمه ، وقد ظن أن في امكانه أن يصفح عن هذا السلوك مقابل كلمات زائفة أو منح المال ، وعندما تجاوزت هذه الأشياء كل الحدود خسر حياته وزوجاته وأبناءه وبيته ومملكته وثروته بسبب هذا الخبل والجنون » .

ولكن على الرغم من هذه المتاعب كان لا يزال هناك زعماء قادرون على تسيير شئون الفرقة ، ويعتبر حكم علاء الدين فترة نشاط ذهني وسياسي على السواء ، فالمعروف أن من واجبات الحاكم المسلم وأمجاده أن يرعى العلوم والمعرفة ولم يكن الأئمة الاسماعيليون بالذين يتخلفون في هذا المضمار ولقد كانت مكتبة « ألموت » عامرة بالكتب ومشهورة في عصرها — حتى أن الجويني على عدائه الشديد للاسماعيليين يعترف باعجابه بها — وفي تلك الفترة اجتذبت المكتبة عدداً من الدارسين القادمين من الخارج ومن أبرزهم الفيلسوف والفقيه والفلكي نصر الدين الطوسي (١٢٠١ — ٧٤) الذي مكث هناك عدداً من السنين ، وفي ذلك الوقت كان يؤخذ على أنه اسماعيلي وقد كتب في الواقع عدة رسائل اسماعيلية لا تزال مقبولة لدى الفرقة ، ثم ادعى فيما بعد أنه من الشيعة الاثني عشرية وان اتصاله بالاسماعيليين كان على غير ارادته ، ولا ندري أياً من

الزعمين كان من باب « التقية » !

خلال السنوات الأولى من حكم علاء الدين كان الوضع في ايران مناسباً لمزيد من التوسع الاسماعيلي ، فالامبراطورية الخورازمية كانت قد تحطمت لتوها تحت ضغط الغزو المغولي وبينما كان السلطان جلال الدين آخر ملوك خورازم يحاول عبثاً ترميم مملكته المحطمة تمكن الاسماعيليون بنجاح من توسيع رقعة ممتلكاتهم ، فاحتلوا في هذا الوقت تقريباً مدينة دمغان بالقرب من قلعة غيردكوه ويبدو أنهم حاولوا الاستيلاء على الرى ، ولكن في عام ١٢٢٢ قام الخورازميون بمذبحة ضد دعاة الاسماعيلية في المدينة .

في عام ١٢٢٧ أرغم السلطان جلال الدين الاسماعيليين على قبول هدنة وأن يدفعوا له جزية عن مدينة دمغان وكان قد حدث قبل ذلك بقليل أن اغتيل قائد خورازمي يدعى أورخان Orkhan انتقاماً لغارات شنت على مستوطنات الاسماعيليين في كوهستان ، ويقدم النسوى واضع ترجمة جلال الدين خورازمشاه صورة حية لما حدث قائلا « هاجم ثلاثة فدائيين أورخان وقتلوه خارج المدينة ثم دخلوا المدينة شاهرين خناجرهم في أيديهم وهم يهتفون باسم علاء الدين حتى وصلوا إلى بوابة (الوزير) شرف الملك يريدون قتله ، ودخلوا إلى مبنى الادارة ولكنهم لم يجدوه اذ كان في هذه اللحظة في قصر السلطان ، فأصابوا خادما واندفعوا خارجين مرة أخرى وهم يصيحون ويتبجحون بنجاحهم ،

فأخذت العامة تقذفهم بالطوب من أسطح المنازل حتى قتلوهم رجماً وهم يصيحون حتى النفس الأخير « نموت فداء لسيدنا علاء الدين » .

وفي تلك الأثناء كان بدر الدين أحمد مبعوث « ألموت » في طريقه لرؤية السلطان ، ولما سمع بما حدث شعر بالقلق ازاء احتمالات استقبال السلطان له فكتب إلى الوزير شرف الملك يسأله النصيحة فيما إذا كان يواصل رحلته أو يقفل عائداً ، أما الوزير فقد خاف بدوره على حياته فأعرب عن سعادته باستقبال المبعوث الاسماعيلي على أمل أن يقيه وجوده معه « من المصير المشئوم والميتة المخيفة التي تعرض لها « أورخان » ولذا فانه حث المبعوث الاسماعيلي على الالتحاق به ووعده أن يفعل كل ما في جهده لمساعدته في مهمته .

وسافر الاثنان معاً ، والوزير يبذل كل جهده ليفوز بالحظوة لدى ضيفه المروع ، ولكن صداقتهما على أية حال شابها حادث غير سعيد ؛ « عندما وصلا إلى سهل سيرات Serat وبينما كانا يشربان وقد لعبت الخمر برأسيهما قال بدر الدين : ان لنا فدائيين في كل مكان حتى هنا في جيشك الخاص ، انهم مدربون جيداً ، وأنت تعتقد أنهم من أخلص رجالك ، بعضهم في اسطبلات خيلك وبعضهم في خدمة أكبر مرافقي السلطان » ، فأصر شرف الملك على معرفتهم وأعطاه منديله كاشارة أمان ، وعندئذ

استدعى بدر الدين خمسة فدائيين كانوا متخفين بين رجال شرف الملك وعندما قدموا قال أحدهم — وهو هندي وقح — لشرف الملك : لقد كان في استطاعتي أن أقتلك يوم كذا وكيت وفي مكان كذا وكيت ولكني لم أفعل لأنني لم أكن قد تلقيت بعد الأمر بذلك » وعندما سمع شرف الملك هذه الكلمات ألقى بعباءته وجلس أمامهم في قميصه ، وقال « لماذا هذا ؟ ماذا يريد علاء الدين مني ؟ لأي ذنب أو تقصير من جانبي يتعطش لدمي ؟ انني عبده كما أنا عبد السلطان وها أنذا أمامكم ، افعلوا بي ما تشاءون ! » ووصل خبر ما حدث إلى السلطان فشعر بالغضب لحسة شرف الملك ودناءته فبعث اليه على الفور يأمره بأن يحرق الفدائيين الخمسة أحياء ، فاستشفع فيهم الوزير عبثاً ولم يكن هناك بد من تنفيذ أوامر السلطان « فأشعلت نار عظيمة أمام مدخل خيمته وجيء بالرجال الخمسة وألقوا فيها وفيما هم يحترقون كانوا يصيحون « نموت فداء لسيدنا علاء الدين ! » ثم غادرت أرواحهم أجسادهم التي تحولت إلى رماد تذروه الرياح » وكاحتياط اضافي أعدم السلطان كبير مرافقيه عقاباً له على اهماله .

وقد شاهد النسوي ما حدث شخصياً بعد ذلك ، فيقول في كتابه « تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتي » .. « وذات يوم كنت مع شرف الملك في برذعة Bardha'a عندما جاء اليه مبعوث من « ألموت » يدعى صلاح الدين

وقال « انك أحرقت خمسة من فدائيينا ، فاذا أردت السلامة فعليك أن تدفع دية دمائهم ١٠ آلاف دينار عن كل منهم » هذه الكلمات أرعبت وأزعجت شرف الملك حتى عجز عن كل فكر وعمل ، وبعد ذلك أغرق المبعوث بالهدايا الثمينة وأوسمة الشرف ثم أمرني أن أكتب خطابا رسميا يخول فيه للاسماعيليين أن يقتطعوا ١٠ آلاف دينار سنويا من الجزية التي يدفعونها لخزينة السلطان والتي تبلغ ٣٠ ألف دينار كل عام ومهر شرف الملك الوثيقة بخاتمه » .

لم يستمر الاتفاق بين خورازمشاه والاسماعيليين طويلا إذ سرعان ما استمرت المنازعات المتقطعة مع السلطان جلال الدين في الوقت الذي أنشأ فيه الاسماعيليون علاقات ودية مع العدوين الرئيسيين للخورازميين وهما الخليفة في الغرب والمغول في الشرق ، وفي عام ١٢٢٨ كان المبعوث الاسماعيلي بدر الدين يسافر شرقا نحو بلاط المغول حين أوقف الخورازميون قافلة اسماعيلية متجهة غرباً وتضم ٧٠ رجلا فذبحوهم عن بكرة أبيهم بدعوى أن مبعوثاً مغولياً إلى الأناضول يسافر معهم متخفياً ، واستمرت المشاحنات بين الاسماعيليين والخورازميين سنين طويلة تزيد من اشتعالها بين حين وحين الحروب والاغتيالات والمفاوضات .

وفي احدى المناسبات أرسل النسوي كمبعوث إلى « ألموت » ليطلب دفع الباقي عليهم من الجزية التي يدفعونها

عن دمغان ، وهو يصف مهمته ببعض الرضا فيقول « ان علاء الدين فضلني على كل مبعوثي السلطان الآخرين وعاملني بتقدير واحترام بالغين وأكرمني غاية الكرم فضاعف لي من الهدايا وأثواب الشرف وكان يقول « هذا رجل فاضل والكرم مع أمثاله لا يضيع » ان قيمة الأشياء التي منحني اياها نقداً وعيناً تبلغ حوالي ثلاثة آلاف دينار ومنها حلتا شرف كل منهما يتكون من عباءة حريرية وقلنسوة وفراء ورداء خارجي ، أحدهما موشى بالحرير والآخر بالكريب الصيني ، وحزامان ثمنهما ٢٠٠ دينار و ٧٠ قطعة من الملابس وحصانان بكامل عدة ركوبهما من سرج وعنان وطاقم ، وألف دينار ذهبا وأربعة خيول مزركشة ، ومجموعة من الجمال البكتيرية ، وثلاثون رداء شرف لمعيتي » ... وحتى إذا افترضنا في هذه الهدايا شيئاً من المبالغة إلا أنها تدل بوضوح على أن سيد « ألموت » كان يتمتع بالكثير من الأشياء الجميلة في هذا العالم .

لم يكن الصراع مع خورازمشاه هو ما يشغل فقط بال الاسماعيليين ، بل دخلوا أيضاً في منازعات مع جيرانهم الاقربين حكام جيلان الذين ساءت العلاقات معهم أثر أحكام الاعدام المتسرعة التي نفذت في الاميرات الجيلانيات بعد وفاة جلال الدين حسن ، وقد استطاع الاسماعيليون لبعض الوقت اكتساب بعض الأراضي الاضافية من جيلان حول تاريم Tarim ، ولكن من ناحية أخرى كانت

العلاقات مع أعدائهم القدامى في قزوين مسالمة إلى حد كبير ، ومما يدعو إلى شيء من الدهشة ان علاء الدين محمد كان تلميذاً مخلصاً لشيخ يقيم في قزوين ، وكان يرسل اليه سنوياً منحة مقدارها ٥٠٠ دينار ذهبي ينفقها الشيخ على مأكله ومشربه ، وعندما أنب أهل قزوين الشيخ لمعيشته على مال الملاحدة رد هذا قائلا « ان الائمة أحلوا دماء الكفار وأموالهم وبالتأكيد فانها تصبح أكثر حلالا إذا دفعوها من تلقاء أنفسهم » وكان علاء الدين يقول لأهل قزوين أنه يبقى على مدينتهم فقط لخاطر الشيخ « ولولاه لكنت قد حملت تراب قزوين إلى قلعة ألموت في السلال » .

وبالرغم من الحروب والاغارات والاغتيالات لم ينس الاسماعيليون هدفهم الأول وهو التبشير بعقيدتهم وتحويل المزيد من الناس اليها ، وفي ذاك الوقت تقريباً أحرزوا نجاحاً هاماً بزرع عقيدتهم في الهند ، لقد كانت « الدعوة القديمة » للاسماعيلية المستعلية وطيدة الاركان في الهند وخاصة على شواطىء « جوجيرات » منذ أجيال ، ولكن بعثة تبشيرية وصلت من ايران تدعو إلى « الدعوة الجديدة » النزارية في شبه القارة الهندية التي أصبحت فيما بعد المركز الرئيسي لفرقتهم .

يصور الجويني وغيره من مؤرخي السنة الفرس علاء الدين في صورة عدائية للغاية ، فيظهرونه كشخص دنيء

سكير تهاجمه نوبات من العته والجنون ، وفي سنواته الأخيرة دخل في صراع مع ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه الذي كان قد عينه وهو طفل ليخلفه في الامامة ، وقد حاول علاء الدين فيما بعد أن يلغي تعيينه ويعين واحداً آخر من أبنائه ولكن الاسماعيليين « تمسكاً بمعتقداتهم رفضوا أن يقبلوا ذلك وقالوا ان التعيين الأول وحده هو الصحيح » .

وتفجر الصراع بين الأب والابن في عام ١٢٥٥ ، ففي هذا العام « ازداد جنون علاء الدين سوءاً وزاد سخطه على ركن الدين ... وشعر ركن الدين ان حياته غير آمنة ... وعلى هذا الأساس دبر أن يهرب من وجهه ويذهب إلى قلاع سوريا ويستولي عليها أو أن يستولي على « ألموت » ومايموندين وغيرهما من قلاع رودبار المليئة بالكنوز والمؤن ... ويثور على أبيه ... وكان معظم الوزراء والكبراء يترقبون منه الشر ولم يكن أحدهم آمناً على حياته » .

« واستطاع ركن الدين أن يجد حجة يستخدمها كطعم للحصول على مناصريه فكان يقول انه بسبب السلوك الشرير لأبي فان جيش المغول ينوي مهاجمة هذه المملكة ، وأبي لا يهتم بشيء ، ولذلك فانني سوف أنشق عليه وأرسل المبعوثين إلى أمبراطور وجه الأرض (خان المغول) وإلى خدام بلاطه وأعلن له الخضوع والولاء ، وسوف لا أسمح لأحد في مملكتي بأن يرتكب عملا شريراً وبذلك أضمن سلامة الأرض والناس » .

وأمام هذه الورطة وافق زعماء الاسماعيلية على تأييد ركن الدين حتى ضد أبيه . ولكن تحفظهم الوحيد كان ألا يمس علاء الدين نفسه فالامام حتى اذا كان مخبولا يعد بالغ القداسة ومجرد المساس به يعد قمة أعمال الدنس والخيانة .

ولحسن الحظ لم يثر هذا الخيار الرهيب أمام الاسماعيليين أو معظمهم على الأقل فلم يكد يمضي شهر على هذا الاتفاق حتى مرض ركن الدين ولزم الفراش ، وبينما كان ظاهر العجز على هذا النحو أغتيل والده علاء الدين أثناء نومه مخمورا بواسطة قتلة مجهولين ، حدث ذلك — طبقاً للجوني — في أول ديسمبر ١٢٥٥ وأثار اغتيال رئيس الحشاشين في عقر داره اتهامات وشبهات جامحة وتم اعدام عدد من تابعي الامام القتيل الذين وجدوا على مقربة من مكان الحادث ، بل قيل ان مجموعة من أوثق خلصائه تآمروا على قتله وأحضروا أناساً خارجيين من أهل قزوين إلى ألموت لتنفيذ الجريمة . ولكنهم في النهاية اتفقوا على من هو القاتل « اذ بعد مضي أسبوع اتضحت العلامات والشبهات ، واتفق بالاجماع على أن حسن المازنداريني الذي كان أوثق المقربين إلى علاء الدين ورفيقه الذي لا يفارقه ليلا أو نهارا وكاتم أسراره — هو الشخص الذي قتله ، وقيل كذلك أن زوجة حسن — التي كانت عشيقة لعلاء الدين والتي لم يخف عنها حسن سر قتله لعلاء الدين — هي التي

كشفت السر لركن الدين ، ومهما يكن من أمر فلم يمض أسبوع حتى أعدم حسن وأحرقت جثته كما أحرق عدد من أبنائه — ابنتان وولد — وحكم ركن الدين مكان أبيه » .

المغول وركن الدين

خلال السنوات الأخيرة من حكم علاء الدين محمد اقترب الاسماعيليون أكثر فأكثر من المواجهة النهائية مع أخطر الأعداء طرا وأكثرهم ارهابا ورعبا ... المغول . ففي عام ١٢١٨ وصلت جيوش جنكيز خان حاكم الامبراطورية الجديدة التي ظهرت في شرق آسيا إلى نهر Jaxartes وأصبحوا الجيران المباشرين لخورازمشاه ، ولم يلبث أن وقع حادث حدود يعطي الذريعة للمغول للتقدم غربا من جديد ، وهكذا ، في عام ١٢١٩ ، عبر جنكيز خان بجيوشه نهر Jaxates إلى أراضي الاسلام وفي عام ١٢٢٠ استولى على المدن الإسلامية القديمة في سمرقند وبخاري ووصل إلى نهر Oxus ، وفي العام التالي اجتاز Oxus واستولى على بلخ ومرو ونيسابور ، وجعل من نفسه سيدا على كل شرق ايران ، وعندما مات جنكيز خان في ١٢٢٧ حدثت هدنة صغيرة لم يلبث أن قطعها خليفته في عام ١٢٣٠ بشن هجوم جديد على الدولة الخورازمية

المتداعية ، وما أن حل عام ١٢٤٠ حتى كان المغول قد أخضعوا غرب ايران وأخذوا يغزون جورجيا وأرمينيا وشمال العراق .

وجاء الهجوم الأخير في منتصف القرن الثالث عشر ، فقد أرسل الخان الأكبر — الذي كان يحكم حينئذ من بكين — حملة جديدة تحت قيادة الأمير المغولي هولاكو حفيد جنكيز خان مزودة بأوامر أن تخضع كل بلاد المسلمين حتى مصر ، وخلال شهور قليلة كان فرسان المغول بشعورهم الطويلة يجتاحون كالعاصفة عبر ايران مدمرين كل ما في طريقهم . وفي يناير ١٢٥٨ انقضوا على مدينة بغداد ، وبعد محاولة يائسة قصيرة للمقاومة طلب آخر الخلفاء الرحمة عبثاً ، فقد اندفع محاربو المغول ينهبون ويحرقون المدينة ، وفي يوم ٢٠ فبراير جرى اعدام الخليفة وكل من عثر عليهم من أقاربه ، وبهذا سقط البيت العباسي الذي حكم العالم الإسلامي السني زهاء خمسمائة عام .

لم يكن ثمة ألموت ، مثلهم في ذلك كل الحكام المسلمين الآخرين في ذلك العهد — مخلصين في مقاومتهم للخطر الوثني الهمجي الذي يمثله الغزاة المغول بالنسبة للإسلام ، فالخليفة الناصر الذي كان في حرب مع خورازمشاه سره ظهور ذلك العدو الجديد الخطير على الجانب الآخر من الامبراطورية الخورازمية ، وكذلك حليفه الامام جلال

الدين حسن كان من بين أوائل من بعثوا الرسائل إلى الخان معلنين حسن نيتهم وصداقتهم ، ولكن في بعض الأحيان كان الاسماعيليون في الواقع يظهرون بعض التضامن مع جيرانهم السنة ضد الخطر الجديد . فعندما كان جنكيز خان يغزو شرق ايران أبدى الحاكم الاسماعيلي في كوهستان ترحيباً كريماً باللاجئين السنيين في معقله الجبلي الفسيح ، كتب عنه زائر مسلم يقول « لقد وجدته — أي حاكم كوهستان الاسماعيلي — رجلا ذا علم واسع ... ضليعاً في الحكمة والعلم والفلسفة على نحو يندر وجوده في اقليم خرسان ، وقد تعود أن يبدي عطفاً كبيراً على أبناء السبيل والغرباء والمساكين ويحمي مسلمي خراسان الذين يلوذون به ، وكان قصره يضم عدداً من أشهر علماء خرسان ... وكان يعاملهم جميعاً باحترام وتوقير ويبدي لهم كثيراً من العطف ، وخلال العامين أو الثلاثة أعوام من الفوضى في خرسان أخرج من خزائنه واسطبلاته ألف حلة شرقية وسبعمائة حصان بعدتها كاملة ووزعها على العلماء والغرباء المساكين » ومن الواضح أن قدرته على أن يفعل ذلك تدل على أن المراكز الاسماعيلية كانت تبدو آمنة من خطر الهجوم ولكن سخاءه هذا جعل رعاياه يشكون إلى « ألموت » تبديد ثراءهم ويطلبون حاكماً آخر أقل تبذيراً في أموال الاسماعيليين للأجانب وأجيبوا إلى طلبهم .

وعلى أية حال لم يستمر التفاهم بين الاسماعيليين

والمغول طويلا ، فالأسياد الجدد الذين ظهروا في آسيا لم يكن في استطاعتهم التسامح ازاء استمرار استقلال هذه الجماعة الخطرة الجهادية من ذوي العقيدة ، كما لم يعدموا من بين أصدقائهم ومعارفهم مسلمين أتقياء يحذرونهم من الخطر الذي يمثله الاسماعيليون إذ يقال مثلا أن قاضي القضاة في قزوين كشف أمام الخان عن قميص من الزرد وشرح له كيف أنه يرتديه طول الوقت تحت ملابسه توقياً لخطر الاغتيال الماثل دائماً .

ولم تضع مثل هذه التحذيرات عبثاً ، اذ سرعان ما ردت على أعقابها سفارة اسماعيلية كانت في طريقها إلى البلاط الكبير في منغوليا ، ونصح قائد القوات المغولية في ايران رئيسه الخان بأن أخطر عدوين له هما الخليفة والاسماعيليون وفي كاراكوروم اتخذت احتياطات لحماية الخان ضد هجوم المبعوثين الاسماعيليين ، وعندما قاد هولاكو حملته في ايران عام ١٢٥٦ كانت القلاع الاسماعيلية أولى أهدافه .

وقد شنت الجيوش المغولية في ايران بتشجيع من بعض المسلمين هجمات على القواعد الاسماعيلية في رودبار وكوهستان ولكنها لم تحرز في البداية سوى نجاح محدود فقد صد الاسماعيليون بهجوم مضاد تقدم المغول في كوهستان كما فشل هجومهم على قلعة غيردكوه العظيمة

فشلاً ذريعاً ، والواقع انه كان في مقدور الاسماعيليين داخل حصونهم أن يبدوا مقاومة فعالة ضد هجمات المغول ولكن الامام الجديد قرر عكس ذلك .

كانت مسألة مقاومة المغول أو التعاون معهم واحدة من مسائل الخلاف الرئيسية بين ركن الدين خورشاه وأبيه علاء الدين محمد ، وعندما تولى ركن الدين الحكم حاول أن يقر السلام مع جيرانه المسلمين « فأقدم ضد نزعة أبيه على ارساء أسس الصداقة مع هؤلاء الناس ، وأرسل المبعوثين إلى كل أقاليمه يأمر الناس أن يتصرفوا كمسلمين ويبقوا الطرق مأمونة » وبعد أن أمن موقفه في الداخل على هذا النحو أرسل مبعوثاً إلى يساعور نويان Yasa'ur Noyan قائد المغول في همدان وأمره أن يبلغه « بأنه وقد جاء إلى الحكم يريد أن يتبع طريق الخضوع ويزيل غبار النفور عن ملامح الولاء » .

ونصح يساعور ركن الدين أن يقدم خضوعه وولاءه إلى هولاكو شخصياً ، ولكن الامام الاسماعيلي اقترح كحل وسط أن يبعث بأخيه شاهنشاه ، وفي نفس الوقت قام المغول بمحاولة فجة للتقدم في رودبار ولكن الاسماعيليين استطاعوا من مواقعهم الحصينة أن يردوهم على أعقابهم فانسحبوا بعد أن دمروا المحاصيل ، وفي نفس الوقت قامت القوات المغولية بغزو كوهستان مرة أخرى واستولت على عدة مراكز اسماعيلية .

ثم وصلت رسالة من هولاكو تقول ان الخان غير مكتف بسفارة شاهنشاه ، وهو يبلغ ركن الدين بأنه — أي الأخير — لم يرتكب جرما ما وانه إذا دمر قلاعه وقدم بنفسه ليقدم ولاءه شخصياً فان الجيوش المغولية سوف تعفي أراضيه من الدمار . فحاول الامام أن يساير التيار فهدم بعض قلاعه ولكنه أحدث بعض الدمار الرمزي في ألموت ومايموندیز ولامسار ، وسأل أن يمنحه الخان مهلة سنة قبل أن يمثل أمامه شخصياً ، وفي نفس الوقت أرسل أوامره إلى قواده في غيردكوه وكوهستان « أن يقدموا أنفسهم إلى الملك ويعبروا له عن ولائهم وخضوعهم » ففعلوا ذلك ولكن قلعة غيردكوه ظلت في أيدي الاسماعيليين ووصلت رسالة من هولاكو إلى ركن الدين يأمره أن يمثل أمامه فورا في دامافند Damavand واذا لم يستطع الوصول إلى هناك خلال خمسة أيام فعليه أن يرسل ابنه مقدماً .

وأرسل ركن الدين ابنه وهو صبي في السابعة إلى خان المغول ، ولكن هولاكو — وربما شك في أن الولد هو ابن ركن الدين حقاً — أعاد الصبي بحجة أنه صغير جداً واقترح أن يرسل ركن الدين أحد أخوته الآخرين كي يفرج عن شاهنشاه ، وفي نفس الوقت كان المغول يتقدمون أكثر فأكثر صوب رودبار حتى أن رسل ركن الدين حين وصلوا إلى هولاكو وجدوه على مسيرة ثلاثة أيام فقط من « ألموت » . وكان رد المغول بمثابة انذار أخير : اذا

دمر ركن الدين حصن مايموندیز وأتى ليقدم نفسه أمام الملك فان الملك طبقاً لما جرى عليه جلالته من كريم الخلال سوف يستقبله بعطف واحترام ، أما إذا لم يتدبر عاقبة أمره فان الله وحده يعلم ما سوف يحل به » . وفي تلك الأثناء كانت جيوش المغول تدخل رودبار بالفعل وتتخذ مواقع لها حول القلاع ، وأشرف هولاكو بنفسه على فرض الحصار حول قلعة مايموندیز التي يقيم فيها ركن الدين .

ويبدو أنه قد وقع خلاف في الرأي بين الاسماعيليين بين هؤلاء الذين وجدوا أن من الأحكم الاستسلام والحصول على أحسن الشروط الممكنة من هولاكو وهؤلاء الذين فضلوا القتال حتى النهاية ، وكان من الواضح أن ركن الدين نفسه من الفريق الأول ، ولا شك أن قد شجعه على هذه السياسة مستشارون من أمثال الفلكي نصر الدين الطوسي الذي كان يأمل — وله بعض الحق — انه بعد الاستسلام يستطيع أن يرتب أموره مع المغول ويبدأ مستقبلا جديداً تحت حمايتهم ، وقد كان الطوسي — كما يقال — هو الذي نصح الامام بالتسليم على أساس أن النجوم ليست في صالحه ، ثم كان الطوسي مرة أخرى هو الذي قام بالسفارة الأخيرة لركن الدين من قلعة مايموندیز إلى معسكر المغول لبحث شروط التسليم ، ووافق هولاكو على أن يستقبل ركن الدين وأسرته ومعيته وكنوزه ، وكما يقول الجويني « قدم ركن الدين كنوزه كرمز للولاء ، ولم تكن هذه

الكنوز بعظمة الشهرة التي شاعت عنها ، ولكنها بالغة ما بلغت جيء بها من القلعة وقام هولاكو بتوزيع الجزء الأكبر منها بين جنوده » .

واستقبل هولاكو ركن الدين استقبالا حسنا وسمح له بالزواج من فتاة مغولية وقع في حبها وتنازل في مقابل ذلك عن مملكته .

والواقع أن اهتمام هولاكو بركن الدين كان له ما يبرره ، فالاسماعيليون كانوا لا يزالون مسيطرين على قلاع قوية وفي امكانهم إحداث كثير من المتاعب ، ولذلك فان وجود الإمام الاسماعيلي في البلاط المغولي ليحث رعاياه على التسليم شيء له قيمته . وقد أمر هولاكو بأن تستقر أسرة ركن الدين ومعيته وخدمه وممتلكاته الشخصية وأنعامه في قزوين (تعليقات أهل قزوين على ذلك غير مسجلة) وأن يصحب ركن الدين هولاكو في حملاته القادمة .

وأوفى ركن الدين ما وعد ، فقد استسلمت طبقاً لأوامره معظم القلاع في رودبار وبالقرب من غيردكوه وفي كوهستان مما وفر على المغول مشاق كبيرة ونفقات باهظة كان لا بد أن يبذلوها في الحصار والهجوم ، وذكر المؤرخون أن عدد هذه القلاع بلغ حوالي المائة ولكن هذا تقدير مبالغ فيه بالتأكيد ، وعلى أية حال فقد رفض قواد قلعتين الاستسلام خلافاً لأوامر أمامهم وربما كان ذلك

اعتقاداً منهم انه يتصرف طبقاً لمبدأ التقية ، وهاتان القلعتان هما قلعتا رودبار المنيعتان « ألموت » و « لاماسار » فهاجمت قوات المغول القلعتين ، وبعد أيام قليلة غير قائد ألموت رأيه « وبعث برسول يطلب الصلح ويرجو حسن المعاملة وتدخل ركن الدين لصالحهم مما جعل الملك يغتفر جرائمهم ، وفي نهاية ذي القعدة من نفس العام (الذي يبدأ في ديسمبر ١٢٥٦) خرج كل نزلاء بؤرة الشر ووكر الشيطان من القلعة حاملين حوائجهم وأشياءهم ، وبعد ثلاثة أيام تسلق الجنود القلعة واستولوا على كل ما لم يستطع هؤلاء الناس حمله ، ثم أضرموا النار في المباني المختلفة لتتحول إلى رماد تذروه الرياح وتسوى بالأرض » واستطاعت « لاماسار » المقاومة لمدة عام آخر ثم استسلمت أخيرا للمغول في عام ١٢٥٨ . أما في غيردكوه فقد استطاع الاسماعيليون — الذين رفضوا أوامر ركن الدين — أن يحتفظوا بسيطرتهم على القلعة عدة سنوات قبل أن يهزموا نهائياً .

بعد استسلام معظم القلاع الاسماعيلية على هذا النحو أصبح ركن الدين غير مفيد للمغول ، كما أن مقاومة لاماسار وغيردكوه دلت على عجزه وعدم جدواه ، وهكذا أرسلت الأوامر إلى قواد المغول في قزوين بقتل كل أعضاء أسرة الإمام وأتباعه ، أما هو فقد قام بناء على طلبه والحافه بالرحلة الطويلة إلى « كراكوروم » عاصمة المغول استجداء لرضا الخان ، ولكن الخان رفض أن يقابله وقال « لم يكن

هناك داع لأن يقوم بهذه الرحلة الطويلة لأن قوانينا معروفة جيداً » وأضاف الخان « فليرجع ركن الدين ويقوم بتسليم وتخريب القلاع الباقية وعندئذ قد يسمح بالصفح عنه » . وفي الواقع لم تكن هذه فرصة حقيقية أعطيت له ، ففي طريق عودته إلى فارس وعند حد مراعي خانجاي Khangay أخذوه بعيدا عن الطريق الرئيسي بحجة الذهاب إلى وليمة ، واغتالوه . يقول الجويني « لقد أحيط به وبأتباعه وأعمل فيهم السيف ولم يتخلف عنهم أي أثر وأصبحوا حكاية على ألسنة الناس وعبرة في فم الزمن » .

غير أن استئصال شأفة الاسماعيليين في فارس لم يكن كاملاً كما يعتقد الجويني ، ففي أنظار أعضاء الفرقة استطاع ابن ركن الدين الصغير أن ينجو كالمعتاد من الابادة ويخلفه كامام بعد وفاته وعاش لينجب سلسلة من الأئمة كان من عقبهم في القرن التاسع عشر أسرة أغاخان ، وقد ظل الاسماعيليون نشطين بعض الوقت وفي عام ١٢٧٥ استطاعوا أن يستولوا على « ألموت » مرة أخرى لفترة قصيرة ، ولكنهم على أية حال كانوا قد خسروا قضيتهم وتحولوا منذ ذلك الوقت إلى فرقة صغيرة ضئيلة الأهمية في البلاد المتكلمة بالفارسية مشتتين في شرق فارس وأفغانستان وما يعرف الآن بآسيا الوسطى السوفييتية ، أما في رودبار فقدإختفوا كلية .

ويصور الجويني دمار ألموت وذل الاسماعيلية تصويراً

قوياً فيقول « في أرض الكفر حيث قلعة ألموت برودبار التي عاش فيها زمناً أنصار حسن الصباح الأشرار لم تتخلف من منازلهم طوبة فوق طوبة ، لقد خطت يد القدر بقلم الدمار على واجهة بيوتهم الآية الكريمة « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون » (النمل : ٥٢) وفي خرائب سوق تلك المملكة البائسة ارتفع صوت المؤذن صائحاً « فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين » (المؤمنون : ٤١) .

الفصل الخامس

شيخ الجبل

فيما كان حسن الصباح ما زال يحكم بقلعة «ألموت» وكانت كلماته وأسلحة مبعوثيه تحمل رسالته إلى سكان ايران وأمرائها ، قامت ثلة صغيرة من أتباعه برحلة طويلة خطرة عبر أراضي العدو نحو الغرب . كانت سوريا هي وجهتهم ، وكان غرضهم نقل « الدعوة الجديدة » إلى الاسماعيليين القدامى في تلك البلاد ، ومد الحرب ضد السلطة السلجوقية التي أصبحت مؤخراً تفرض ظلها على كل المنطقة من آسيا الصغرى إلى حدود مصر .

لقد ظهرت « الدعوة الجديدة » في ايران ، وأحرز دعاتها أول نجاح كبير لهم في الأقاليم ذات الثقافة واللغة الايرانيتين وبالتحديد في غرب فارس وشرقها وأجزاء من آسيا الوسطى ، ولكنهم عندما فكروا في التوسع غرباً برزت سوريا كأوضح اختيار أمامهم ، فقد كانت أفضل بالنسبة لهم من العراق رغم أن الأخيرة تقع إلى الغرب من فارس مباشرة ، حقاً كان يوجد في المدن العراقية عدد من

المتعاطفين مع الاسماعيلية ولكن طبيعة الوديان النهرية المسطحة لم تكن لتتيح سوى مجال ضئيل للاستراتيجية الاسماعيلية القائمة على التغلغل والتحصن والهجوم . أما سوريا فكانت شيئاً آخر إذ تمتد فيما بين جبال طوروس شمالاً وصحراء سيناء جنوباً أرض شاسعة تتخللها الجبال والوديان والصحاري التي تأوي سكاناً يتباينون فيما بينهم تبايناً شاسعاً ولديهم نزعة محلية قوية للاستقلال ، وخلافاً للمجتمعات النهرية المجاورة في العراق ومصر لم تعرف سوريا الوحدة السياسية إلا نادراً ، كان نظامها السائد يقوم على التشذر الطائفي والاقليمي والصراع المتواصل والتغير ، وبالرغم من أن السوريين كانوا يتحدثون العربية كلسان سائد إلا أنهم كانوا منقسمين إلى عديد من العقائد والفرق وبعضها ذات نزعة شيعية متطرفة . والواقع أن أول داعية شيعي ظهر في سوريا كان في القرن الثامن الميلادي ، ومع انتهاء القرن التاسع وابتداء القرن العاشر كان في استطاعة الأئمة الاسماعيليين المختبئين أن يعتمدوا على تأييد محلي كاف ليجعل من سوريا مركزاً لمقرهم السري ومسرحاً لأول محاولة يبذلونها للوصول إلى السلطة ، وبعد انشاء الخلافة الفاطمية في مصر وامتدادها إلى آسيا دخلت سوريا تحت حكم اسماعيلي متقطع في أواخر القرن العاشر وخلال القرن الحادي عشر وفتحت البلاد أمام دعاية الاسماعيليين وتعاليمهم .

وإلى جانب الاسماعيليين الصرحاء كانت هناك في سوريا طوائف أخرى شديدة القرب من الاسماعيليين في النظرية والمظهر مما جعل من تلك البلاد أرضاً خصبة لدعاية المبعوثين من ألموت ومنها مثلاً طائفة الدروز في جبل لبنان والمناطق المجاورة وهي طائفة اسماعيلية منشقة انفصلت مؤخراً عن الفرقة الأم ولم تكن قد وصلت بعد إلى حالة التحجر الذاتي التي بلغتها في الأزمنة المتأخرة ، ومنها طائفة العاويين وهم في الأصل شيعة اثني عشرية ولكنهم أكثر تأثراً بالأفكار المتطرفة وكانوا يقيمون في المناطق الجبلية بشرقي وشمال شرقي اللاذقية وربما كانوا في ذلك الوقت يقيمون أيضاً في طبرية ووادي الأردن .

وهكذا كان الزمان والمكان مناسبين للدعوة الاسماعيلية ومبشرين بالخير لها .

وفي نفس الوقت كانت أولى فصائل التركمان قد دخلت سوريا في عام ١٠٦٤ ، فخلال سبعينات القرن الحادي عشر غزا المرتزقة الأتراك ثم الجيوش السلجوقية النظامية البلاد وسرعان ما خضعت سوريا بأكملها — فيما عدا الشريط الساحلي الذي بقي في أيدي الفاطميين — لحكم السلاجقة ، وكان أمير السلاجقة هوططش Tush شقيق السلطان الأكبر ملكشاه .

وفي عام ١٠٩٥ لقي ططش مصرعه في معركة بفارس

خلال صراعه مع أخيه على رئاسة السلطنة ، وتضافرت نزعة التمزق الاقليمي السورية مع تقاليد صراع الأشقاء السلجوقية على تمزيق المملكة السورية وتحطيمها إرباً فانقسمت مرة أخرى إلى دويلات صغيرة يحكمها أمراء وقواد سلاجقة كان من أبرزهم ابنا ططش : رضوان ودوقاق اللذان يحكمان المدينتين المنافستين حلب و مشق .

وفي هذه الفترة من الفوضى والصراع المتزايد دخلت قوة جديدة إلى البلاد هي قوة الصليبيين وهؤلاء قدموا من أنطاكية في الشمال وتقدموا سراعاً على الشاطىء السوري حيث لم تكن ثمة قوة في استطاعتها الصمود لهم وأنشأوا أربع ولايات لاتينية في أديسا وأنطاكية وطرابلس والقدس .

أدى دخول السلاجقة في سوريا إلى استجلاب كثير من مشاكل التغير الاجتماعي والتوترات المألوفة في الشرق ، كما أن صدمة الغزو اللاتيني (الصليبي) ضاعفت من هموم السوريين وشعورهم بالاحباط وجعلهم كل ذلك أكثر استعداداً للترحيب بحملة رسالة تبشر بالأمل لاسيما هؤلاء الذين أعدتهم معتقداتهم القائمة لقبول مثل هذه الرسالة . وكان الفاطميون في القاهرة لا يزال لهم أنصار في سوريا يعتنقون « الدعوة القديمة » للاسماعيلية ولكن الضعف المخزي والشائن للنظام القائم في القاهرة وفشله في مقاومة الخطر التركي والغزو اللاتيني على السواء دفع الكثيرين من أنصاره في سوريا إلى تحويل ولائهم إلى الفرع الاسماعيلي

الآخر الذي كان أكثر نشاطاً وأكثر ميلاً للجهاد وبالتالي بدا أكثر قدرة على النجاح ، حقاً لقد حافظ بعض الشيعة ومعظم السنة على ولاءاتهم القديمة ولكن كان هناك الكثيرون ممن التفوا حول القوة الجديدة التي بدا أنها وحدها القادرة على تهيئة التصدي الفعال للغزاة القادمين من الخارج والحكام القابعين في الداخل .

القلاع والارهاب

ومنذ البداية حاول عملاء « ألموت » في سوريا استخدام نفس الوسائل وتحقيق نفس النتائج كما فعل رفاقهم في فارس ، كان هدفهم الاستيلاء على القلاع أو الحصول عليها لاستخدامها كقواعد لحملة الارهاب ، وتحقيقاً لهذا الهدف حاولوا اثارة حمية المؤمنين خاصة في المناطق الجبلية ، وفي نفس الوقت لم يكونوا ليأنفوا عن أي تعاون مع الأمراء المحليين حيث كانت التحالفات المحدودة والمؤقتة تبدو مفيدة للطرفين .

ولكن بالرغم من هذه المساعدة وبالرغم من النجاح المؤقت الذي حققوه فقد وجد الاسماعيليون مهمتهم في سوريا أصعب منها في فارس وربما كان بعض السبب أن دعاة الاسماعيلية في سوريا كانوا فرساً يعملون في وسط غريب عنهم ، وهكذا مضى نصف قرن تقريباً من الجهد

الشاق قبل أن يحققوا أول هدف لهم وهو الحصول على مجموعة من المراكز القوية بوسط سوريا في المنطقة الجبلية التي كانت تعرف وقتئذ بجبل البهرة وتعرف الآن بجبل الانصارية . وكان زعماؤهم جميعاً — بالقدر الذي نعرف — من الفرس الذين أرسلوا من « ألموت » ويعملون تحت أوامر حسن الصباح وخلفاؤه ، وقد مر كفاحهم لتدعيم أنفسهم في ثلاث مراحل ، وقد استطاعوا خلال المرحلتين الأوليتين وتنتهيان في عامي ١١١٣ و ١١٣٠ أن يعملوا بنجاح في حلب ودمشق برضا حكام المدينتين كما حاولوا تدعيم أنفسهم في المناطق المجاوره ، ولكن المرحلتين انتهتا في آخر الأمر بالفشل والكارثة . وخلال المرحلة الثالثة التي بدأت في ١١٣١ تمكنوا في النهاية من الحصول على القواعد التي يحتاجون اليها وتحصينهـــا .

وتاريخ الاسماعيليين السوريين — كما سجله المؤرخون السوريون — يعد في معظمه تاريخاً للاغتيالات التي قاموا بها ، وتبدأ القصة في أول مايو ١١٠٣ باغتيال مثير لجناح الدولة حاكم حمص في المسجد الجامع بالمدينة أثناء صلاة الجمعة ، وكان قتلته فارسيين متخفين في زي الصوفية وقد هاجموه لدى اشارة من شيخ كان يصحبهم وقام عراك دام قتل فيه عدد من حراس جناح الدولة وقاتلوه ، ومما له دلالة خاصة أن معظم الأتراك في حمص فروا إلى دمشق عقب الحادث .

كان جناح الدولة عدواً لرضوان الحاكم السلجوقي لحلب ويتفق معظم المؤرخين على أن رضوان كانت له يد في اغتياله كما نجد لديهم بعض التفاصيل الأخرى فيقولون إن زعيم الحشاشية كما كانوا يسمونه في سوريا كان يدعى « الحكيم المنجم » ، وقد كان هو وأصدقاؤه من فارس واستقروا في حلب حيث سمح لهم رضوان بممارسة شعائرهم والدعوة لديانتهم واستخدام المدينة بالتالي قاعدة لمزيد من النشاط ، وكانت حلب لها مزايا واضحة بالنسبة للحشاشين ، فالمدينة يسكنها عدد كبير من الشيعة الأثني عشرية وهي مجاورة لمناطق الشيعة المتطرفين في جبل السماق وجبل البهرة ، ولما كان رضوان ضعيف العقيدة الدينية لذا فقد وجد في الحشاشين فرصة لتجنيد مزيد من العناصر الجديدة لتأييده مما يعوضه عن ضعفه العسكري بين منافسيه في سوريـــا .

لم يبق الحكيم المنجم على قيد الحياة بعد جناح الدولة بأكثر من أسبوعين أو ثلاثة . ثم خلفه فارسي آخر كزعيم للحشاشين يدعى أبو طاهر الصايغ . وكان يعمل صائغاً في الأصل ، واحتفظ أبو طاهر برضا رضوان وحرية الحركة في حلب ، ثم بدأ في سلسلة من المحاولات للاستيلاء على نقط استراتيجية في الجبال الواقعة إلى الجنوب من المدينة ، ويبدو انه استطاع الحصول على مساعدة محلية كما يبدو انه

استطاع الاحتفاظ ببعض الأماكن وان يكن ذلك لفترة قصيرة .

وشن الاسماعيليون أول هجوم مسجل لهم في سوريا ضد أفاميا Afamiya في عام ١١٠٦ ، وكان حاكم هذه المدينة يدعى خلف بن ملاعب وهو شيعي وربما كان اسماعيلياً من أنصار القاهرة لا ألموت ، وفي عام ١٠٩٦ استولى على أفاميا من رضوان واستغل موقع المكان في استخدامه كقاعدة لحملات ناجحة واسعة النطاق لقطع الطريق ، وقرر الاسماعيليون أن أفاميا تخدم أغراضهم جيداً ودبر أبو طاهر خطة لقتل خلف والاستيلاء على قلعته واشترك في المؤامرة بعض سكان أفاميا وكانوا من الاسماعيليين المحليين وزعيمهم يدعى أبو الفتح وهو قاض من سارمين Sarmin المجاورة ، وقدمت مجموعة تضم ستة حشاشين من حلب لتنفيذ الهجوم « فاستولوا على حصان وبغل وتجهيزات للافرنج بما فيها درع وسلاح وقدموا بها من حلب إلى أفاميا وقالوا لخلف « لقد جئنا إلى هنا لندخل في خدمتك لقد عثرنا بفارس من الافرنج وقتلناه وجئنا لك بحصانه وبغله وتجهيزاته » فرحب بهم خلف ترحيباً كبيراً وسمح لهم بالاقامة في قلعة أفاميا بمنزل ملاصق للسور واستطاعوا أن ينقبوا ثغرة في السور نفذ خلالها أنصارهم في أفاميا وقتلوا « خلف » واستولوا على الحصن » حدث ذلك يوم ٣ فبراير ١١٠٦ ولم يلبث أن وصل أبو طاهر

بنفسه من حلب لتولي القيادة .

ولكن الهجوم على أفاميا لم ينجح بالرغم من بدايته ، فان تانكريد Tancred الأمير الصليبي في أنطاكية المجاورة استغل الفرصة لمهاجمة أفاميا ويبدو أنه كانت لديه معلومات كافية عن الموقف وأحضر معه سجيناً شقيق أبي الفتح من سارمين وقد قنع في أول الأمر بفرض الجزية على الحشاشين وتركهم حيث هم ولكنه عاد في سبتمبر من نفس العام وحاصر المدينة وأرغمها على الاستسلام وأسر أبا الفتح السارميني وعذبه حتى القتل ، وأخذ أبا طاهر وزملاءه كسجناء ثم سمح لهم بافتداء أنفسهم والعودة إلى جلب .

هذا الصدام الأول بين الحشاشين والصليبيين واحباط خطتهم المتقنة على يد أمير صليبي لم يؤد إلى تحويل انتباه الحشاشين من الأهداف الاسلامية إلى الأهداف المسيحية ، بل ظل صراعهم الأساسي موجهاً ضد رؤساء الاسلام وليس ضد أعداء الاسلام ، كان هدفهم المباشر الاستيلاء على قاعدة مهما يكن أصحابها ، وكان غرضهم الأكبر ضرب السلطة السلجوقية أينما ظهرت .

وفي عام ١١١٣ أحرز الاسماعيليون أكثر ضرباتهم طموحاً حتى ذلك الحين بقتلهم الأمير مودود في دمشق ، وكان الأمير مودود هو الحاكم السلجوقي للموصل وجاء

على رأس بعثة عسكرية من الشرق إلى سوريا بحجة مساعدة المسلمين السوريين في حربهم ضد الصليبيين ، ولكن الحشاشين رأوا في هذه البعثة خطراً واضحاً عليهم ، ولم يكونوا وحدهم في مخاوفهم تلك ، فعندما وصل مودود وقواته إلى حلب عام ١١١١ أغلق رضوان أبواب المدينة في وجههم وتجمع الحشاشون حوله لمساعدته ويقال إن حاكم دمشق المسلم هو الذي أوصى باغتيال مودود وهي شائعة انتشرت في ذلك الوقت وسجلتها المصادر المسيحية والاسلامية على السواء .

واتضح خطر الحشاشين على نفوذ السلاجقة في الشرق بعد وفاة حاميهم رضوان في ١٠ ديسمبر ١١١٣ فان نشاط الحشاشين في حلب جعلهم مكروهين لدى سكان المدينة . وفي عام ١١١١ وقعت محاولة فاشلة لاغتيال ثري فارسي مقيم بالمدينة ومن خصوم الاسماعيليين الأقوياء وأدت إلى انفجار حملة من السخط الشعبي عليهم والواقع انه بعد وفاة رضوان خلفه ابنه ألب ارسلان Alp Arslan واتبع في أول الأمر سياسة أبيه بل وتنازل للاسماعيليين عن حصن على الطريق إلى بغداد ، ولكن لم يلبث أن حدث رد الفعل فقد وصل خطاب من السلطان السلجوقي الأكبر محمد إلى ألب ارسلان يحذره فيه من خطر الاسماعيليين ويحثه على تدميرهم . وقام ابن البديع زعيم سكان المدينة وقائد حرسها الوطني بالتقاط المبادرة وحث الحاكم على اتخاذ تدابير

عنيفة ضدهم « فاعتقل أبو طاهر الصائغ وقتله ، كما قتل اسماعيل الداعي وأخ الحكيم المنجم وزعماء هذه الطائفة في حلب واعتقل حوالى ٢٠٠ منهم وسجن بعضهم واستولى على ممتلكاتهم ، وقد سمح فيما بعد باطلاق سراح البعض نتيجة لشفاعات وألقى بالآخرين من سطح القلعة فقتلوا بينما تمكن البعض من الهرب والتفرق في أنحاء البلاد » .

ولكن بالرغم من هذه النكسة والفشل في الحصول على حصن منيع دائم حتى الآن لم تضع البعثة الاسماعيلية الفارسية وقتها سدى خلال ولاية أبي طاهر ، فقد استطاعت انشاء اتصالات مع العناصر المحلية الموالية وأن تكسب ولاء الاسماعيليين المنتمين إلى فروع أخرى وغيرهم من الشيعة المتطرفين من مختلف الفرق السورية المحلية كما استطاعت أن تعتمد على تأييد محلي هام في جبل السماق وجزر Jazr وبلاد بني عليم Banu Ulaym التي تحتل اقليماً استراتيجياً هاماً بين شيزار Shayzar وسارمين وحصلوا على نواة تأييد في مناطق أخرى في سوريا وخاصة على خط اتصالهم شرقاً مع « ألموت » وكانت أقاليم الفرات شرقي حلب معروفة كمراكز للتطرف الشيعي في الأزمنة القديمة واللاحقة . ومن المؤكد — رغم عدم وجود أدلة مباشرة عن هذه السنوات — أن أبا طاهر لم يهمل هذه الفرص ، فمما يلاحظ أنه في وقت مبكر يرجع إلى ربيع عام ١١١٤ قامت قوة من حوالى مائة اسماعيلي من أفاميا وسارمين وغيرهما من المناطق بالاستيلاء على معقل

شيزار الإسلامي بعد هجوم مفاجيء بينما كان حاكم المعقل وجنوده في مكان بعيد يشاهدون احتفالات المسيحيين بعيد الفصح ، وقد تعرض المهاجمون فور ذلك لهجوم مضاد أوقع بهم الهزيمة والدمار .

وحتى في حلب استطاع الاسماعيليون بالرغم من كارثة عام ١١١٣ أن يحتفظوا لأنفسهم بموضع قدم ، وفي عام ١١١٩ تم طرد عدوهم ابن البديع من المدينة وهرب إلى ماردين Mardin وكان الحشاشون في انتظاره وهو يعبر الفرات فقتلوه هو وابنيه ، وفي العام التالي طلبوا من حاكم حلب أن يمنحهم احدى القلاع ولكن الحاكم كان غير راغب في ذلك وخائف من أن يرفض طلبهم فلجأ إلى الحيلة بأن دمر القلعة بسرعة متظاهراً بأن أوامر سابقة قد صدرت بذلك ، وقد اغتيل القائد الذي أشرف على تدمير القلعة بعد ذلك بعدة سنوات . ولكن نهاية نفوذ الاسماعيليين في حلب جاءت في عام ١١٢٤ عندما اعتقل الحاكم الجديد للمدينة العميل الاسماعيلي المحلى لكبير الدعاة وطرد أنصاره الذين باعوا ممتلكاتهم ورحلوا .

كان الذي يرأس الاسماعيليين في حلب في ذلك الوقت عميل محلي وليس كبير الدعاة نفسه ، وبعد اعدام أبي طاهر نقل خليفته بهرام مركز النشاط الرئيسي للفرقة إلى الجنوب وسرعان ما بدأ يلعب دوراً نشطاً في شئون دمشق ، وكان بهرام كأسلافه فارسياً وهو ابن أخ الأزربادي الذي

أعدم في بغداد عام ١١٠١ وقد ظل لفترة من الوقت « يعيش متخفياً في سرية تامة مخفياً شخصيته باستمرار مما كان يمكنه من الانتقال من مدينة إلى مدينة ومن قلعة إلى قلعة دون أن يعرف أحد شخصيته » ويكاد يكون من المؤكد أن قد كانت له يد في اغتيال البرزقي حاكم الموصل في المسجد الجامع بالمدينة في ٢٦ نوفمبر ١١٢٦ ، وقد كان بعض قتلته الثمانية على الأقل الذين تخفوا في زي الصوفية وطعنوه سوريين ، ويحكي المؤرخ الحلبي كمال الدين ابن العديم قصة غريبة فيقول « ان كل الذين هاجموه قد قتلوا فيما عدا شاب واحد جاء من كفر ناصح من اقليم ازاز Azaz (شمال حلب) وقد استطاع أن يهرب دون أن يصاب بأذى وكانت له أم مسنة عندما سمعت بأن البرزقي قد قتل وان ابنها من بين قتلته ابتهجت وكحلت عينيها وامتلأت حبوراً وبعد أيام عاد ابنها سليماً فحزنت ومزقت شعرها وسودت وجههـــا » .

وفي نفس العام ١١٢٦ تأتينا أول أنباء مؤكدة عن التعاون بين الحشاشين والحاكم التركي لدمشق توتيجين Tughtigin فطبقاً للمؤرخ الدمشقي ابن القلانيسي قامت في شهر يناير من ذلك العام عصابات من الاسماعيلية من حمص وكل مكان « مشهود لها بالشجاعة والاقدام » بالاشتراك مع قوات توتيجين في هجوم فاشل على الصليبيين وقرابة انتهاء العام ظهر بهرام علناً في دمشق ومعه خطاب

توصية من « الغازي » حاكم حلب الجديد ، وقد أحسن استقباله في دمشق وسرعان ما اكتسب مركز قوة بفضل الحماية الرسمية التي حصل عليها وكان أول طلب له — طبقاً لاستراتيجية الفرقة — الحصول على قلعة ، ومنحه توتيجين قلعة بانياس على الحدود مع مملكة القدس الصليبية، ولكن ذلك لم يكن كل شيء ، فقد حصل الاسماعيليون في دمشق نفسها على بناية أسموها « القصر » و « بيت الدعوة » واتخذوها كمقر لهم ، ويلقى المؤرخ الدمشقي باللائمة الأساسية عن هذه الأحداث على عاتق الوزير المزرجاني الذي وإن لم يكن اسماعيلياً في حد ذاته إلا انه كان شريكاً في خططهم وكان بمثابة النفوذ الشرير وراء العرش ، ويعتقد المؤرخ أن توتيجين لم يكن يحب الحشاشين وانما كان يتمشى معهم فحسب لأسباب تكتيكية حتى يحين الوقت كي يوجه اليهم ضربة حاسمة ، أما المؤرخون الآخرون فانهم مع اعترافهم بدور الوزير يلقون بالمسئولية الأساسية على الحاكم ويعزون ما فعل إلى تأثير « الغازي » الذي أنشأ معه بهرام علاقات حميمة عندما كان لا يزال في حلب .

وفي بانياس أعاد بهرام بناء القلعة وتحصينها ، وبدأ في سلسلة من العمليات الحربية والدعائية في المناطق المجاورة ، يقول ابن القلانيسي انه « بعث بمرسليه في كل الاتجاهات لاثارة جمهور كبير من الجهلاء من الأقاليم والفلاحين

الحمقى في القرى والرعاع وحثالة المجتمع » كما استطاع بهرام وأتباعه اتخاذ بانياس قاعدة لاغارات واسعة يشنونها على الأنحاء المجاورة ومن المحتمل أن يكونوا قد تمكنوا من احتلال مناطق أخرى ، ولكن لم يلبث أن تلبدت حولهم الغيوم ، فقد كان وادي التيم في اقليم الحصبية يسكنه خليط من الدروز والنصارى والملاحدة وكان يبدو ملائماً للتوسع الاسماعيلي ، وقد لقي براق بن جندل أحد الرؤساء المحليين في المنطقة مصرعه على أيدي الاسماعيليين الذين أسروه وقتلوه غيلة وخيانة ، وبعد قليل شرع بهرام وقواته في احتلال الوادي ولكنهم لقوا مقاومة عنيفة من دهاق بن جندل شقيق القتيل والمطالب بدمه ، وحدث اشتباك حاد هزم فيه الحشاشون ولقي بهرام نفسه مصرعه .

وتولى قيادة بانياس بعد مقتل بهرام فارسي آخر يدعى اسماعيل وقد سار على سياسة سلفه وأعماله واستمر الوزير المزرجاني في تأييده ، ولكن سرعان ما جاءت النهاية فقد توفي توتيجين في عام ١١٢٨ وأعقبت وفاته حملة من رد الفعل ضد الاسماعيليين تشبه تلك التي حدثت بعد وفاة رضوان في حلب . وجاءت المبادرة هنا أيضاً من حاكم المدينة مفرج بن الحسن بن الصوفي وكان خصماً متحمساً للفرقة وعدواً للوزير ، فقد تكاتف هذا الحاكم مع قائد الجند في المدينة يوسف بن فيروز على تحريض بوري Buri ابن توتيجين وخليفته على توجيه ضربة قاضية للاسماعيليين ،

وفي يوم الأربعاء ٤ سبتمبر ١١٢٩ حدثت هذه الضربة فقد اغتيل الوزير – بأوامر من بوري – وهو جالس في الديوان لاستقبال الزائرين وفصلت رأسه عن جسده وطيف بها في الشوارع وما أن انتشر النبأ حتى قام العسكر في المدينة ومعهم الرعاع على الحشاشين قتلاً ونهباً « وما أن جاء الصباح حتى كانت أحياء المدينة وطرقاتها قد طهرت من الباطنية (– الاسماعيلية) والكلاب تلغ وتتشاجر فوق أشلائهم وجثثهم ، وقدر أحد المؤرخين عدد الحشاشين الذين قتلوا في هذه الأحداث بستة آلاف بينما قدره آخر بعشرة آلاف ، وثالث بعشرين ألفاً ، وتحقق اسماعيل في بانياس أن موقفه يائس فسلم القلعة إلى الفرنج وفر هارباً هو نفسه إلى أراضي الفرنجة حيث مات في بداية عام ١١٣٠ ، أما القصة التي تكررت كثيراً عن وجود مؤامرة من الوزير والحشاشين لتسليم دمشق إلى الافرنج فانها تعتمد على مصدر واحد غير وثيق ويمكن رفضها تماماً كاشاعة كاذبة معادية .

وقد اتخذ بوري ومساعدوه احتياطات واسعة لحماية أنفسهم من انتقام الحشاشين فارتدوا شباكاً من الزرد وأحاطوا أنفسهم بحراس مدججين بالسلاح ، ولكن بلا جدوى ، اذ لم تلبث أن جاءت الضربة من مركز الفرقة في ألموت ، ففي ٧ مايو ١١٣١ تمكن فارسيان متخفيان في زي جنديين

تركيين من الدخول في خدمة بوري وطعنه بالخناجر ، وقد سجل اسماهما في قائمة الشرف بألموت ، وفوراً مزق الحراس جسدي القاتلين ولكن بوري نفسه توفي متأثراً بجراحه في العام التالي ، ولكن بالرغم من هذه الضربة الناجحة فان الحشاشين لم يستردوا أبداً مراكزهم في دمشق ، وكان من العسير عليهم في الواقع أن يأملوا في ذلك في مدينة سنية محافظة كدمشق .

في مواجهة الفاطميين والصليبيين

وخلال تلك الفترة كان الحشاشون يكافحون عدواً آخر إلى جانب الترك ، ففي نظرهم كانت الخلافة الفاطمية التي لا تزال تحكم في القاهرة غاصبة ، ومن الواجب المقدس العمل على طردها وانشاء امامة من خط نزار محلها ، وخلال النصف الأول من القرن الثاني عشر نشبت في القاهرة أكثر من ثورة موالية للنزاريين وأمكن اخمادها ، وبذل الحكم في القاهرة اهتماماً كبيراً في مواجهة دعاية النزاريين بين المواطنين ، وأصدر الخليفة « الأمير » مرسوماً خاصاً دافع فيه عن حقوق خطه الخاص في الخلافة ورفض دعاوى النزاريين ، وهناك قصة طريفة تلحق بهذه الوثيقة ، فيقال ان بعثة فاطمية قرأتها على الحشاشين في دمشق فأحدثت هرجاً ومرجاً وأخذها أحدهم وقدمها إلى

رئيسه الذي أضاف في المكان الخالي بأسفلها عبارة ترفض هذه الأقوال ، وقرأ النزاري هذا الرفض في اجتماع لمؤيدي الخلافة الفاطمية في دمشق فطلبت البعثة القادمة من القاهرة مساعدة الخليفة في الرد على الرفض وتلقت بالتالي بياناً آخر في تثبيت الحجج المستعلية ، ومن الممكن الربط بين هذه الأحداث وقيام الحشاشين في دمشق في عام ١١٢٠ باغتيال رجل قيل انه كان يتجسس على الحشاشين لحساب الحكومة الفاطمية .

واستخدم الحشاشون حججاً أكثر حدة ضد خصومهم الفاطميين ، ففي عام ١١٢١ أغتيل الأفضل قائد الجيوش في مصر والرجل المسئول بصفة أولية عن خلع الخط النزاري وقام باغتياله ثلاثة من الحشاشين قدموا من حلب ، وفي عام ١١٣٠ اغتيل الخليفة « الأمير » نفسه بوساطة عشرة حشاشين في القاهرة وكانت كراهيته للنزاريين مشهورة تماماً ، ويقال انه بعد وفاة بهرام حملت رأسه ويداه وخاتمه بوساطة مواطن من وادي التيم إلى القاهرة حيث تلقى ذلك المواطن مكافآت وحلة شرف جزاء خدمته .

أما عن علاقات الحشاشين مع الافرنج في ذلك الوقت فلا نعرف عنها الكثير ، ويبدو أن القصص التي ذكرتها المصادر الاسلامية فيما بعد عن التعاون الوثيق بين الاسماعيليين والأعداء الصليبيين كانت مجرد انعكاس لذهنية عصر تال عندما أصبحت حرب الاسلام المقدسة

تملأ أذهان معظم مسلمي الشرق الأدنى ، أما في الحقبة التي نتحدث عنها فان أقصى ما يمكن أن يقال ان الحشاشين كانوا يشاركون في حالة عدم المبالاة العامة التي كان يبديها المسلمون في سوريا ازاء الانقسامات الدينية ، ولا نعرف حالة واحدة سقط فيها ضحية من الافرنج تحت خناجر الفدائيين ولكننا نعرف عن حالتين على الأقل حدث فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين والجيوش الصليبية ، ولكن من ناحية أخرى كان لاجئو الحشاشين من حلب وبانياس يلجأون إلى جانب الافرنج كما أن تسليم قلعة بانياس إلى الافرنج وليس إلى الحكام المسلمين عندما هجرها الاسماعيليون كان على أرجح تقدير مجرد مسألة جغرافية .

في السنوات العشرين التالية حدثت المرحلة الثالثة والناجحة التي استطاع فيها الحشاشون الحصول على قواعد قلاعية لهم في سوريا وكانت هذه المرة في جبل البهرة إلى الجنوب الغربي من موقع محاولتهم الأولى في جبل السماق ، وقد تمكنوا من ذلك بعد محاولة فاشلة قام بها الافرنج للسيطرة على المنطقة ، ففي عام ١١٣٢ — ٣٣ باع السيد المسلم في منطقة الكهف قلعة قدموس Qadmus الجبلية للحشاشين وكان قد استعادها من أيدي الافرنج في العام السابق وبعد سنوات قليلة تنازل ابنه لهم عن منطقة الكهف كلها في سياق صراع مع أبناء عمومته على التملك ، وفي عام ١١٣٦ — ٣٧ طردت حامية للافرنج في الخريبة Khariba

بواسطة جماعة من الحشاشين تمكنوا من اعادة سيطرتهم بعد أن طردوا مؤقتاً بواسطة حاكم حماة ، أما مصيف Masyaf وهي أهم معقل للحشاشين فقد استولوا عليها في ١١٤٠ — ٤١ من حاكم عينه عليها بنو منقذ Banu Munquidh الذين اشتروا القلعة في عام ١١٢٧ — ٢٨ أما القلاع ا ُخرى للحشاشين وهي الخوابي Khawabi والرصافة Rusa a والقليعة Qu Lay'a والمنيقة Maniqa فأغلب الاحتمال أنهم حصلوا عليها في نفس الفترة تقريباً ولكنا لا نعرف الكثير عن تاريخ وكيفية الحصول على كل منها .

خلال هذه الفترة التي قام فيها الحشاشون بتدعيم أقدامهم في هدوء لم يكن لهم تأثير كبير على العالم الخارجي ولا نعرف سوى القليل من أسمائهم ، فنعرف مثلاً ان اسم الذي اشترى قدموس هو أبو الفتح ، وأن آخر كبير للدعاة قبل سنان يدعى أبو محمد ، وأن زعيماً كردياً من زعمـــاء الحشاشين يدعى علي بن وفا تعاون مع ريموند حاكم انطاكية في حملته ضد نور الدين وقتل معه في معركة عناب Inab في عام ١١٤٩ ، ولم تسجل سوى حادثتي اغتيال فقط خلال هذه السنوات ففي عام ١١٤٩ قتل دهاق بن جندل رئيس وادي التيم انتقاماً من الحشاشين لمقاومته الناجحة لبهرام في ١١٢٨ وبعد ذلك بعام أو عامين أغتيل الكونت ريموند الثاني حاكم طرابلس على أبواب تلك المدينة ، وكان بذلك أول ضحاياهم من الإفرنج .

اوفي مكاننا أن نرى فقط الخيوط العريضة لسياسة الحشاشين في تلك الفترة ، فنعرف مثلاً انهم كانوا يشعرون بالعداء تجاه بيت زنكي حاكم الموصل ، فحكام الموصل كانوا دائماً من أقوى الأمراء الأتراك وكانوا يسيطرون على خطوط المواصلات بين سوريا وفارس ولهم علاقات ودية مع الحكام السلاجقة في الشرق ، وبذلك كانوا يمثلون خطراً دائماً على وضع الحشاشين ، وقد تفاقم هذا الخطر بميل الزنكيين الى التوسع في سوريا ، وكان مودود والبرزقي قد اغتيلا بالفعل ، وتعرض الزنكيون للخطر أكثر من مرة ، وعندما احتلوا حلب في ١١٢٨ أصبح الخطر الذي يمثلونه بالنسبة للاسماعيليين مباشراً أكثر من ذي قبل ، وفي عام ١١٤٨ ألغى نور الدين بن ونكي الآذان الشيعي الذي ينادى به للصلاة في حلب ، وأدت هذه الخطوة إلى اثارة مشاعر سخط حادة ولكنها غير فعالة بين الاسماعيليين وغيرهم من طوائف الشيعة في المدينة ، وتصاعد الموقف إلى اعلان الحرب على الملاحدة ، وفي هذه الظروف ليس مما يدعو إلى الدهشة بالطبع أن نرى كتيبة من الحشاشين تحارب إلى جانب ريموند حاكم انطاكية حيث انه كان الزعيم الوحيد في سوريا الذي يمكنه أن يقدم مقاومة فعالة ضد الزنكيين في ذلك الوقت .

سنان .. شيخ الجبل

في هذه الأثناء وصل إلى القيادة أعظم رؤساء الحشاشين في سوريا وهو سنان بن سلمان بن محمد المعروف برشيد الدين ، وكان مواطناً من عقر السودان Aqr Al-Sudan وهي قرية بالقرب من البصرة على الطريق إلى واسط Wasit ويوصف أحياناً بأنه كيماوي وأحياناً بأنه معلم مدرسة ، ويقول — على عهدته — انه كان ابن مواطن بارز في البصرة ، إذ يذكر كاتب سوري معاصر له أنه قام بزيارة سنان وأجرى محادثة معه ، وفي مجرى الحديث بينهما تحدث سنان عن سنوات طفولته وتدريبه وظروف بعثته إلى سوريا فقال : « نشأت في البصرة وكان أبي أحد نبلائها ، وقد دخلت هذه الدعوة إلى قلبي ، ثم حدث شيء بيني وبين أخوتي أجبرني على تركهم وخرجت على وجهي بدون ذخيرة أو وسيلة ركوب ، وظللت أسير حتى وصلت إلى « ألموت » ودخلتها ، كان حاكمها هو كيا محمد وكان له ولدان يدعيان حسن وحسين ، وقد وضعني في المدرسة معهما ، وأولاني تماماً نفس العناية التي أولاهما بها في كل ما يحتاج اليه الأولاد من مساعدة وتعليم وملابس ، وبقيت هناك حتى مات كيا محمد وخلفه ابنه حسن ، فأمرني أن أذهب إلى سوريا ، فانطلقت إلى هناك كما انطلقت من البصرة وكنت لا أدخل أية مدينة إلا نادراً ، وكان قد زودني

بأوامر وخطابات ، ودخلت الموصل ونزلت بمسجد النجارين حيث قضيت الليلة هناك ثم واصلت طريقي لا أدخل أية مدينة حتى بلغت الرقة Raqqa وكنت أحمل خطاباً لواحد من رفاقنا هناك فسلمته اليه ، وأعطاني الرجل مؤناً وأتاح لي وسيلة ركوب حتى حلب ، وهناك التقيت برفيق آخر وسلمته رسالة أخرى فأجر لي أيضاً وسيلة ركوب وأرسلني إلى كهف ، وكانت الأوامر التي معي أن أقيم في هذه القلعة ، وبقيت هناك حتى مات في الجبل الشيخ أبو محمد رئيس البعثة ، وخلفه خواجا علي بن مسعود بدون تعيين (من ألموت) ولكن باتفاق الجماعة ، ولكن الرئيس أبا منصور ابن أخ الشيخ أبو محمد والرئيس فهد تآمرا وأرسلا شخصاً طعنه حتى الموت بينما كان يغادر حمامه ، وظلت الزعامة شورى بينهم وتم اعتقال القتلة وسجنوا ، وبعد ذلك جاءت الأوامر من « ألموت » باعدام القاتل واطلاق سراح الرئيس فهد وجاءت معها رسالة وأمر بقراءتها أمام الجماعة » .

ان النقط الأساسية في هذه الرواية تؤكدها مصادر أخرى كما تضخمها الأساطير التي نسجت حول حياة سنان والتي تقول انه قضى سبع سنوات في « كهف » ، ومن الواضح أن سنان كان محمياً من حسن علاء ذخر الاسلام وقد كشف عن نفسه لأفراد الفرقة في سوريا في عام ١١٦٢ وهو عام ارتقاء حسن الحكم في ألموت . وقصة التنازع

على الحكم في سوريا ربما كانت تعكس الخلاف بين حسن وأبيه في هذه الفترة .

في أغسطس ١١٦٤ أعلن حسن القيامة في ألموت وبعث برسله يحملون التعليمات الجديدة إلى الاسماعيليين في الجهات الأخرى ، وكان على سنان أن يفتتح الشريعة الجديدة في سوريا ، واننا لنلحظ تناقضاً غريباً بين تسجيل هذه الأحداث في كل من فارس وسوريا ، ففي فارس سجلت القيامة بأمانة بواسطة الاسماعيليين أنفسهم ويبدو أنها مرت دون أن تلحظ من جانب أهل السنة المعاصرين ، أما في سوريا فيبدو كأن الاسماعيليين قد تناسوها في حين أن المؤرخين من أهل السنة قد رددوا في فزع وتلذذ الشائعات التي بلغتهم عن اعلان انتهاء الشريعة ، كتب أحدهم يقول « انه — أي سنان — سمح لهم بتدنيس أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم وأعفاهم من صيام شهر رمضان» .

واذا كانت هذه الأخبار وشبيهاتها فيها بعض المبالغة بدون شك إلا انه من الواضح أن انتهاء الشريعة قد أعلن في سوريا بالفعل وأدى إلى بعض التجاوزات بالفعل مما دفع سنان إلى التدخل لوقف تدهور الأمور . يقول المؤرخ كمال الدين بن العديم في كتابه « زبدة الحلب من تاريخ حلب » : « في عام ٥٧٢ (١١٧٦ — ٧٧ م) انخرط سكان جبل السماق في الآثام والفسوق وأسموا أنفسهم « المتطهرين » واختلط الرجال والنساء في حفلات الشراب ،

ولم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته ، وارتدت النساء ملابس الرجال ، وأعلن أحدهم أن سنان هو ربه » فأرسل حاكم حلب جيشاً ضدهم وهربوا هم إلى الجبال حيث حصنوا أنفسهم ، أما سنان فقد أجرى تحقيقاً ونصّل نفسه من المسئولية وأقنع جيش حلب بالانسحاب ثم هاجم بنفسه هؤلاء « المتطهرين » ودمرهم . وتتحدث مصادر أخرى عن جماعات مماثلة من هؤلاء المنجذبين في تلك السنوات ، ومن المحتمل أن تكون هذه الأخبار والشائعات الغامضة عن هذه الأحداث هي التي أدت فيما بعد إلى ظهور أسطورة حدائق الفردوس لدى الحشاشين .

بعد أن فرض سنان نفسه كحاكم للاسماعيليين كان أول ما اهتم به أن يدعم مملكته الجديدة فأعاد بناء قلعتي الرصافة والخوابي وتوج مملكته بالاستيلاء على قلعة « العليقة » واعادة تحصينها . يقول المؤرخ السوري كمال الدين « انه بنى قلاعاً في سوريا للفرقة وقد كان بعضها جديداً وبعضها قلاعاً قديمة حصل عليها بالخديعة ثم حصنها وجعلها منيعة ، وغفل عنه الزمان ولم يهتم الملوك بمهاجمة ممتلكاته خوفاً من الانتقام باغتيالهم ، وقد حكم في سوريا ثلاثين عاماً ، وبعث كبير دعاتهم في ألموت مبعوثين لقتله عدة مرات خوفاً من أن يغتصب الرئاسة ، ولكنهم كانوا يقعون في قبضة سنان فيقتلهم أو يخدعهم ويقنعهم بعدم تنفيذ ما لديهم من الأوامر » وهذا يدل على أن « سنان » مع غيره من زعماء الحشاشين في

سوريا قد تخلصوا من سلطة ألموت وانتهجوا سياسة مستقلة تماماً ، ونجد تأييداً لهذا الرأي فيما حفظه الزمن من كتابات تحمل اسمه لا تزال بين أيدي الاسماعيليين السوريين في العصور الحديثة إذ لا تحوي هذه الكتابات أية اشارة إلى « ألموت » أو رؤسائها أو الأئمة النزاريين وانما تدعي أن سنان هو الزعيم المقدس الأعلى .

وفي استطاعتنا أن نستمد معلوماتنا عن سياسة الحشاشين في عهد سنان من سلسلة من الأحداث المعينة تورطوا فيها في تلك الفترة وهي محاولتان لاغتيال صلاح الدين أعقبهما هجوم فاشل قام به صلاح الدين على « مصيف » ثم اغتيال وحريق في حلب ، واغتيال الزعيم الصليبي كونراد أوف مونتفرات Conrad of Montferrat وإلى جانب ذلك هناك بعض الأنباء الغامضة عن خطابات تهديد إلى نور الدين وصلاح الدين واشارة من رحالة يهودي من أسبانيا يدعى بنيامين أوف توديلا Benjamin of Tudela إلى وجود حالة حرب بين الحشاشين ودولة طرابلس في عام ١١٦٧ .

والواقع أن ظهور صلاح الدين كمهندس للوحدة الإسلامية وحام للعقيدة السلفية وبطل للحرب المقدسة قد أدى إلى جعله في أول الأمر في موقف العدو الرئيسي للحشاشين الذين مالوا — كأمر حتمي — إلى تحسين علاقاتهم مع الزنكيين في الموصل وحلب باعتبارهم الخصوم الرئيسيين لصلاح الدين ، ونجد في خطابات بعث بها صلاح الدين إلى

الخليفة في بغداد في عام ١١٨١ — ٨٢ أنه يتهم حكام الموصل بالتحالف مع الحشاشين الملاحدة ويستخدمون وساطتهم للاتصال بالفرنجة الكفار ، ويتحدث صلاح الدين في هذه الخطابات عن أن الزنكيين وعدوا الحشاشين باعطائهم قلاعاً وأراض وبيتاً لنشر دعايتهم في حلب وأنهم أرسلوا مبعوثين إلى سنان وإلى الصليبيين ، ويؤكد صلاح الدين على دوره كمدافع عن الإسلام ضد خطر ذي ثلاث شعب : كفر الفرنجة ، والحاد الحشاشين ، وخيانة الزنكيين ، ولكن من جهة أخرى فاننا نجد المؤرخ الاسماعيلي الذي كتب سيرة سنان — ولا شك أنه يتمثل الحرب المقدسة في العصور التالية — يصور بطله على أنه متعاون مع صلاح الدين في كفاحه ضد الصليبيين .

ويبدو أن الأمرين صحيحان مع اختلاف الأزمنة .. فبالرغم من احتمال أن يكون صلاح الدين قد بالغ في درجة التعاون بين خصومه حتى يشوه صورة الزنكيين ، إلا أن من الطبيعي تماماً أن يركز خصومه المختلفون في أول الأمر هجماتهم ضده بدلاً من أن يتنازعوا فيما بينهم ، كما أن القصة الغريبة التي يحكيها ويليام الصوري William of Tyre عن اقتراح للحشاشين باعتناق المسيحية قد تعكس تقارباً حقيقياً بين سنان ومملكة بيت المقدس الصليبية .

وقعت أول محاولة للحشاشين لاغتيال صلاح الدين

في ديسمبر ١١٧٤ أو يناير ١١٧٥ بينما كان يحاصر حلب ، فيقول مؤرخو صلاح الدين ان قمشطجين Gümüshtigin الذي كان يحكم المدينة نيابة عن حاكمها الرسمي وهو طفل من أسرة زنكي أرسل إلى سنان يعرض عليه مالاً وأراض مقابل اغتيال صلاح الدين ، وبعث سنان رجالاً دخلوا معسكر صلاح الدين في يوم من أيام الشتاء القارس ولكن اكتشفهم الأمير أبو قبيس Abu Qubais الذي كان جاراً لهم ، فاستجوبهم ، فقتلوه على الفور ، وتلى ذلك عراك قتل فيه عدد كبير من الناس ولكن صلاح الدين نفسه لم يصب بسوء ، وفي العام التالي قرر سنان أن يقوم بمحاولة أخرى فبعث في ٢٢ مايو ١١٧٦ فريقاً من الحشاشين تخفوا في زي جنود جيش صلاح الدين وهاجموه بالمدى بينما كان يحاصر عزز Azaz ولكن صلاح الدين لم يصب سوى بجروح يسيرة بفضل الدروع التي كان يرتديها ، وتولى أمراؤه التصرف مع المهاجمين ، وقتل في الاشتباك عدد من الأمراء ، وتعزو بعض المصادر هذه المحاولة الثانية أيضاً إلى تحريض قمشطجين . وقد اتخذ صلاح الدين بعد هذه الأحداث احتياطات واسعة للحفاظ على حياته فكان ينام في برج خشبي أقيم خصيصاً لحمايته ولم يكن يسمح لأحد لا يعرفه شخصياً بالاقتراب منه .

ولكن من المؤكد أن تحريض قمشطجين لم يكن السبب الوحيد الذي دعا سنان إلى محاولة اغتيال صلاح الدين ،

والأكثر احتمالاً أن سنان كان يتصرف بناء على أسبابه الخاصة وقبل مساعدة قمشطجين ليحقق بذلك منافع مادية وتكتيكية ونفس هذه الاعتبارات تنطبق على ما جاء في خطاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة بينما كان في القاهرة في عام ١١٧٤ وجاء فيه ان زعماء المؤامرة الفاطمية الفاشلة في مصر في ذلك العام (وكان صلاح الدين قد أسقط الخلافة الفاطمية) قد كتبوا إلى سنان يؤكدون له اشتراكهم في عقيدة واحدة ويحثونه على اتخاذ اجراء ضد صلاح الدين ، فالمعروف أن الاسماعيليين النزاريين في سوريا وفارس لم يكونوا على ولاء لآخر الفاطميين في القاهرة وكانوا يعتبرونهم مغتصبين للخلافة غير أنه من المحتمل أن تكون هناك عناصر فاطمية قد طلبت مساعدة حشاشي سوريا ، فقد رأينا انه منذ نصف قرن مضى حاول الخليفة الفاطمي « الأمير » أن يقنع الحشاشين بقبول زعامته ولكن النزاريين رفضوا وسقط « الأمير » نفسه تحت طعنات خناجرهم ، وليس من المستبعد أن يكون سنان قد قبل مرة أخرى ولأسباب تكتيكية أن يتعاون مع المتآمرين المصريين ولكن من غير المحتمل أن يكون قد استمر في العمل لحسابهم بعد سحق مؤامرتهم في مصر ، وقد نجد تفسيراً أكثر معقولية لتصرف سنان ازاء صلاح الدين في قصة حكاها مؤرخ لاحق — رغم أنها ليست مذكورة لدى المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة — وطبقاً لهذه القصة فقد قام عشرة آلاف فارس

من « النبوية » وهي طائفة دينية معادية للشيعة في العراق بالاغارة في عام ١١٧٤ – ٧٥ على المراكز الاسماعيلية في « الباب » و « البوزعة » Buza'a حيث ذبحوا ١٣ ألف اسماعيلي وغنموا منهم أسرى وغنائم كثيرة ، وانتهز صلاح الدين فرصة ارتباك الاسماعيليين وأرسل جيشه عليهم يغزو سارمين Sarmin ومعرة ماسرين Ma'arrat Masrin وقتل معظم سكانهما ، ولا يذكر المؤرخ للأسف في أي الشهور وقعت هذه الأحداث ، ولكن إذا كانت هذه الغارة كما هو محتمل قد حدثت عندما كان جيش صلاح الدين في طريقه شمالاً إلى حلب ، فان ذلك قد يفسر عداء الحشاشين له ، وعلى أية حال فحتى بدون هذه التفسيرات من الواضح أن ظهور صلاح الدين كقوة كبرى في سوريـــا السنية المسلمة وانتهاجه سياسة توحيد المسلمين قد جعل منه خصماً خطيراً للحشاشين .

وفي أغسطس ١١٧٦ تقدم صلاح الدين في أراضي الحشاشين تحدوه الرغبة في الانتقام وحاصر مصيف ولكنه لم يلبث أن فك الحصار وانصرف . وهناك روايات مختلفة عن الظروف التي انسحب فيها ، فيعزى سكرتيره ومؤرخه عماد الدين – وتتبعه في قوله معظم المصادر العربية الأخرى – سبب الانسحاب إلى وساطة أمير حماة حال صلاح الدين الذي ناشده جيرانه الحشاشون التدخل لصالحهم لدى ابن أخته ، بينما يقدم مؤرخ آخر سبباً أكثر اقناعاً وهو هجوم

الفرنجة على وادي البقاع وما ترتب على ذلك من حاجة عاجلة إلى تواجد صلاح الدين هناك ، أما كمال الدين بن العديم فيذكر في تاريخه عن حلب ان صلاح الدين هو الذي طلب وساطة أمير حماة مناشدتهم السلام نتيجة فيما يبدو لهلع أصابه من أساليب الحشاشين ، أما الرواية الاسماعيلية فتقول ان صلاح الدين أصابه الرعب من القوى الخارقة للطبيعة التي يتمتع بها سنان ،فتدخل أمير حماة لصالحه ورجا سنان أن يسمح له أن يرحل في سلام ، ووافق صلاح الدين على الانسحاب ومنحه سنان الأمن والسلام وأصبح الاثنان من أحسن الأصدقاء ، ومن الواضح أن الرواية الاسماعيلية مشحونة بالأساطير ولكن يبدو أنها تحوي عنصراً من الصدق وهو التوصل إلى نوع من الاتفاق بين الرجلين ومن المؤكد أننا لن نسمع فيما بعد عن أية أعمال عدائية صريحة قام بها الحشاشون ضد صلاح الدين بعد انسحابه من مصيف بل وتوجد لمحات تدل على التعاون فيما بينهما .

ويقص المؤرخون عديداً من القصص بغرض تفسير – وربما تبرير – تسامح صلاح الدين ازاء الحشاشين فيقال ان صلاح الدين بعث ذات مرة برسالة تهديد إلى رئيس الحشاشين فكان رده كالتالي « قرأنا خطابك وفهمنا نصه وفحواه ولاحظنا ما يحتوي عليه من تهديدات لنا بالكلمات والأفعال ، ووالله انه لشيء يدعو إلى الدهشة أن نجد ذبابة تطن في اذن فيل وبعوضة تلدغ تمثالاً ، كثيرون قبلك قالوا

مثل هذه الأشياء ودمرناهم دون أن يشفع لهم شفيع فهل تبطل الحق وتؤيد الباطل ؟ « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » إذا كنت حتماً قد أصدرت أوامرك بقطع رأسي وتمزيق قلاعي في الجبال الصلدة فان هذه آمال كاذبة وخيالات واهمة لأن الأساسيات لا تدمرها العارضات كما أن الأرواح لا تدمرها الأمراض ، أما إذا عدنا إلى المحسوسات التي تدركها الحواس وتركنا جانباً المعنويات التي تدركها الأذهان فان لدينا أسوة حسنة برسول الله الذي قال « لم يقاس نبي مثلما قاسيت » وأنت تعرف ماذا حدث لدعوته وأهل بيته وحزبه ، ولكن الموقف لم يتغير والرسالة لم تفشل وحمد الله لا يزال أولاً وأخيراً . اننا مضطهدون ولسنا طغاة محرومون ولسنا حارمين « قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » وأنت تعرف ظاهر أحوالنا وقدر رجالنا ، وما يمكن أن يحققوه في لحظة واحدة وكيف يحبون الموت « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » والمثل الشائع يقول انك لا تستطيع أن تهدد بطة بالقائها في النهر ! فخذ كل ما في استطاعتك اتخاذه من احتياطات دون الكوارث والفواجع فانني هازمك من داخل صفوفك ، ومنتقم منك في مكانك ، وستكون كمن يدمر نفسه بنفسه « وما ذلك على الله بعسير » عندما تقرأ خطابنا هذا فارتقبنا

وترحم على نفسك واقرأ أول « النحل » [١] وآخر « صاد » [٢] !

وهناك قصة أكثر اثارة يحكيها كمال الدين نقلاً عن أخيه فيقول : « أخبرني أخي عليه رحمة الله أن سنان أرسل مبعوثاً إلى صلاح الدين رحمة الله عليه وأمره أن يسلم رسالته اليه دون حضور أحد فأمر صلاح الدين بتفتيشه وعندما لم يجدوا معه شيئاً خطيراً أمر صلاح الدين بالمجلس فانفض ولم يعد ثمة سوى عدد قليل من الناس وأمر المبعوث أن يأتي برسالته ، ولكن المبعوث قال « أمرني سيدي أن لا أقدم الرسالة إلا في عدم حضور أحد فأمر صلاح الدين باخلاء القاعة تماماً إلا من اثنين من المماليك يقفان عند رأسه وقال : إيت برسالتك ، ولكن مبعوث سنان أجاب « لقد أمرت بأن لا أقدم الرسالة فيحضور أحد على الاطلاق » فقال صلاح الدين « هذان المملوكان لا يفترقان عني ، فاذا أردت فقدم رسالتك والا فارحل » فقال المبعوث « لماذا لا تصرف هذين الاثنين كما صرفت الآخرين ؟ » فأجاب صلاح الدين « انني أعتبرهما في منزلة أبنائي وهم وأنا واحد » عندئذ التفت المبعوث إلى المملوكين وسألهما « إذا أمرتكما باسم سيدي أن تقتلا هذا السلطان فهل تفعلان ؟»

---

(١) « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون » .
(٢) « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

فردا قائلين : نعم ، وجردا سيفيهما وقالا « أأمرنا بما شئت » فدهش السلطان صلاح الدين عليه رحمة الله وغادر المبعوث المكان وأخذ معه المملوكين ، ومنذ ذلك الحين مال صلاح الدين عليه رحمة الله إلى مسالمة سنان والدخول معه في علاقات ودية ، والله أعلم » .

في ٣١ أغسطس ١١٧٧ اغتال الحشاشون شهاب الدين ابن العجمي وزير المالك الصالح الزنكي في حلب والوزير السابق لنور الدين بن زنكي ، ولكنهم فشلوا في اغتيال اثنين من كبار أصحاب الوزير معه ، ويعزو المؤرخون السوريون هذا الاغتيال إلى تحريض قمشطجين الذي قيل أنه زور توقيع الملك الصالح على خطاب إلى سنان يطلب فيه إرسال حشاشين لاغتيال شهاب الدين ومصدر هذه القصة اعترافات الحشاشين أنفسهم الذين زعموا في التحقيق أنهم يعملون بأوامر الملك الصالح نفسه ، ويقال ان الخدعة اكتشفت خلال المراسلات التالية بين الملك الصالح وسنان ، وقد استغل أعداء قمشطجين الفرصة لاسقاطه ، ومهما كان نصيب هذه القصة من الصدق فان موت الوزير شهاب الدين وما تلاه من اضطراب وسوء ظن بين الزنكيين والحشاشين لا بد أن يكون قد لقي ترحيباً من صلاح الدين .

واستمر النزاع بين حلب وسنان ففي عام ١١٧٩ — ٨٠ استولى الملك الصالح على الهجيرة من الحشاشين ، ولم تؤد

احتجاجات سنان إلى أية نتيجة فأرسل عملاءه إلى حلب حيث أشعلوا النار في سوق المدينة مما أسفر عن خسائر كبيرة ، ولم يتم القبض على أحد ممن أشعلوا الحريق ، وهي حقيقة تدل على أن الحشاشين كانوا ما يزالون يتمتعون بتأييد محلي في المدينة .

في ٢٨ أبريل ١١٩٢ تمكن الحشاشون من توجيه ضربتهم الكبرى باغتيال المركيز كونراد أوف مونتفيرات Conrad of Montferrat ملك بيت المقدس بينما كان في صور ، وتتفق معظم المصادر على أن مغتاليه تخفوا في زي رهبان مسيحيين وشقوا طريقهم إلى خلوة الاسقف والمركيز ، وعندما سنحت لهم الفرصة طعنوه حتى الموت وقرر مبعوث صلاح الدين في صور أن القاتلين عندما استجوبا اعترفا بأن ملك انجلترا هو الذي دبر عملية الاغتيال وتسجل معظم المصادر الشرقية وبعض المصادر الغربية أن مثل هذا الاعتراف قد تم حقاً ، ومما يعطي تأييداً لهذه القصة ان ريتشارد قلب الأسد (ملك انجلترا) كانت له مصلحة واضحة في اختفاء المركيز وكذلك السرعة المريبة التي تم بها زواج الكونت هنري أوف شمبانيا Henry of Champagne من أرملة كونراد وارتقاؤه عرش مملكة بيت المقدس ، وفي مقدور الإنسان أن يفهم كيف أن هذه القصة وجدت انتشاراً واسعاً في ذلك الوقت ، ولكن سواء كان القاتلان قد ذكرا الحقيقة في اعترافهما أم لا

فمسألة أخرى ، فمن ناحية أخرى نجد مؤرخ الزنكيين ابن الأثير – ولا بد هنا من الاشارة إلى كراهيته لصلاح الدين – يذكر أن هذه الرواية كانت شائعة فقط بين الافرنج أما هو فيؤكد أن صلاح الدين نفسه كان مدبر هذا الاغتيال بل ويذكر كمية المال التي دفعها إلى سنان للقيام بهذا العمل ، ويقول ابن الأثير أن خطة صلاح الدين كانت تقضي بقتل ريتشارد نفسه وكونراد ، ولكن كان من المستحيل قتل ريتشارد . أما السيرة الاسماعيلية فتعزو المبادرة إلى سنان بعد حصوله على موافقة صلاح الدين المسبقة وتعاونه ، ولكن هذا الاقرار أيضاً من جانب الكاتب الاسماعيلي ينبغي أن ينظر اليه في ضوء رغبته الواضحة في الايحاء بأن سنان كان على تعاون وثيق مع صلاح الدين في الحرب المقدسة، ولذلك فقد أضاف معلومات غير محتملة تقول ان صلاح الدين كافأه على هذا العمل بأن منح الحشاشين كثيرا من الامتيازات بما فيها الحق في اقامة بيوت للدعوة لمذهبهم في القاهرة ودمشق وحمص وحماه وحلب وغيرها من المدن ، وربما نجد في هذه القصة آثاراً مبالغ فيها تدل على نوع من الاعتراف المؤكد الذي أولاه صلاح الدين للحشاشين في الفترة التالية لاتفاق مصيف – أما عماد الدين من جهة أخرى فيبلغنا بأن اغتيال كونراد لم يكن ملائماً لصلاح الدين لأن كونراد رغم أنه كان واحداً من زعماء الصليبيين إلا انه كان عدواً لريتشارد المقيت ، وكان على

اتصال مع صلاح الدين في الوقت الذي لقي فيه مصرعه ، وقد أدت وفاة كونراد إلى تخليص ريتشارد من القلق وتشجيعه على مواصلة الحرب ، وبعد أربعة شهور من هذه الأحداث وقع هدنة مع صلاح الدين شملت بناء على طلب صلاح الدين أراضي الحشاشين أيضاً .

كان اغتيال كونراد آخر منجزات سنان ، ففي عام ١١٩٢ – ٩٣ أو ١١٩٣ – ٩٤ مات شيخ الجبل المخيف وخلفه فارسي يدعى نصر ، وفي عهده يبدو أن « ألموت » قد استعادت سلطتها على اسماعيلي سوريا وظلت كذلك إلى ما بعد الغزو المغولي ، ونعرف عن هذه الفترة أسماء بعض كبار الدعاة في تواريخ مختلفة حفظتها لنا المصادر الأدبية ونقوش المراكز الاسماعيلية في سوريا ، ومعظم هذه الأسماء يشار اليها باعتبار أصحابها مبعوثين من « ألموت » .

سياسات الحشاشين

وقد تأثر أيضاً الحشاشون في سوريا باعتبارهم من مواطني « ألموت » بالسياسة الجديدة التي أعلنها جلال الدين حسن الثالث والخاصة باعادة حكم الشريعة والتحالف مع الخليفة في بغداد ففي عام ١٢١١ أرسل سيد « ألموت » رسائل إلى سوريا يطلب فيها من أتباعه السوريين بناء المساجد واداء الصلوات والشعائر الدينية وتجنب الخمر

والمخدرات وغيرها من الممنوعات ومراعاة الصوم وكل ما تأمر به الشريعة المقدسة .

ولا نعرف الكثير عن كيفية تأثير اصلاحيات جلال الدين في عقائد وممارسات الحشاشين ولكن يبدو أن التحالف مع الخليفة ترك أثراً واضحاً على نشاطاتهم ، فلم نعد نسمع عن اغتيالات لشخصيات إسلامية في سوريا حيث يوجد أعداء الإسلام من الافرنج في حين أن عددا من الشخصيات المسيحية لم تلبث أن سقطت صريعة ، وكان أولاها ريموند ابن بوهمن الرابع Bohemon IV حاكم انطاكية الذي قتل في كنيسة بطرطوس في عام ١٢١٣ وأقدم أبوه المتعطش للانتقام على فرض الحصار على قلعة الخوابي ، ولما كان الحشاشون الآن على علاقات طيبة مع خلفاء صلاح الدين فقد نشدوا مساعدة حاكم حلب وأرسل هذا بعثة عسكرية لرفع الحصار عنهم ولكن قواته أصيبت بنكسة على أيدي الافرنج فناشد الحشاشون حاكم دمشق أن يهب إلى نجدتهم فبعث اليهم جيشاً أرغم الأعداء على رفع الحصار والانسحاب.

وفي نفس الوقت استطاع رؤساء الحشاشين أن يجدوا وسيلة للاستفادة من شهرتهم الذائعة الصيت ، اذ استطاعوا تحت التهديد بالاغتيال أن يحصلوا على أجعال مالية من الحكام المسلمين والمسيحيين على السواء ، بل وحتى من الزوار المؤقتين للشرق ، اذ نعرف من مصدر عربي انه

في عام ١٢٢٧ استقبل كبير الدعاة مجد الدين مبعوثين من الامبراطور فريدريك الثاني الذي كان قد وصل إلى فلسطين في حملة صليبية ، وقد أحضروا له هدايا تبلغ قيمتها حوالي ٨٠ ألف دينار ، وبحجة أن الطريق إلى ألموت بالغ الخطورة بسبب هجمات الخورازميين استبقى مجد الدين الهدايا لنفسه في سوريا ومنح الامبراطور مقابل ذلك الأمان الذي طلبه ، وفي نفس الوقت احتاط بارسال مبعوث إلى حاكم حلب لابلاغه بسفارة الامبراطور وضمان التنسيق معه .

ويفسر الخطر الخورازمي حادثاً آخر يقال أنه وقع في وقت مبكر من نفس العام ، فيقال أن مجد الدين أرسل مبعوثاً إلى السلطان السلجوقي في روم بقونية يطلب منه أن يرسل الجعل السنوي المعتاد وقدره ٢٠٠٠ دينار الذي تعود السلطان في الماضي ارساله إلى « ألموت » أن يرسله اليه — أي إلى مجد الدين — بدلا من ذلك ، وتشكك السلطان في الأمر فأرسل مبعوثاً إلى « ألموت » لاستشارة جلال الدين وأكد سيد ألموت انه تخلى على هذا المال لسوريا وأمر السلطان أن يدفعه إلى مجد الدين ففعل .

وفي نفس ذلك الوقت تقريباً أصبح الحشاشون أنفسهم تابعين لفرسان الاسبتارية ، يقول المؤرخ العربي انه بعد بعثة الامبراطور طلب فرسان الاسبتارية جزية من الحشاشين فرفضوا قائلين « ان ملككم الامبراطور يعطينا فهل تأخذون

منا ؟ » وعندئذ هاجمهم فرسان الاسبتارية وغنموا منهم غنائم كثيرة ولا يوضح النص (التاريخ المنصوري لمحمد الحمدي) ما إذا كانت جزية الحشاشين إلى فرسان الاستبارية ترجع إلى هذا الحدث أم أنها كانت قائمة من قبل .

الآن أصبح الحشاشون جزءاً معترفاً به بل ومقبولاً من المسرح السياسي السوري ويعطينا ابن واصل — وهو مواطن من وسط سوريا — دليلا طريفا على ذلك فيقول انه حدث في عام ١٢٤٠ أن تعرض قاضي سنجار المدعو بدر الدين لغضب السلطان الجديد ففر عبر سوريا وحصل على اللجوء لدى الحشاشين وكان رئيسهم في ذلك الحين فارسياً يدعى تاج الدين كان قد قدم من « ألموت » . ولا يتردد ابن واصل في أن يضيف انه كان يعرفه شخصياً وكان على صداقة معه ، ونجد اسم تاج الدين هذا على نقش في « مصيف » يعود تاريخه إلى ذي القعدة ٦٤٦ هـ (فبراير أو مارس ١٢٤٩) .

بقيت مجموعة واحدة من الأحداث ينبغي تسجيلها قبل الاختفاء السياسي للحشاشين في سوريا وهي تلك المتعلقة بالملك لويس التاسع (المعروف بالقديس لويس) وإذا كان في امكاننا أن نرفض قصة مؤامرة الحشاشين لاغتيال القديس لويس عندما كان لا يزال شاباً في فرنسا باعتبارها لا أساس لها كغيرها من قصص نشاط الحشاشين في أوربا إلا اننا نقبل الحكاية التي أوردها جوينفيل Joinville

كاتب سيرة القديس لويس عن معاملات الملك مع الحشاشين بعد وصوله إلى فلسطين ، فهذه القصة من طراز آخر وتحمل علامات الصحة ، يقول جوينفيل ان مبعوثي الحشاشين جاءوا إلى الملك في عكا وطلبوا منه أن يدفع الجزية لرئيسهم « كما يفعل امبراطور ألمانيا ، وملك المجر ، وسلطان بابليون (مصر) والآخرون في كل عام لأنهم يعرفون جيداً أن حياتهم مرتبطة بإرادته » وطرح هؤلاء المبعوثون على الملك خياراً آخر هو انه إذا كان لا يرغب في دفع الجزية فانهم يرضون باقالتهم من الجزية التي يدفعونها بأنفسهم إلى فرسان الاسبتارية وفرسان المعبد ، ويفسر جوينفيل سبب هذه الجزية بأن فرسان الاسبتارية والمعبد لم يكونوا يخشون شيئاً من الحشاشين لأنهم كانوا إذا قتل لهم سيد حل محله آخر لا يقل عنه كفاءة ، ولم يكن رئيس الحشاشين راغباً في اضاعة رجاله بلا مقابل ، ونعرف من جوينفيل انه اتفق على استمرار الجزية إلى فرسان التنظيميين على أن يتبادل الملك وكبير الدعاة الهدايا ، وهذه هي المناسبة التي قام فيها الأخ ايف دي بريتون Frair Yves de Breton المتحدث بالعربية بمقابلة رئيس الحشاشين والحديث معه .

نهاية الحشاشين

جاءت نهاية قوة الحشاشين تحت الهجوم المزدوج للمغول وسلطان مصر المملوكي الظاهر بيبرس . كان الحشاشون في سوريا كما هو متوقع قد شاركوا غيرهم من المسلمين في التصدي للتهديد المغولي ، وحاولوا كسب ثقة بيبرس بارسال السفارات والهدايا اليه ، ولم يبد بيبرس في بداية الأمر عداء نحوهم بل انه عندما منح الهدنة لفرسان الاسبتارية في عام ١٢٦٦ نص فيها على أنهم يجب أن يمتنعوا عما يتلقونه من جزية من مختلف مدن وأقاليم المسلمين بما فيها قلاع الحشاشين التي قدر مصدر مصري أنها كانت تدفع جزية مقدارها ١٢٠٠ دينار و ١٠٠ مود من القمح والشعير سنوياً ، وكان الحشاشون من الحكمة بحيث أرسلوا مبعوثين إلى بيبرس يعرضون عليه الجزية التي كانوا يدفعونها من قبل إلى الافرنج لاستخدامها في الحرب المقدسة .

غير أن بيبرس — الذي كان هدف حياته تحرير الشرق الأدنى الإسلامي من التهديد المزدوج للافرنج المسيحيين والمغول الوثنيين — كان لا يمكن أن يتوقع منه التسامح ازاء استمرار وجود جيب مستقل خطر من الملحدين والقتلة في قلب سوريا فنجده منذ وقت مبكر يعود إلى ١٢٦٠ ، كما يقول مؤرخ حياته ، يقطع أراضي الحشاشين إلى أحد كبار قواده ، وفي عام ١٢٦٥ أمر بجمع الضرائب والرسوم

على « الهدايا » التي تصل إلى الحشاشين من مختلف الامراء الذين يدفعون اليهم الجزية ، ومن بينهم كما ذكرت المصادر « الامبراطور الفونسو وملوك الافرنج واليمن » (المقريزي : كتاب السلوك » ولم يكن في استطاعة الحشاشين الذين أضعفوا في سوريا وأثبطت همتهم نتيجة مصير اخوانهم الفارسيين — أن يبدوا مقاومة فقبلوا هذا الاجراء صاغرين وأصبحوا هم أنفسهم يدفعون الجزية إلى بيبرس وسرعان ما أصبح بيبرس بدلاً من سيد « ألموت » هو الذي يعين رؤساء الحشاشين ويخلعهم كما يريد .

في عام ١٢٧٠ استاء بيبرس من موقف رئيس الحشاشين المسن نجم الدين فخلعه وعين مكانه زوج ابنته سريم الدين مبارك حاكم قلعة العليقة لأنه كان أكثر تجاوباً من حماه . كان الرئيس الجديد يحكم من منصبه كممثل لبيبرس واستثنيت مصيف من نفوذه وأصبحت تحت حكم بيبرس المباشر ، ولكن سريم الدين استطاع بالخديعة أن يضم مصيف إلى أملاكه مرة أخرى فعزله بيبرس وجاء به سجيناً إلى القاهرة حيث مات ربما مسموماً وأعاد بيبرس تعيين نجم الدين الذي أصبح سلس القياد الآن على أن يحكم بالاشتراك مع ابنه شمس الدين نظير جعل سنوي يدفع إلى بيبرس ، ونجد اسميهما محفورين في جامع قدموس Qadmus في حوالي ذلك التاريخ .

في فبراير أو مارس ١٢٧١ اعتقل بيبرس اثنين من

الحشاشين على زعم أنهما أرسلا لقتله ، وقيل أنهما كانا في سفارة من العليقة إلى بوهمن السادس ملك طرابلس وانه دبر لهما اغتيال السلطان . وعلى أثر ذلك أمر بيبرس أيضاً باعتقال شمس الدين واتهمه بالتخابر مع الفرنج ولكنه أطلق سراحه فيما بعد عندما حضر أبوه نجم الدين وأقسم على براءته ، كما أطلق سراح الشخصين اللذين اتهما بتدبير القتل ووافق الزعيمان الاسماعيليان تحت الضغط على تسليم قلاعهما والبقاء في بلاط بيبرس ، وسار نجم الدين في صحبة بيبرس حيث مات في القاهرة في أوائل عام ١٢٧٤ ، وسمح لشمس الدين بالذهاب إلى كهف « لتسوية شئونها » ، ومرة أخرى بدأ شمس الدين ينظم المقاومة هناك ولكن بلا جدوى ففي مايو أو يونيو ١٢٧١ استولى قواد بيبرس على قلعتي « العليقة » و « الرصافة » وفي اكتوبر ١٢٧١ أقدم شمس الدين وقد تأكد من يأس موقفه على الاستسلام لبيبرس ، واستقبله بيبرس في أول الأمر استقبالا حسناً ثم عندما علم فيما بعد بمؤامرة لاغتيال بعض أمرائه أمر بيبرس بترحيل شمس الدين ومجموعته إلى مصر واستمر حصار القلاع فسقطت « الخوابي » في نفس العام واحتلت باقي القلاع في عام ١٢٧٣ .

بعد أن استسلم الحشاشون لبيبرس أصبحت خدماتهم الماهرة تحت تصرفه لفترة قصيرة من الزمن ، فمنذ وقت مبكر يعود إلى أبريل ١٢٧١ ذكر ان بيبرس كان يهدد

كونت طرابلس بالاغتيال ، كما أن محاولة اغتيال الأمير ادوارد الانجليزي في عام ١٢٧٢ وربما أيضاً اغتيال فيليب أوف مونتفورت حاكم صور في ١٢٧٠ كانتا بتدبير بيبرس ، وقد تحدث مؤرخون متأخرون فيما بعد عن استخدام بعض سلاطنة المماليك للحشاشين للتخلص من مناوئيهم المتعبين ، بل ويعطى الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي عاش في القرن الرابع عشر وصفا للتدابير التي كانت تتخذ في مثل هذه الحالات فيقول « عندما يريد السلطان أن يرسل واحدا منهم لقتل أحد أعدائه كان يدفع له ثمن دمه فاذا استطاع القاتل أن يفلت بعد اداء مهمته كان يأخذ النقود له ، واذا قتل أو وقع في الأسر كان المال يعطى لأولاده أو ورثته ، وكانوا يستخدمون مدياً مسمومة لقتل ضحاياهم وأحياناً كانت خططهم تفشل ويتعرضون هم أنفسهم للقتل » .

ومن المحتمل أن تكون مثل هذه القصص ناشئة عن الأساطير والشكوك وليس لها من الدلالة أكثر مما كان للحكايات التي تروى في الغرب عن جرائم اغتيال لأمراء أوربا نظير أجر يتقاضاه شيخ الجبل ، وبعد القرن الثالث عشر لم تعد هناك اغتيالات مؤكدة يقوم بها حشاشون سوريون لحساب الفرقة ، ومنذ ذلك الحين ركدت الاسماعيلية كجماعة ملحدة صغيرة في فارس وسوريا ولم تعد لها أهمية سياسية ما ، وفي القرن الرابع عشر حدث

انشقاق في خط الامامية النزارية ، وأصبح كل من الاسماعيليين السوريين والفارسيين يتبعون زعماء مختلفين ؛ ومنذ ذلك الحين توقفت الاتصالات بين الفريقين .

وفي القرن السادس عشر بعد الغزو العثماني لسوريا أجريت أولى عمليات المسح للأراضي والأهالي لحساب السادة الجدد وسجلت فيها منطقة « قلعة الدعوة » باعتبارها تحوي عدة قرى غربي حماة بما فيها بعض المراكز القديمة الشهيرة مثل قدموس والكهف يسكنها اتباع فرقة خاصة لا تميزهم سوى حقيقة انهم يدفعون ضريبة خاصة ثم لم يعودوا يظهرون في صفحات التاريخ حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما عرف عنهم أنهم في نزاع دائم مع زعمائهم وجيرانهم ومع بعضهم البعض ، ومنذ منتصف القرن استقروا كجماعة زراعية مسالمة مركزهم السلامية وهي مستوطنة جديدة اكتسبوها بجهدهم من الصحراء ، ويبلغ عددهم في الوقت الحاضر حوالي ٥٠ ألف شخص بعضهم ، وليس كلهم ، يدينون بالولاء لاغا خان كامام لهم .

الفصل السادس

الوسائل والغايات

الحشاشون الاسماعيليون لم يخترعوا الاغتيال ، انهم أعاروه اسمهم فحسب [1] . فالقتل قديم قدم الجنس البشري ، وترمز إلى قدمه بوضوح قصة قابيل وهابيل في الاصحاح الرابع من سفر التكوين حيث يبدو القاتل الأول والضحية الأولى شقيقين هما ابنا الرجل الأول والمرأة الأولى ، وجاء القتل السياسي مع ظهور السلطة السياسية فعندما تناط السلطة بفرد ما تبدو ازالته أسرع وأبسط وسيلة لاحداث التغيير السياسي ، وعادة ما يكون الدافع لمثل هذه الاغتيالات شخصي أو حزبي أو عائلي وذلك لاحلال فرد أو حزب أو أسرة محل آخرين في السلطة ومثل هذه

---

(١) يشير المؤلف بذلك إلى لفظتي assassination, assassin والأولى ترجمة حرفية للفظة « حشاشين » والثانية تعني الاغتيال وقد اشتقت من اللغة الانجليزية وبعض اللغات الأوربية الأخرى من اللفظة الأولى .

(المترجم)

الاغتيالات شائعة في الممالك والامبراطوريات الاوتوقراطية سواء في الشرق أو الغرب .

وفي بعض الأحيان ينظر القاتل والآخرون إلى الاغتيال كواجب تبرره حجج ايديولوجية ، اذ يبدو الضحية طاغية أو مغتصباً ويبدو قتله فضيلة وليس جريمة ، ومثل هذا التبرير الايديولوجي للقتل قد يعبر عنه بصيغ سياسية أو دينية ، وفي كثير من المجتمعات ليس هناك فرق كبير بين الاثنين ، فنقرأ مثلا عن أثينا القديمة ان اثنين من الأصدقاء هما هارموديوس Harmodius واريستو جيتون Aristogeiton تآمرا على اغتيال الطاغية هيبياس Hippias ولكنهما نجحا فقط في قتل أخيه وشريكه في الحكم ، وألقي القبض عليهما وأعدما ، وبعد سقوط هيبياس أصبحا من الأبطال العامين في أثينا وأنشئت لهما التماثيل والأغاني تخليدا لذكراهما وتمتع ابناؤهما بالامتيازات والاعفاءات وقد أصبح هذا التوقير لقتل الطغاة جزءا من المزاج السياسي في اليونان وروما ونجد تعبيرا عنه في عديد من الاغتيالات الشهيرة كتلك التي تعرض لها فيليب المقدوني ، وطيبريوس جراكوس ويوليوس قيصر ، كما نجد نفس النظرة المثالية إلى قاتلي الطغاة موجودة لدى اليهود وتتمثل في أشخاص مثل ايهود وجيهو كما تبدو أكثر وضوحاً في قصة الفتاة الجميلة جوديت Judith التي شقت طريقها إلى خيمة الطاغية هولوفيرنس Holo Fernes مضطهد قومها وقطعت

رأسه وهو نائم ، وقد كتب اصحاح جوديت أثناء فترة السيطرة الهللينية ولا يوجد إلا في صيغته الاغريقية ويرفضه بعض اليهود ويتبعهم في ذلك البروتستنت باعتباره من كتب الابوكريفا [1] ولكنه بالرغم من ذلك مضمن في العهد القديم للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقد ألهم كثيرين من الرسامين والنحاتين المسيحيين ، وبالرغم من أن جوديت ليس لها مكان في التراث الديني اليهودي إلا أن مثال « القاتل التقي » الذي تمثله عاش ليلهم جماعة السيكارى Sicarri الشهيرة أو « رجال الخناجر » وهم مجموعة من الوطنيين اليهود المتحمسين (زيلوت) ظهروا في زمن سقوط أورشليم وكانوا يدمرون كل من يعارضهم أو يعوقهم .

وكذلك نجد أن الاغتيال السياسي — بجانبيه العملي والمثالي — كان مألوفاً منذ البدايات الأولى للتاريخ السياسي الاسلامي ، فمن بين الخلفاء الأربعة الراشدين الذين خلفوا النبي ﷺ في رئاسة الجماعة الإسلامية اغتيل ثلاثة منهم ، فالخليفة عمر طعنه مولى مسيحي لموجدة خاصة ، وعندما عرف الخليفة بذلك وهو على فراش الموت حمد الله لأنه لم

---

(١) كتب ملحقة بالتوراة تضم أخبار اليهود المتأخرين ولا يعترف بها المسيحيون .

(المترجم)

يقتل بيد أحد المؤمنين ، ولكن حتى هذا العزاء عز على خليفتيه عثمان وعلى اللذين اغتالهما عرب مسلمون ، الأول اغتاله عدد من الثوار الغاضبين ، والثاني اغتاله خارجي متطرف ، وفي الحالتين كان الفاعلون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم قاتلي طغاة يخلصون الجماعة من حاكم غ ـ عادل وكانوا يجدون من يتعاطف معهم في هذا الاتجاه .

وتبلورت هذه القضايا خلال الحرب الأهلية الاسلامية التي أعقبت وفاة عثمان ، فقد طالب معاوية والي سوريا وقريب الخليفة المقتول بمعاقبة قتلة عثمان ، ولكن عليا الذي أعقبه في الخلافة لم تكن لديه القدرة وربما الرغبة لاجابته الى طلبه ، وقال شيعته تبريرا لموقفه انه ليست هناك جريمة قد ارتكبت فعثمان في نظرهم طاغ وكان موته تنفيذا لحكم بالاعدام أصدرته جماعة المسلمين وليس اغتيالا . ونفس الحجة استخدمتها فرقة الخوارج المتطرفة لتبرير اغتيال على نفسه بعد ذلك بسنوات قليلة .

ان الإسلام يعترف إلى حد ما بمبدأ الثورة المشروعة ، ففي الوقت الذي يمنح فيه سلطات مطلقة للحاكم نجده يسقط واجب الرعية في الطاعة إذا كان حكمه آثماً « فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وحيث انه لم ترس قاعدة محددة لاختبار شرعية الأحكام أو لمباشرة حق العصيان على الاثم لذلك كان الملجأ الفعال الوحيد لمن يستنكف ضميره حكما ما

أن يثور على الحاكم ويحاول أن يرغمه على جادة الصواب أو يخلعه بالقوة ، أما الاجراء الأسرع والأنشط فهو أن يزيله بالاغتيال ، وقد أثير هذا المبدأ مراراً ولا سيما من ثوار الفرق لتبرير أفعالهم .

وفي الواقع فان اغتيال الحكام أصبح نادراً بعد وفاة علي ومعاوية ، وعندما كان يقع نجده نتيجة لخلافات داخل الأسر الحاكمة أكثر من كونه استجابة لدوافع ثورية ، وعلى العكس نجد الشيعة يقولون ان أئمتهم وغيرهم من أهل بيت النبي هم الذين تعرضوا للاغتيال بتحريض من الخلفاء السنيين ، وتحوي آدابهم قوائم طويلة للشهداء العلويين الذين تستصرخ دماؤهم الانتقام .

وهكذا فان الاسماعيليين عندما كانوا يبعثون فدائييهم لقتل الحكام الآثمين وبطاناتهم كانوا يحيون بذلك تقليداً إسلامياً قديماً ، حقاً لم يكن بالتقليد المألوف بل وكان في طور السبات منذ أمد طويل ، ولكنه ظل محتفظاً بمكانة خاصة في دائرة الفرق المنشقة والمتطرفة .

لا شك أن مثالية الاغتيال السياسي القديم في تاريخ البشرية بالاضافة إلى الالتزام الديني بتخليص العالم من الحكام الآثمين ساهما في ممارسة فن الاغتيال كما تباهاه وطبقه الاسماعيليون ، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك ، فان قتل الحشاش لضحيته لم يكن عملا من أعمال الايمان

فحسب وانما كانت له أيضاً طقوس ذات طبيعة مقدسة ، فمما له دلالة خاصة ان الحشاشين في كل الاغتيالات التي مارسوها سواء في فارس أو سوريا كانوا يستخدمون الخنجر دائماً ولم يلجأوا مطلقاً إلى القتل بالسم أو بالسهام بالرغم من أن القتل بمثل هذه الطرق البديلة يكون في بعض الحالات أكثر سهولة وأمناً ، وكان الحشاش القاتل يمسك به في كل الحالات تقريباً فلا يحاول الهرب بل هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يعتبرون البقاء على قيد الحياة بعد انجاز المهمة أمراً مخجلاً .

والمعروف أن التضحية البشرية وطقوس القتل ليس لهما مكان في الإسلام شريعة أو تراثاً أو ممارسة ، ولكنهما رغم ذلك قديمان وعميقا الجذور في المجتمعات البشرية ومن الممكن أن يظهرا في أماكن غير متوقعة تماماً كما أن « الرقص التعبدي » الذي كان يمارس في الأزمنة السحيقة ونسي تماماً عاد إلى الظهور في شكل الانجذاب الصوفي في رقص الدراويش (الذكر) مع أنه يتعارض تماماً مع عبادات الاسلام البسيطة المتقشفة ، وبالمثل فقد وجدت « طقوس الموت » القديمة تعبيرات جديدة لها في صيغ إسلامية فيحدثنا المؤلفون المسلمون بأنه في أوائل القرن الثامن (الميلادي) ظهر رجل في الكوفة يدعى أبو منصور العجلي زعم أنه الامام المنتظر ، وقال بأن تعاليم الدين لها معنى رمزي ولا حاجة لاطاعتها بالمعنى الحرفي ، وان الجنة

والنار ليس لهما وجود مستقل وانما هما مجرد المسرات والشقاء في هذا العالم ، وكان أتباعه يمارسون الاغتيال كواجب ديني . كما ظهر له معاصر من نفس قبيلته يدعى المغيرة بن سعيد كان يدعو لنظريات وممارسات مشابهة وقد سحقت السلطات كلتا الجماعتين ولكن مما له دلالة ان كلا منهما كانت بحكم عقائدها تستخدم سلاحاً واحداً للقتل لا تعدوه إلى غيره ، فاحداهما كانت تخنق ضحاياها بالحبال والاخرى تضربهم على رءوسهم بالهروات الخشبية ، وكان أنصارهما يعتقدون أن الأسلحة المعدنية لا يجوز استخدامها بعد ظهور المهدي ، وهاتان الجماعتان كانتا تنتميان إلى أقصى الجناح المتطرف من غلاة الشيعة ، ولا شك أن هناك تماثلا واضحاً بين هاتين الجماعتين وبين جماعة الاسماعيلية اللاحقة فيما يتعلق بالتناقض مع مبادىء الدين واستخدام سلاح بعينه في ممارسة القتل .

ولقد كان الاسماعيليون كحراس على أسرار دفينة ومبشرين بالخلاص عن طريق الامام وحملة وعد بتحقيق رسالة ودعاة انعتاق من مشاق العالم وعبء الشريعة — كانوا بكل ذلك جزءاً من تراث قديم يعود إلى البدايات الأولى للإسلام بل وإلى أقدم من ذلك كما أنه يمتد في المستقبل إلى يومنا الحالي ، هذا التراث يعتمد على نوع من العبادات الشعبية والعاطفية تتناقض تناقضاً حاداً مع الدين الشرعي الذي يحميه النظام القائم .

فقد كان هناك الكثير من أمثال هذه الفرق والجماعات قبل الاسماعيلية ، ولكن الاسماعيليين هم أول من أنشأ تنظيماً فعالاً ومستمراً ، وكانت هذه علامة للعصر ، فالجمعيات السابقة التي تضم الفقراء والمستضعفين كانت متفرقة ولا أهمية لها ونادراً ما تكتسب ذكراً خاصاً يجعلها معروفة لدى المؤرخ ، أما في مجتمع الخلافة المتأخرة مع ما يميزه من تمزق وانعدام الأمن فقد بحث الناس عن الطمأنينة والأمن في أشكال جديدة قوية من الروابط ، وتعددت هذه الروابط وأصبحت أكثر شمولاً وامتدت من الطبقات الدنيا إلى الوسطى بل وإلى الطبقات العليا في المجتمع حتى أقدم أخيراً الخليفة الناصر نفسه إلى الاحتفال بانضمامه إلى احداها محاولاً بذلك ضمها إلى جهاز الحكومة .

هذه الروابط كانت من أنواع متعددة ، فبعضها كان اقليمياً بصفة أساسية يظهر في المدن أو الأحياء وله مهام مدنية أو بوليسية أو حربية ، وبعضها يظهر في مجتمعات مهنية تقترن بجماعات محلية أو عرقية أو دينية وربما تكتسب أيضاً دوراً اقتصادياً وغالباً ما تظهر في شكل روابط للشباب أو الرجال الذين هم في مقتبل العمر ، ويكون لها مناصب وطقوس تميز الوصول إلى سن البلوغ أو الرجولة ، ومعظم هذه الروابط كانت تقوم على الأخوة الدينية فتضم أتباعاً لرجال مقدسين وعبادات يضعونها بأنفسهم ، ومن السمات المشتركة في هذه الروابط جميعاً أنها تتبنى عقائد وممارسات

تنتمي إلى الديانة الشعبية ويدينها رجال الدين المحافظون كما تتميز كذلك بوجود رابطة قوية من الولاء بين الرفاق والتفاني في الخضوع للزعماء ونظام لطقوس الانضمام والرتب المتدرجة تواكبها مراسم احتفالية ورموز معقدة [1] ، ومعظم هذه الجماعات كانت غير نشطة سياسياً بالرغم من طبيعتها المنشقة الغامضة ، ولكن الاسماعيليين بفضل تكتيكاتهم الحربية وأهدافهم الثورية استطاعوا استخدام هذا الشكل من التنظيم الولائي للقيام بمحاولة جريئة لقلب النظام القائم والحلول محله ، وفي نفس الوقت تخلصوا بالتدريج من النقاء الفلسفي لنظرياتهم المبكرة وانتهجوا أشكالاً من الديانة وثيقة الصلة بالمعتقدات السائدة بين أعضاء الجماعة ، فمن ناحية نجد الاسماعيليين مثلا — طبقاً لما يقوله المؤرخون الفرس — ينتهجون النظم الديرية تقريباً فيمتنع على قادة القلاع طالما هم في مناصبهم الاحتفاظ بالنساء .

---

(١) من آخر أمثلة هذه الروابط ما فجعت به البشرية أخيراً بأنباء مذبحة « معبد الشعب » في مستعمرة « جونستاون » حيث تكشفت عن جمعية دينية شاذة يتزعمها مشعوذ بروتستنتي يدعى جيم جونز وقد انتحر أفراد هذه الجماعة بتجرع السم حين افتضح أمرهم اذ تجرع أكثر من ٩٠٠ شخص من الأطفال والنساء والرجال السم صاغرين راضين عند أول اشارة من الزعيم .

(المعرب)

ولم يسبق للحشاشين مثيل في استخدامهم المنظم المدبر الطويل للرعب كسلاح سياسي ، فالخناقون الذين ظهروا في العراق كانوا جماعة صغيرة تقتل عشوائياً مثلها في ذلك كالسفاحين في الهند ، كما أن الاغتيالات السياسية السابقة كانت رغم ما فيها من اثارة من فعل أفراد أو على أحسن الأحوال من فعل جماعات صغيرة من المتآمرين محدودة من حيث الغرض والتأثير ، أما فيما يتعلق بالمهارة في الاغتيال والتآمر فقد سبقهم الكثيرون في هذا الصدد وحتى في تطوير الاغتيال إلى فن وطقوس وواجب كان هناك من سبقهم بل وبزهم في ذلك المجال ولكن الاسماعيليين كانوا بحق « الارهابيين الأول » الذين استطاعوا تطويع الارهاب لتحقيق أهدافهم السياسية يقول شاعر اسماعيلي في امتداح الفدائيين « أيها الرفاق ... عندما يأتي وقت النصر ويحالفنا الحظ في الدنيا والآخرة يستطيع محارب واحد يمشي على قدميه أن يبث الرعب في قلب ملك تحت إمرته مائة ألف فارس أو يزيد » !

حقاً ، لقد ظل الشيعة قروناً طويلة لا يبخلون عن انفاق كل جهد ودماء من أجل أئمتهم دون جدوى وقاموا بهبات لا تحصى تتراوح بين التضحية بالذات التي تقدم عليها جماعات صغيرة من الأنصار المتحمسين إلى العمليات العسكرية المدبرة تدبيراً جيداً ، وقد فشلت هذه الهبات جميعاً فيما عدا قلة نادرة ، سحقتها القوات المسلحة التابعة

للدولة أو النظام ، وحتى في الحالات النادرة التي أحرزت فيها هبات الشيعة نجاحاً لم يؤد ذلك إلى انطلاق العواطف الحبيسة التي عبر عنها الثائرون ، فان المنتصرين الذين حملتهم هذه الهبات إلى سدة الحكم والوصاية على الجماعة الإسلامية لم يلبثوا أن انقلبوا على مؤيديهم وسحقوهم.

وقد كان حسن الصباح يعلم أن دعوته لا يمكن أن تنجح ضد معاقل الإسلام السني ، وأن أنصاره ليس في امكانهم أن يواجهوا ويهزموا القوة المسلحة للدولة السلجوقية ، وأن كثيرين قبله قد نفسوا عن فشلهم في عنف غير منظم ، أو تمرد يائس ، أو سلبية كئيبة ، ولكن « حسن » وجد وسيلة جديدة يمكن بها لقوة صغيرة ، منظمة ومخلصة ، أن توجه ضربات فعالة ضد عدو يتمتع بتفوق ساحق ، هذه الوسيلة التي اختارها حسن ، أو يمكن أن يقال التي اخترعها هي « الارهاب » الذي تعرفه دائرة معارف العلوم الاجتماعية بقولها « الارهاب تمارسه منظمة محدودة صغيرة ، وتلهبه أهداف واسعة النطاق يضمها برنامج متماسك ترتكب من أجله الأعمال الإرهابية » .

يقول جوينفيل عن زعيم اسماعيلي متأخر في سوريا « إن شيخ الجبل كان يدفع الإتاوة لفرسان المعبد وفرسان الاسبتارية لأنهم لم يكونوا يخافون شيئاً من الحشاشين إذ أن شيخ الجبل لم يكن يكسب شيئاً من قتله رئيس المعبد

أو الاسبتارية لأنه يعرف جيداً انه إذا قتل أحدهم سوف يحل محله آخر لا يقل عنه كفاءة ، ولهذا السبب فانه كان راغباً عن فقد حشاشيه المدربين دون مقابل يكسبه » فهذان النظامان من الفرسان الصليبيين كان كل منهما مؤسسة متماسكة لها نظامها القانوني ورتبها وروابط ولائها التي تجعلها حصينة ضد هجمات الحشاشين ، أما الدولة الإسلامية الممزقة والتي تفتقر إلى هذه الصفات وتتمركز فيها السلطة الأوتوقراطية حول شخص بعينه ترتبط به ولاءات مؤقتة زائلة فقد كانت غير حصينة أمام هجمات الحشاشين .

وقد كشف حسن الصباح عن عبقرية سياسية بادراكه نقطة الضعف هذه في الملكيات الإسلامية كما كشف عن مواهب إدارية واستراتيجية كبيرة باستغلالها في هجماته الإرهابية .

ومثل هذه الحملة من الإرهاب المنظم يلزمها مطلبان واضحان : التنظيم والايديولوجية ، فينبغي أن تكون هناك منظمة قادرة على أمرين : شن الهجوم وتحمل الضربة المضادة التي لا شك في مجيئها ، وينبغي أن تكون هناك عقيدة تلهم وتدعم المهاجمين إلى درجة مواجهة الموت ، وهذه العقيدة في مثل ذلك العصر والمكان لا يمكن أن تكون سوى الدين .

وهذان العاملان كانا موجودين ، فالعقيدة-الاسماعيلية المعدلة مع ذكرياتها عن الألم والاستشهاد ووعدها بالانعتاق

الديني والإنساني كانت بمثابة القضية التي تدعم معتنقيها بالكرامة والشجاعة وتلهمهم الولاء الذي لا نظير له من قبل في التاريخ الإنساني ، وقد كان ولاء الحشاشين الذين خاطروا بالموت بل وأحبوه من أجل سيدهم هو أول ما جذب انتباه أوربا وجعل اسمهم عنواناً على الايمان والتضحية بالذات قبل أن يكون عنواناً على القتل .

وكان هناك أيضاً التنظيم الهادىء إلى جانب الحمية المتوقدة في عمل الحشاشين ، ويبدو هذا واضحاً في عديد من المبادىء ، فان استيلاءهم على الحصون — وبعضها كان من قبل عرينا لقطاع الطرق — أمدهم بالقواعد الآمنة كما أن مبدأ السرية الذي اشتق من نظرية التقية القديمة أفادهم سواء من حيث الأمن أو التضامن ، وكان عمل الارهابيين تدعمه الاعتبارات الدينية والسياسية ، واستطاع الدعاة الاسماعيليون أن يجدوا ويكتسبوا إلى قضيتهم الأنصار بين سكان الريف والحضر ، وكان المبعوثون الاسماعيليون يجوبون بين المسلمين الذين قد تدفعهم مخاوفهم أو طموحاتهم إلى أن يكونوا حلفاء مؤقتين للقضية الاسماعيلية .

هذه التحالفات تثير نقطة هامة بالنسبة لولاء الحشاشين ، فمن بين عشرات الاغتيالات المسجلة في ايران وسوريا هناك عدد لا بأس به يقول عنه مصدر أو آخر انه موحى به من طرف ثالث وغالباً ما يكون هذا الايحاء أو التصرف

مقترناً بتقديم نقود أو مغريات أخرى ، وفي بعض الأحيان كان الفدائيون الذين يمسك بهم بعد قيامهم بعمليات القتل هم الذين يعترفون بذلك في التحقيق .

من الواضح أن الحشاشين وهم خدام مخلصون لقضية دينية لم يكونوا مجرد قاطعي رقاب بالخناجر نظير أجر ، فقد كان لهم هدفهم السياسي الخاص وهو اقامة الامامة الحقة ولا يحتمل أن يكونوا هم أو زعماؤهم مجرد أدوات لتحقيق طموحات الآخرين ، ومع ذلك فان القصص الملحة والواسعة الانتشار عن اتفاق الحشاشين مع أمثال بركيارق وسانجار في الشرق وصلاح الدين وريتشارد قلب الأسد في الغرب تستدعي بعض التفسير .

ان بعض هذه القصص شاعت لأنها كانت حقيقية فعلاً ففي كثير من الأزمنة والأمكنة يوجد رجال طموحون يرغبون في الحصول على مساعدة العناصر العنيفة المتطرفة ربما كانوا لا يشاركونهم عقائدهم بل ولا يحبونها بالمرة ولكنهم يرون أن في الامكان استخدامهم على أمل — كاذب غالباً — في التخلص من هؤلاء الحلفاء الخطرين بعد أن يؤدوا مهمتهم ، هكذا لم يأنف مثلا رضوان حاكم حلب وهو أمير سلجوقي من التحول عن الولاء السني إلى الولاء الفاطمي وفتح مدينته للحشاشين للحصول على تأييدهم ضد قومه وسيده ، وهكذا أيضاً كان الوزراء المتآمرون في

أصفهان ودمشق الذين حاولوا استخدام قوة الحشاشين وما ينشرونه من رعب لتحقيق مآربهم الخاصة ، وفي بعض الأحيان كان الدافع إلى التعاون مع الحشاشين الخوف منهم والرغبة في تفادي خطرهم وليس الطمع في استخدامهم لتحقيق أهداف معينة ، كما في حالة شرف الملك المذعور وزير خورازمشاه جلال الدين الذي قص النسوي حكايته فيما سبق ، ففي كثير من الأحيان كان من الممكن ارغام القواد والسلاطين والوزراء على الاذعان بارهابهم ، وكثير من القصص التي انتشرت عن مهارة الحشاشين وجسارتهم يبدو أنها تخدم غرض معين هو تبرير قيام تفاهم ضمني بين حاكم سني تقي وبين الثوريين الاسماعيليين .

أما دوافع أمثال سانجار وصلاح الدين في التحالف مع الحشاشين فقد كانت أكثر تعقيداً ، فالاثنان تحالفا مع الحشاشين ليس انطلاقاً من خوف شخصي أو طموح معين ، فقد كان كل منهما يسعى لتحقيق مهمة كبرى — سنجار يسعى لتدعيم السلطنة السلجوقية والدفاع عن الاسلام ضد الغزاة الوثنيين من الشرق وصلاح الدين يسعى لاسترجاع وحدة العالم السني والتصدي للغزاة الصليبيين في الغرب — ولا بد أن كلا منهما قد أدرك على وجه اليقين أن مملكته بعد موته سوف تنهار ويفشل تدبيره ، لذا فقد وجدا أن ثمة ما يبرر الاقدام على تنازل مؤقت مع عدو أقل خطرا في النهاية من أجل ضمان سلامتهما الشخصية مما

يتيح لهما فرصة اتمام مهمتهما الكبرى في تدعيم الاسلام والدفاع عنه .

أما بالنسبة للحشاشين أنفسهم فقد كان الأمر أبسط من ذلك ، أن هدفهم كان اشاعة الفوضى والقضاء على النظام السني ، فاذا دفع الاغراء أو الارهاب بعض زعماء السنة إلى مساعدتهم فلا بأس بذلك ، وحتى في أيام فورتهم الأولى لم يكن زعماء الحشاشين يمتنعون عن مساعدة الآخرين إذا كان في ذلك ما يستجيب لأغراضهم ، وعندما أصبحوا حكاماً اقليميين بعد ذلك استطاعوا صياغة سياساتهم بمهارة وسهولة داخل نسيج الشبكة المعقدة من المحالفات والخصومات في العالم الإسلامي .

غير أن ذلك لا يعني أن خدماتهم كانت للبيع أو أن كل قصص التآمر حتى تلك التي تؤيدها اعترافات كانت قصصاً حقيقية فان الزعماء قد يعقدون صفقات سرية ولكن ليس من المحتمل أن يطلعوا القتلة الفعليين على التفاصيل ، فالأكثر احتمالاً أن الفدائي المنطلق إلى مهمة كان يزود بما يسمى في التعبير الحديث « قصة تمويه » تورط أقرب الشخصيات احتمالاً على مسرح الأحداث فمثل ذلك تكون له فائدة اضافية في بذر بذور عدم الثقة والشكوك داخل المعسكر المعادي . ومن أوضح الأمثلة على ذلك اغتيال الخليفة المسترشد والقائد الصليبي كونراد أوف مونتفيرات فان الشكوك التي أثارتها هاتان العمليتان ضد سانجار في فارس

وضد ريتشارد قلب الأسد بين الصليبيين لا بد أن تكون قد خدمت غرضاً مفيداً للحشاشين وهو اشاعة الاضطراب في الآراء وخلق حالة من عدم الوفاق في معسكري خصومهم . وبالاضافة إلى ذلك فانه لا يمكننا أن نثق بأن كل جريمة اغتيال عزيت إلى الحشاشين أو حتى تلك التي يزعمون أنهم قاموا بها . قد ارتكبوها حقاً . فان القتل لأسباب خاصة أو عامة كان مسألة شائعة . وربما يكون اسم الحشاشين قد استخدم كتغطية لعدد من الاغتيالات غير المذهبية التي لم يكن لهم يد فيها .

وكان الحشاشون يختارون ضحاياهم بعناية خلافا لما يفترضه بعض مؤلفي السنة من أنهم كانوا يشنون حرباً بدون تمييز ضد كل الجماعة الإسلامية . يقول حمد الله مصطفاوي وهو من كتاب القرن الرابع عشر « انه من المعروف جيداً والثابت أن الباطنية (يعني الاسماعيلية) عليهم ما يستحقون . كانوا لا يضيعون دقيقة في سبيل ايذاء المسلمين بكل الطرق وكانوا يعتقدون أنهم يثابون على ذلك أعظم الثواب وأنهم يرتكبون خطيئة كبرى إذا تورعوا عن القتل وإسقاط الضحايا » والواقع أن حمد الله الذي كان يكتب حوالي عام ١٣٣٠ كان يعبر عن وجهة نظر لاحقة في الاسماعيلية لوثتها الخرافات والأساطير ، أما المصادر المعاصرة سواء في فارس أو سوريا فتدل على أن إرهاب الإسماعيليين كان موجها ضد أشخاص معينين

ولأسباب محددة وفيما عدا بعض الانفجارات الشعبية القليلة والاستثنائية كانت علاقاتهم مع جيرانهم أهل السنة عادية تماما . وهذا يبدو صحيحاً سواء بالنسبة للأقليات الاسماعيلية في المدن أو حكام الأقاليم الاسماعيليين في علاقاتهم مع زملائهم السنة .

وكان ضحايا الحشاشين ينتمون إلى مجموعتين رئيسيتين : الاولى تضم الأمراء والقواد والوزراء . والثانية تضم القضاة وغيرهم من الشخصيات الدينية . وهناك مجموعة ثالثة متوسطة تضم ولاة المدن وقد نالت اهتمامهم بين حين وآخر . ودائماً وفيما عدا استثناءات قليلة كان ضحاياهم من المسلمين السنة . فلم يكن الحشاشون يهاجمون عادة الاثني عشرية أو غيرهم من الشيعة ، ولم يوجهوا خناجرهم إلى صدور المسيحيين أو اليهود المحليين ، أما هجماتهم ضد الصليبيين في سوريا فكانت قليلة وجاء معظمها بعد اتفاق سنان مع صلاح الدين وتحالف حسن مع الخليفة .

وكانت المؤسسة السنية بجوانبها السياسية والعسكرية والادارية والدينية هي العدو الرئيسي للاسماعيلية وكان هدفهم من الاغتيالات اخافة هذه المؤسسة واضعافها ثم الاطاحة بها في النهاية ، وبعض هذه الاغتيالات كان مجرد أعمال انتقام وتحذير مثل قتل رجال الدين السنة في مساجدهم عقاباً لهم على مهاجمة الاسماعيليين بالقول أو الفعل ،

ولكن كان هناك ضحايا آخرون يتم اختيارهم لأسباب محددة أو عاجلة مثل قادة الجيوش الذين يهاجمون الاسماعيلية أو شاغلي المعاقل الحصينة التي يودون الاستيلاء عليها . كما اجتمعت الدوافع التكتيكية والدعائية في اغتيال بعض الشخصيات الكبيرة كالوزير نظام الملك واثنين من الخلفاء ومحاولات اغتيال صلاح الدين .

وهنالك مسألة أكثر صعوبة تتعلق بتحديد طبيعة التأييد الذي كان يلقاه الاسماعيليون . ان معظم هذا التأييد كان يأتي من الريف . فالاسماعيليون في قلاعهم الحصينة كانوا يحققون نجاحاً أكبر عندما يستطيعون الاعتماد على سكان القرى المجاورة سواء في التأييد أو التجنيد . كما حاول مبعوثو الاسماعيلية سواء في فارس أو سوريا نشر دعوتهم في المناطق التي يوجد فيها تراث قديم من الانحراف الديني . وتكشف بعض كتابات « الدعوة الجديدة » مدى التأثر بكثير من الخصائص السحرية التي ترتبط بمعتقدات الفلاحين الدينية وذلك خلافاً للكتابات الفاطمية المذهبية التي تتميز بالتقدم الفكري المألوف في مراكز الحضارة المدنية .

ولكن التأييد الذي كان يتمتع به الاسماعيليون ويسعون لتكريسه وتوجيهه لم يكن قاصراً على المناطق الريفية والجبلية فمن الواضح ان قد كان لهم أنصار في المدن أيضاً ، وكان هؤلاء الأنصار يقدمون المساعدات الحذرة اذا احتاجها

الرجال القادمون من القلاع في مهمة ما . وفي بعض الأحيان — كما حدث في أصفهان ودمشق — كانوا من القوة بحيث دخلوا في صراع صريح على السلطة .

ولقد كان من المفترض عادة أن مؤيدي الاسماعيلية كانوا من الطبقات الدنيا في المجتمع كالحرفيين وما دونهم من الرعاع . وهذا الافتراض قائم على اشارات هنا وهناك تدل على انتماء المحرضين الاسماعيليين إلى هذه الطبقات مع عدم قيام دليل بوجه عام يفيد وجود أنصار للاسماعيلية بين الطبقات الأرقى حتى تلك التي كانت منقوصة المزايا في النظام السلجوقي السني . حقاً هناك علامات كثيرة تشير إلى وجود متعاطفين مع الشيعة بين التجار والمتعلمين ولكن يبدو أن هؤلاء وأمثالهم كانوا يفضلون الانشقاق السلبي للاثني عشرية على راديكالية الاسماعيليين . غير أننا نجد في الواقع أن الكثيرين من زعماء الاسماعيلية ومدرسيها كانوا من رجال المدن المتعلمين . فحسن الصباح مثلاً كان من « الري » وتلقى تعليماً يؤهله لأن يكون مؤلفاً أو ناسخاً . وابن عطاش كان طبيباً وكان أول مبعوث من « ألموت » إلى سوريا . وسنان كان مدرساً . وكان طبقاً لروايته عن نفسه ابن أسرة من النبلاء في البصرة . ومع ذلك يبدو أن « الدعوة الجديدة » لم تكن أبداً بالنداء الفكري المغري الذي يجتذب الشعراء والفلاسفة والفقهاء في عهدها المبكر .

لقد ظلت الاسماعيلية منذ القرن التاسع إلى الحادي عشر

بمثابة قوة فكرية كبرى في الاسلام . وكانت تمثل تحدياً خطيراً لأذهان وقلوب معتنقيها بل واكتسبت تعاطف مثقف عظيم كالفيلسوف العالم ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) أما في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقد بدأ بريقها يخبو . وبعد نصيري خسرو الذي توفي حوالى عام ١٠٨٧ لم تعد هناك شخصية فكرية كبرى في الفقه الاسماعيلي وحتى تلاميذه كانوا محصورين بين الفلاحين والجليين في المناطق النائية . وكانت الاسماعيلية تحت حسن الصباح وخلفائه تثير مشاكل سياسية وعسكرية واجتماعية خطيرة للاسلام السني . ولكنها لم تعد تمثل تحدياً فكرياً وانما ظلت تكتسب بصفة متزايدة الخصائص السحرية والعاطفية وآمال الفداء والتبشير المرتبطة بعبادات المحرومين والفقـــراء وغير المستقرين . وتوقفت الاسماعيلية مرة واحدة وإلى الأبد عن أن تكون بديلاً جاداً للفكر السني الجديد الذي بدأ يسيطر على الحياة الفكرية في المدن الإسلامية . ولكن المفاهيم الروحية للاسماعيلية والمواقف الاسماعيلية استمرت من طرف خفي في التأثير في الشعر والصوفية الفارسية والتركية . ومن الممكن تمييز العناصر الاسماعيليـــة في الانفجارات الثورية التبشيرية اللاحقة كثورة الدراويش في القرن الخامس عشر بتركيا وثورة الباب في القرن التاسع عشر في فارس .

هناك سؤال آخر يضطر إلى طرحه المؤرخ الحديث : ماذا

تعني الاسماعيلية ؟ من الناحية الدينية يمكن القول بأن الدعوة الجديدة للاسماعيلية ما هي إلا ظهور لاتجاهات الحادية مناقضة للاسلام . ومثل هذه الاتجاهات كانت شائعة في التاريخ الاسلامي ولها ما يماثلها وربما ما يسبقها في الأديان الأخرى . ولكن عندما يمتنع الانسان المعاصر عن اعطاء المركز الأول في اهتماماته للدين فانه أيضاً يتوقف عن الاعتقاد بأن الناس في العصور الأخرى كانوا يفعلون ذلك حقاً ، وهكذا فانه يبدأ في اعادة فحص الحركات الدينية الكبرى في الماضي بغرض البحث عن اهتمامات ودوافع تكون مقبولة لدى الذهن الحديث .

وهكذا قدم الكونت دى غوبينو Count de Gobineau أب العنصرية الحديثة أول نظرية كبرى في تفسير المدلول « الحقيقي » للالحاد الاسلامي . فقال ان التشيع يمثل ردة فعل الفارسيين الأندو أوربيين ضد سيطرة العرب أي ضد سيطرة السامية على الاسلام . وقد بدا مثل هذا التفسير معقولاً بل وواضحاً في أوربا القرن التاسع عشر التي كانت تعج بمشاكل الصراع الوطني والحرية القومية . وطبقاً لهذه النظرية كان الشيعة يمثلون فارس وقد حاربوا السيطرة العربية في أول الأمر ثم السيطرة التركية وكان الحشاشون يمثلون الاتجاهات الوطنية الجهادية المتطرفة مثل الجمعيات السرية الارهابية التي كانت منتشرة في ايطاليا ومقدونيا خلال القرن التاسع عشر .

غير أن تقدم البحث من جانب وتغير الظروف الأوربية من جانب آخر أديا في القرن العشرين إلى بعض التعديلات في هذه النظرية المتعلقة بالصراع العنصري والوطني . فقد أوضحت المعلومات المتزايدة ان التشيع بصفة عامة ، والاسماعيلية بصفة خاصة . لم يكونا أبداً وقفاً على الفرس . فالفرقة بدأت في العراق . والخلافة الفاطمية حققت أكبر نجاح لها في بلاد عربية وهي شمال افريقيا ومصر . وحتى الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي أنشأها حسن الصباح بالرغم من أنها بدأت في فارس بواسطة فارسيين إلا أنها اكتسبت أتباعاً كثيرين في سوريا العربية بل ونفذت إلى القبائل التركمانية التي هاجرت إلى الشرق الأوسط من وسط آسيا . وعلى أية حال لم يعد ينظر إلى الوطنية كأساس كاف للحركات التاريخية الكبرى .

في سلسلة من الدراسات ظهر أولها في عام ١٩١١ قدم باحث روسي يدعى ف . ف . بارتولد V.V. Barthold تفسيراً آخر . فقال ان المعنى الحقيقي لحركة الحشاشين يكمن في كونها حرباً للقلاع ضد المدن . فهي محاولة أخيرة وغير ناجحة قامت بها الأرستقراطية الايرانية الريفية لمقاومة النظام الاجتماعي الحضري الجديد الذي أوجده الاسلام . لقد كانت بلاد فارس قبل الاسلام مجتمع فرسان ثم دخلته المدنية كاختراع اسلامي . وقام الفرسان الفرس ملاك الأراضي المهددون بفقد امتيازاتهم — كما فعل بارونات

أوربا في العصور الوسطى – بمساعدة سكان الريف بشن حرب من قلاعهم ضد النظام الاجتماعي الجديد الغريب . وكان الحشاشون سلاحاً في تلك الحرب .

ثم عكف الباحثون الروس بعد ذلك على مراجعة وتهذيب محاولة بارتولد لتفسير الاسماعيلية تفسيراً اقتصادياً . فقالوا ان الاسماعيليين لم يكونوا ضد المدن من حيث هي مدن . ذلك أن كان لهم أنصار في المدن نفسها . ولكنهم كانوا ضد عناصر معينة مسيطرة في المدن وهم الحكام والقادة العسكريون والنبلاء المدنيون والاقطاعيون الجدد ورجال الدين المجندون من السلطة . وأكثر من ذلك فانه لا يمكن الموازنة ببساطة بين الاسماعيليين والنبلاء القدامى . فالاسماعيليون لم يرثوا قلاعهم وانما استولوا عليها . كما أنهم لم يلقوا التأييد من أولئك الذين كانوا يملكون اقطاعياتهم الخاصة وانما من أولئك الذين فقدوها لصالح الملاك الجدد كالملتزمين وكبار الموظفين والقواد الذين حصلوا على الاقطاعيات والدخول من الحكام الجدد على حساب النبلاء القدامى والفلاحين . في حين أن هناك نظرية أخرى تنظر إلى الاسماعيلية كايديولوجية رجعية ابتدعها كبار الملاك الاقطاعيون للدفاع عن امتيازاتهم ضد المساواة التي يناصرها الاسلام السني . وثمة نظرية ثالثة ترى في الاسماعيلية استجابة تختلف حسب الظروف لحاجات الجماعات المختلفة التي قاست من عبء النظام السلجوقي الجديد ولهذا فقد

تسنى لها أن تستقطب الطبقة الحاكمة القديمة المخلوعة وسكان المدن الساخطين على السواء . غير أن نظرية رابعة ترى أن الاسماعيلية ما هي ببساطة إلا حركة « شعبية » تقوم على أكتاف الحرفيين وفقراء المدن وفلاحي المناطق الجبلية وطبقاً لهذه النظرية فان اعلان حسن للقيامة كان انتصاراً للقوى « الشعبية » . وتهديداته بمعاقبة الذين استمروا في تطبيق الشريعة كانت موجهة ضد العناصر الاقطاعية في الممتلكات الاسماعيلية (عناصر الثورة المضادة) . الذين هم في الظاهر اسماعيليون ولكنهم في الباطن محافظون يضمرون الولاء للاسلام التقليدي ويعادون المساواة الاجتماعية !

والواقع أن هذه النظريات القائمة على التفسير الاقتصادي . مثل المحاولات السابقة القائمة على التفسير العنصري . قد أثرت معرفتنا بالاسماعيلية عن طريق توجيه البحث في اتجاهات جديدة ومفيدة . غير أنها أيضاً كالتفسيرات السابقة تعاني من التطرف في التفسير المذهبي الدوجماتي الذي يؤكد أهمية بعض الجوانب ويغفل جوانب أخرى وخاصة تلك المتعلقة بعلم الاجتماع الديني والزعامة والترابط . ومن الواضح انه يلزمنا بعض التعمق في معرفتنا بالاسلام وفرقه وبعض التشذيب في وسائل البحث قبل أن نستطيع أن نقرر إلى أي مدى كان العنصر الاقتصادي في الاسلام ذا دلالة ومدى كنهه بالضبط .

والحقيقة إنه ليس هناك تفسير واحد بسيط يكفي

لتوضيح ظاهرة الاسماعيلية المعقدة في مجتمع معقد كالمجتمع الاسلامي في القرون الوسطى . لقد استمرت الديانة الاسماعيلية فترة طويلة من الوقت وفي منطقة شاسعة من الأرض . وكانت تعني أشياء مختلفة في الأزمنة والأمكنة المختلفة . وكانت الدول الاسماعيلية امارات اقليمية لها خلافاتها وصراعاتها الداخلية . وكان النظام الاجتماعي والاقتصادي للأمبراطورية الاسلامية مثله في ذلك مجتمعات القرون الأوربية الوسطى معقد متغير النماذج من حيث النخبة الحاكمة ونظم الملكية والطبقات والتجمعات الدينية والعنصرية والاجتماعية ولم يلق الدين ولا المجتمع الذي ظهر فيه بحثاً كافياً فيما يبدو .

ان الاسماعيلية كغيرها من العقائد والحركات التاريخية الكبرى كانت تنهل من مصادر كثيرة وتخدم حاجات كثيرة . كانت للبعض وسيلة لضرب سيطرة مقيتة سواء بهدف اعادة نظام قديم أو انشاء نظام جديد . وكانت لآخرين بمثابة الطريق الوحيد لتحقيق ارادة الله في الأرض . وكانت للحكام سلاحاً لتحقيق استقلالهم المحلي وحمايته ضد التدخل الخارجي أو طريقاً لانشاء أمبراطورية . وكانت الاسماعيلية أملاً وعملاً . تعطي قدراً من المعنى والكرامة لحياة مريرة كئيبة . أو بشارة خلاص ودمار . أو عودة للحقائق السالفة أو وعداً بالتنوير المستقبلي .

وفيما يتعلق بمكان الحشاشين في تاريخ الاسلام يمكن أن نقرر بقدر معقول من التيقن أربعة أمور : الأول أن حركتهم بغض النظر عن طبيعة قوتها الدافعة اعتبرت بمثابة تهديد عميق للنظام القائم سياسياً واجتماعياً ودينياً . والثاني أن الاسماعيلية لم تكن بالظاهرة المنعزلة في التاريخ الاسلامي وانما كانت حلقة في سلسلة طويلة من الحركات التنبؤية وهي حركات شعبية غامضة تدفعها عوامل قلق عميقة الجذور وتنفجر بين وقت آخر في أعمال عنف ثوري . والثالث أن حسن الصباح وخلفاءه قد نجحوا في اعادة تشكيل وتوجيه الرغبات الغامضة والمعتقدات الحوشية والغضب غير الهادف لدى الساخطين في ايديولوجيا وتنظيم ليس لهما نظير من حيث التماسك والنظام والعنف الهادف في أي منظمة أخرى من قبل أو بعد . والرابع وربما النقطة الأكثر أهمية ان الاسماعيليين فشلوا فشلاً ذريعاً ونهائياً إذ لم يتمكنوا من قلب النظام القائم بل ولم ينجحوا في السيطرة على مدينة كبيرة واحدة وحتى ممتلكاتهم التي تحرسها القلاع لم تكن أكثر من امارات صغيرة لم تلبث حين جاء الوقت أن اقتحمها الغزاة وأصبح أنصارهم مجرد جماعات صغيرة مسالمة من الفلاحين والتجار . مجرد أقلية مدنية بين جماعات أخرى كثيرة .

ومع ذلك فان تيار الأمل التنبؤي والعنف الثوري

اللذين دفعا الاسماعيلية استمرا في التدفق ، ولم تلبث مثلهم ووسائلهم أن وجدت كثيرين من المقلدين ، وهؤلاء المقلدون أمدتهم التغيرات الكبرى في عصرنا الحديث بأسباب جديدة للغضب . وأحلام جديدة تبحث عن التحقق ، وأدوات جديد، للهجوم .

• • •

اغتيال نظام الملك

من مخطوطة فارسية لكتاب « جوامع التواريخ » تأليف رشيد الدين ، في مكتبة متحف قصر طوبكابي ، اسطنبول (الرقم ١٦٥٣) في مطلع القرن الرابع عشر

المؤلفون مع الكاتب والمؤيدين .

من مخطوطة عربية لرسائل اخوان الصفا ، (راجع الصفحة ٣٠) ، في مكتبة جامع السليمانية ، اسطنبول أكمل في ١٢٨٧/م

هولاكو في طريقه لاحتلال قلاع الاسماعيليين في العام ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م

من مخطوطة فارسية لكتاب « جامع التواريخ » ، من مكتبة الجمعية الآسيوية في البنغال ، كلكوتا ، العام ١٤٣٠ م

هولاكو من مخطوطة صور في المتحف البريطاني (الرقم ١٨٨٠٣) .

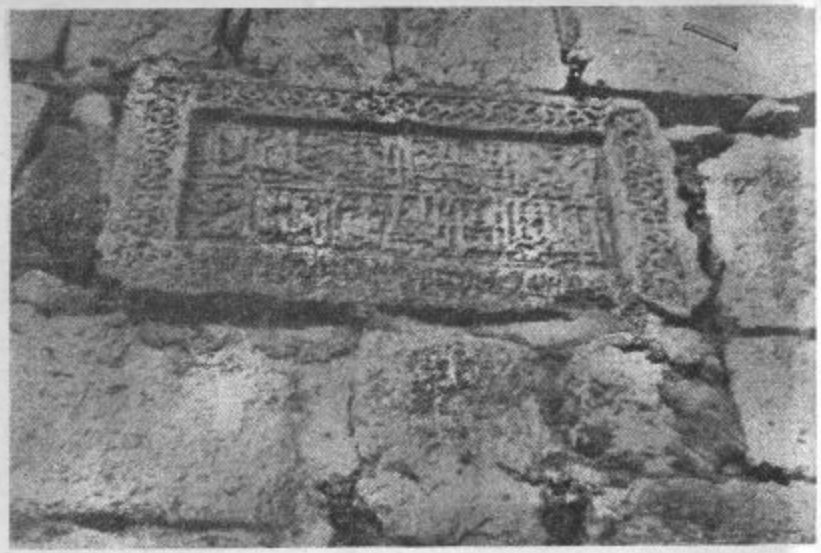

كتابة محفورة على حائط قلعة مصياف ، سورية ، في القرن الثالث عشر

صورة جوية لقلعة الحشاشين في مغين (Qa'in)

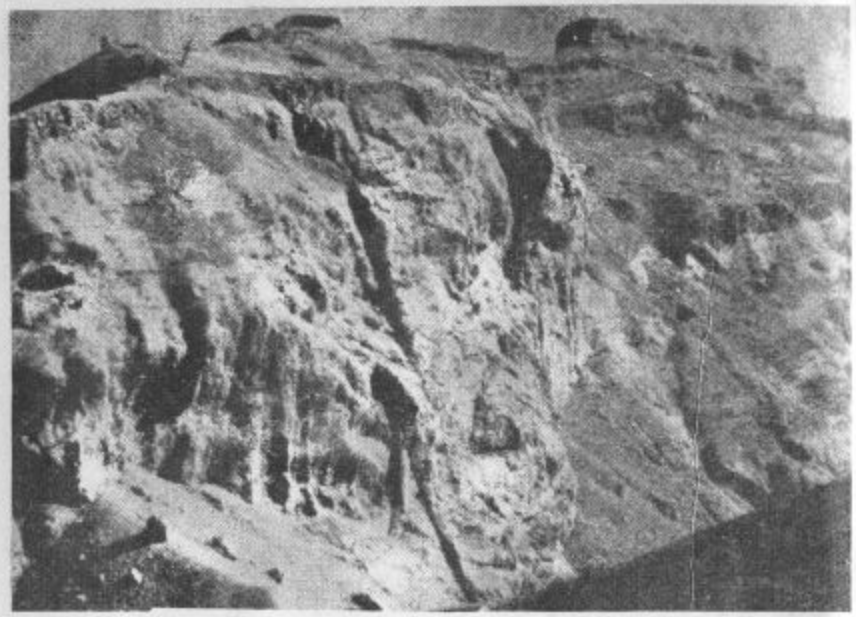

صخرة الموت ، مع القلعة في قمتها

قلعة الحشاشين في ميموندز

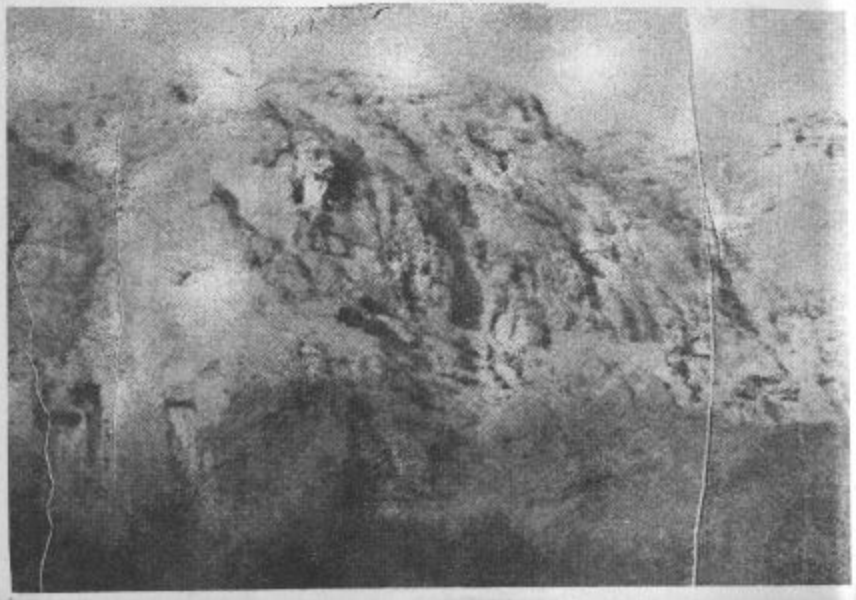

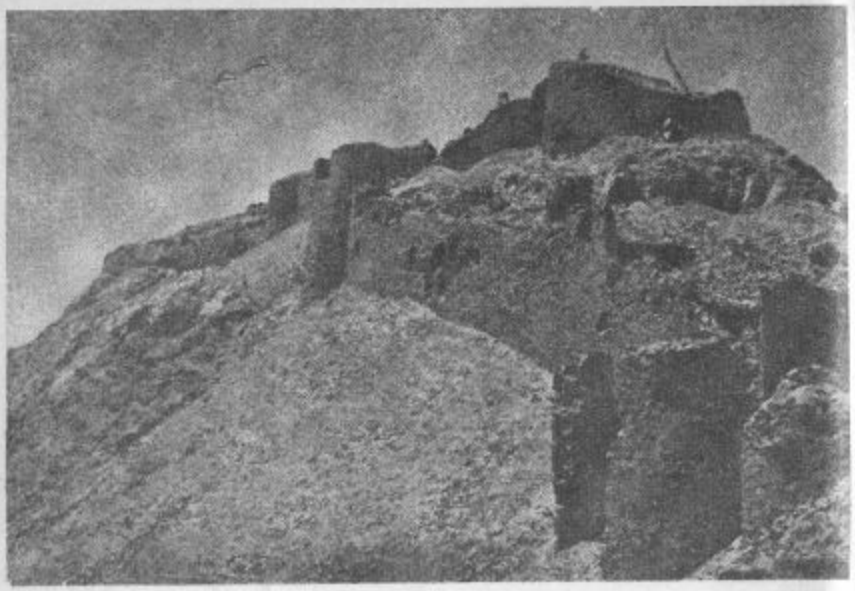

مشهد من قرب لأسوار قلعة طين

قلعة لاماسار أو قلعة المعشار .

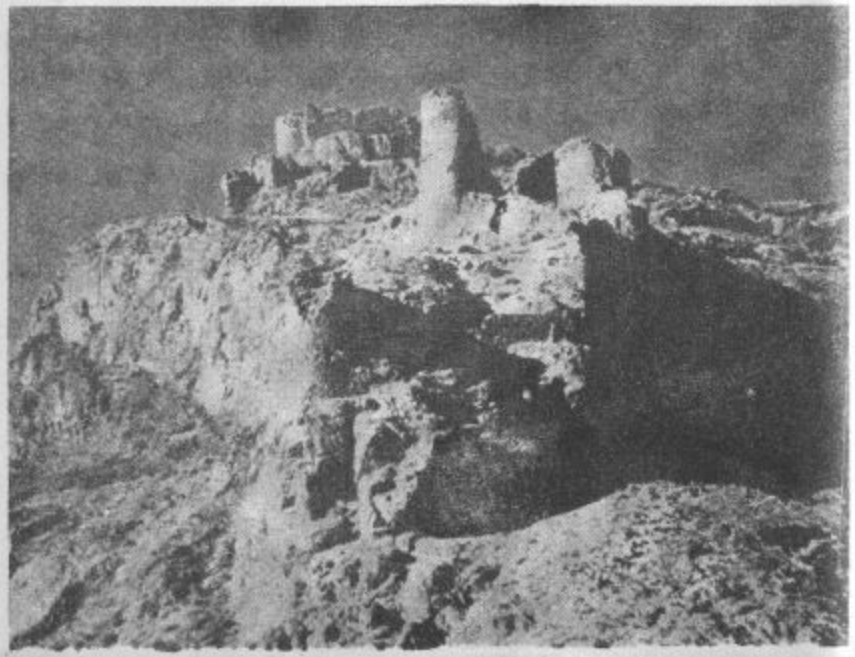

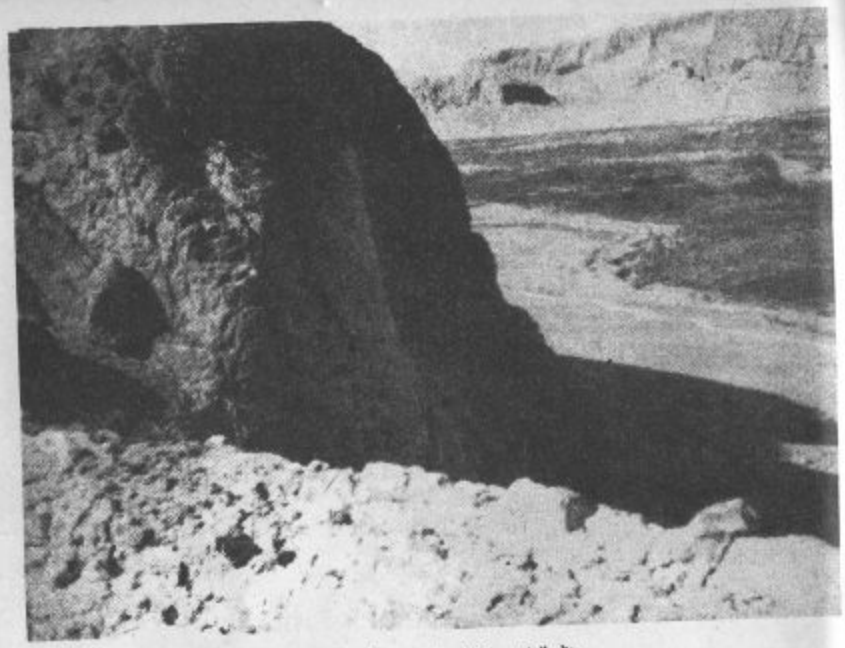

منظر الوادي من قلعة بوطي ، قرب أصفهان .

قلعة مصياف

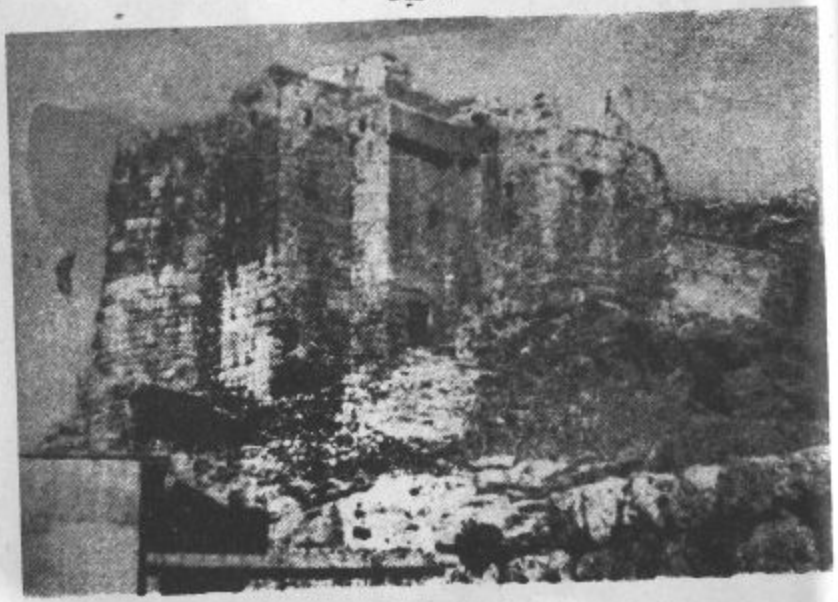

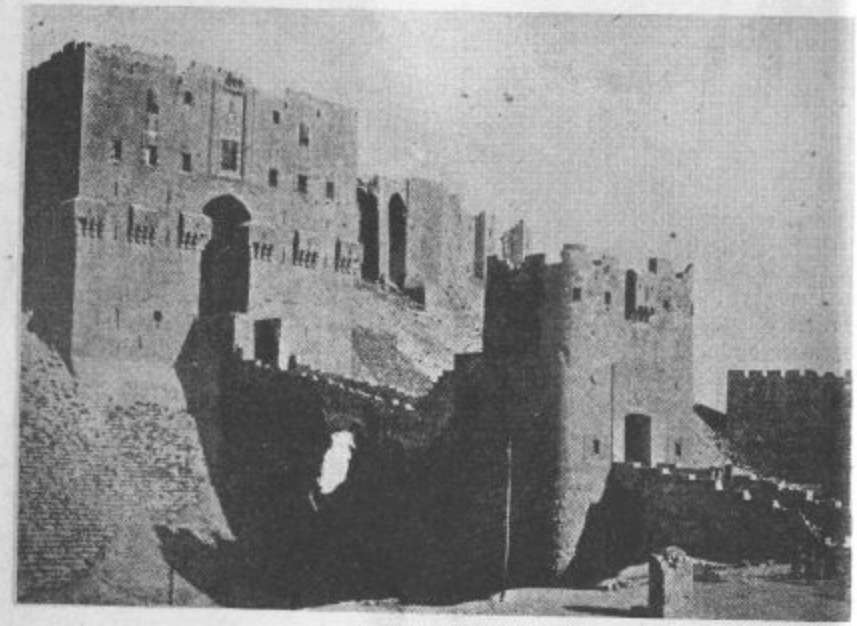

مدخل قلعة حلب

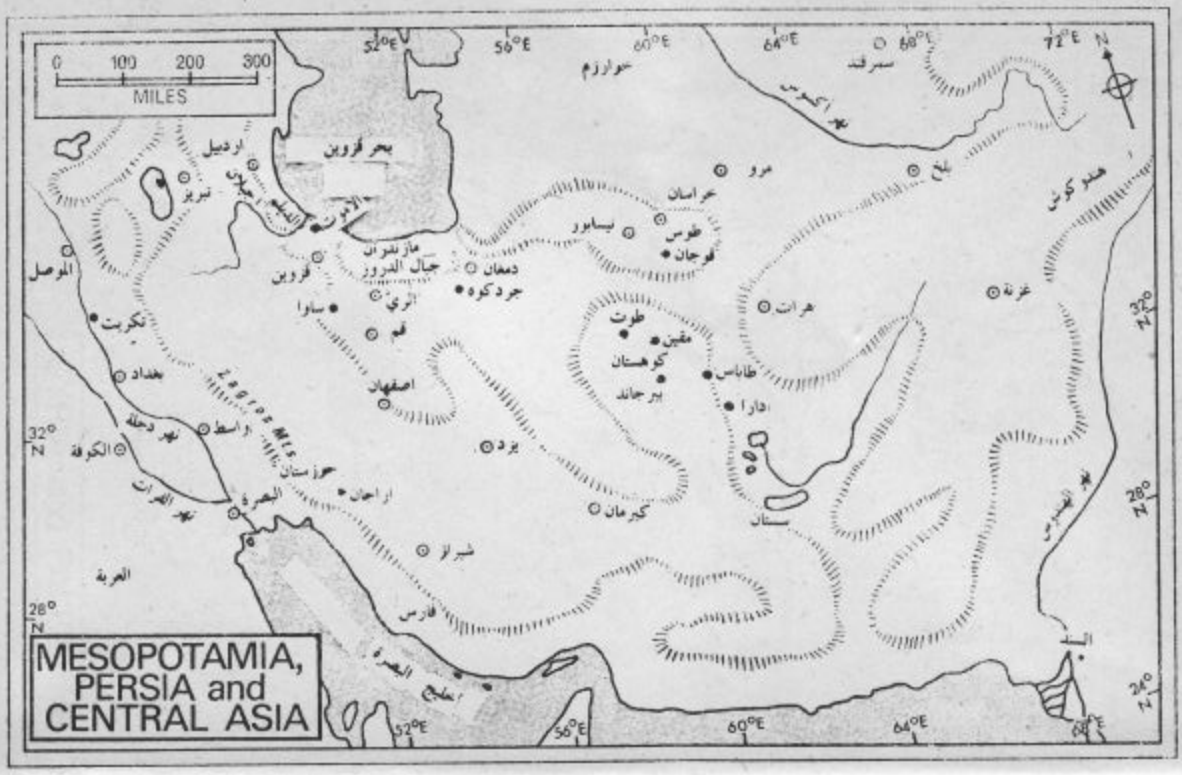

MESOPOTAMIA, PERSIA and CENTRAL ASIA

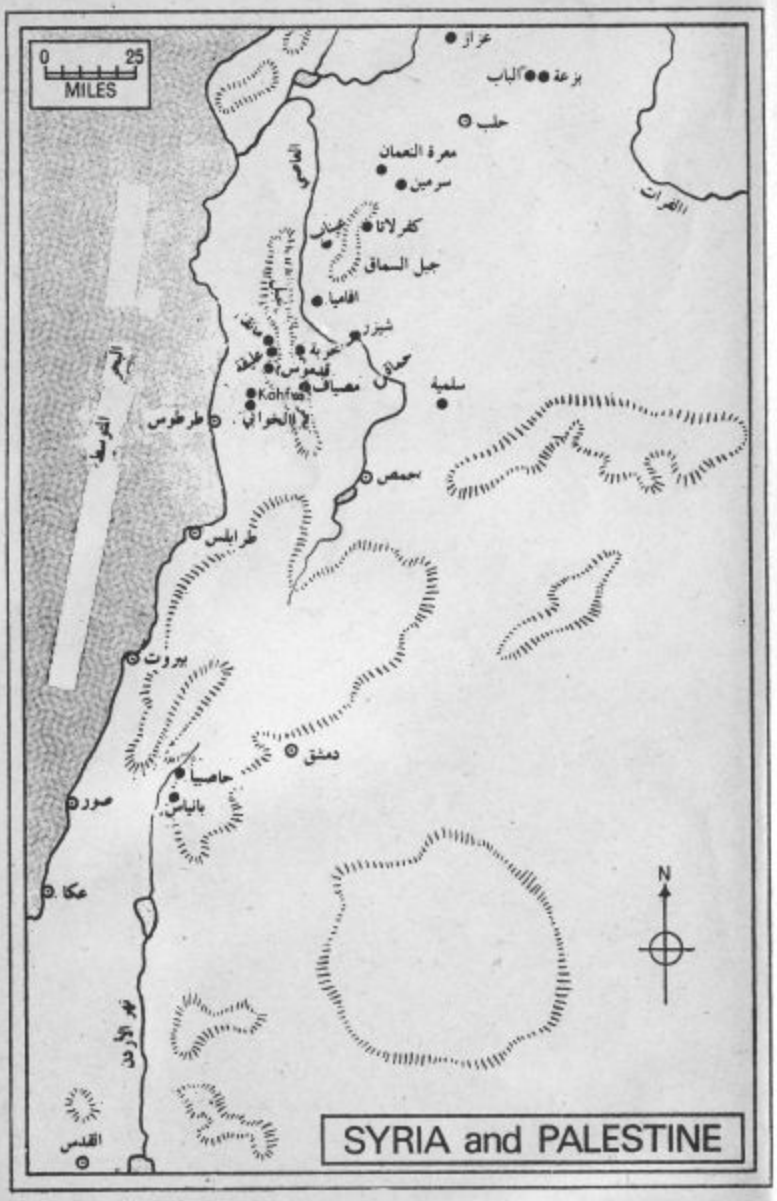

SYRIA and PALESTINE

الفهرس

		صفحة
الفصل الأول	: اكتشاف الحشاشين	٩
الفصل الثاني	: الاسماعيلية	٤٣
الفصل الثالث	: الدعوة الجديدة	٧٥
الفصل الرابع	: الدعوة في فارس	١٢١
الفصل الخامس	: شيخ الجبل	١٧٥
الفصل السادس	: الوسائل والغايات	٢٢٣